وقال النبىُّ ﷺ لأبىٍّ بن كعب : « يا أبا المنذر ، أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟» قلت: الله ورسوله أعلم ، قال : « يا أبا المنذر ! أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ » قلت : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة :٢٥٥] . فضرب فى صدرى وقال : «لِيهَنِكَ العلمُ يا أبا المنذر » رواه مسلم(١) .

فصل هدى النبى ﷺ فى التنبيه وصراحته فى التعليم

ذكر أبو العالية البَرَّاء ــ بتشديد الراء وبالمَدِّ كان يَبْرى النَّبْل ــ تأخيرَ ابنِ زياد الصلاةَ ذكر ذلك لعبد الله بن الصامت فعضَّ على شفتيه فضرب فخذى وقال : سألتُ أبا ذر كما سألتنى فضرب فَخِذى كما ضربتُ فَخِذَك وقال : سألتُ رسول الله ﷺ كما سألتنى فضرب فخذى كما ضربتُ فَخِذَكَ وقال: « صَلِّ الصلاةَ لوقتها ، فإنْ أدركتَ الصلاةَ معهم فَصَلِّ ولا تَقُلْ : إنى قد صليتُ فلا أصلى » (٢). وقال فى « شرح مسلم » : قوله : فضرب فَخِذى : أى للتنبيه وجمع الذهن على ما يقوله له(٣).

وفى قصة تخيير النبى ﷺ نساءه لما بدأ بعائشة ، وقالت : أختارُ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ ، وأسألك ألا تخبرَ امرأةً (٤) من نسائكَ بالذى قلتُ ، قال : « لا تَسْأَلُنى امرأةٌ منهنَّ إلا أخْبَرْتُها ، إنَّ الله لم يَبْعَثْنِى مُعنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا ، و لكنى بعثنى مُعَلِّمًا مُيَسِّراً » رواه مسلم (٥) من حديث جابر .

وفى « الصحيحين » من حديث عائشة أنها قالت له : لا تخبرْ نساءكَ أنى اخترتك ، فقال لها النبى ﷺ : « إن الله عز وجل أرسلنى مُبَلِّغاً ولم يرسلنى متعنتاً »(٦) .

فصل كراهة الكلام فى الوساوس وخطرات المتصوفة

قال المروذى : سُئل أبو عبد الله عَمَّنْ تكلم فى الوساوس والخطرات، فنهى عن مجالستهم وقال للسائل : احذرهم ، وقال : سمعت أبا عبد الله يقول : جاءنى الأرمينيون بكتاب ذكر

---

(١) مسلم فى صلاة المسافرين ، ب فضل سورة الكهف وآية الكرسى (٨١٠ / ٢٥٨) .

(٢) مسلم فى المساجد ، ب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها المختار ، وما يفعله المأموم إذا أخرها الإمام (٦٤٨/ ٢٤٢) .

(٣) مسلم بشرح النووى (٥ / ١٤٩) .

(٤) فى المخطوطة « أحداً » ، والمثبت من مسلم .

(٥) مسلم فى الطلاق ، ب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية (١٤٧٨ / ٢٩) .

(٦) رواه البخارى معلقاً (الفتح ٨ / ٥٢٠) ، ومسلم فى الطلاق ، ب فى الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، وقوله تعالى :﴿ **وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ** ﴾ (١٤٧٥ / ٣٥) .

الوساوس والخطرات وغيره ، قلتُ : فأىّ شىء قلتَ لهم ؟ قال : قلتُ : هذا كُلُّه مكروهٌ . وقال فى موضع آخر للمروذى : عليكَ بالعلم ، عليكَ بالفقه .

وقال إسحاق بن إبراهيم: سمعت أحمد بن حنبل يقول: مَن تكلم فى الخطرات ؟ التابعون، تابعو التابعين ؟ !

وقال أحمد بن القاسم : سمعتُ أبا عبد الله ورجل يسأله من ناحية الشام رجل غريب ، فذكر أنَّ ابنَ أبى الحوارى وقوماً معه هناك يتكلمون بكلام قد وضعوه فى كتاب ، ويتذاكرونه بينهم . فقال : ما هو ؟ قال : يقولون : المحبةُ لله أفضلُ من الطاعة ، وموضع الحب درجة كذا ، فلم يَدَعْهُ أبو عبد الله يَسْتَتِمُّ كلامَهُ ، وقال : هذا ليس من كلام العلماء ، لا يُلْتَفَتُ إلى مَنْ قال هذا ، وأنكر ذلك وكرهه .

وقال أبو زُرْعَةَ الرَّازِىُّ : وسئل عن الحارث المحاسبى[1] وكتبه ، فقال للسائل : إياكَ وهذه الكتب ، هذه كتبُ بِدَعٍ وضلالات ، عليكَ بالأثرِ ، فإنك تجدُ فيه ما يُغنيكَ . قيل له : فى هذه الكتب عبرة ، فقال : مَنْ لم يكن له فى كتاب الله عبرةٌ فليس له فى هذه الكتب عبرة. بلغكم أن سفيان ومالكاً والأوزاعى صَنَّفُوا هذه الكتبَ فى الخطراتِ والوساوس ؟ ما أسرعَ الناسَ إلى البدع ! انتهى كلامه .

ومحفوظٌ عن الإمام أحمد النهىُ عن كتب كلام منصور بن عمار [2]، والاستماع للقاص به.

قال القاضى أبو الحسين : إنما رأى إمامنا أحمد الناسَ لَهِجِينَ بكلامه وقد اشتهروا به حتى دَوَّنُوه وفَصَّلُوه مجالسَ يحفظونها ويُلْقُونها ، ويكثرون فيما بينهم دراستها ، فكره لهم أنْ يلهوا بذلك عن كتابِ الله ، ويشتغلوا به عن حفظ السنةِ وأحكام الملة لا غير .

فصل فى وعظ القصاص ونفعهم وضررهم وكذبهم

قال المروذى : سمعت أبا عبد الله يقول : يعجبنى القُصَّاصُ لأنهم يذكرون الميزان وعذاب

---

(١) هو الزاهد العارف ، شيخ الصوفية ، أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادى المُحاسبى ، صاحب التصانيف الزهدية ، يروى عن يزيد بن هارون يسيرا ، روى عنه : ابن مسروق ، والجنيد ، وأحمد بن القاسم . قال الخطيب : له كتب كثيرة فى الزهد ، وأصول الديانة ، والرد على المعتزلة والرافضة ، مات سنة ثلاث وأربعين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٢ / ١١٠ ــ ١١٢] .

(٢) هو منصور بن عمار بن كثير الواعظ ، البليغ الصالح الربانى أبو السرى السلمى الخراسانى ، روى عن الليت ، وابن لهيعة ، ومعروف الخياط وغيرهم ، حدث عنه ابناه سليم وداود ، وزهير بن عبادة وأحمد ابن منيع وغيرهم ، قالوا فيه : صاحب مواعظ ليس بالقوى ، حديثه منكر ، يروى عن ضعفاء أحاديث لا يتابع عليها ، مات فى حدود المائتين . [سير أعلام النبلاء ٩ / ٩٣ ــ ٩٨] .

القبر . قلت لأبى عبد الله : فترى الذهابَ إليهم ؟ فقال : إى لعمرى إذا كان صدوقا لأنهم يذكرون الميزانَ وعذابَ القبر ، قلت له : كنتَ تحضرُ مجالسهم أو تأتيهم ؟ قال : لا . قال : وشكا رجل إلى أبى عبد الله الوسوسة فقال : عليك بالقُصَّاص ، ما أنفع مجالِسَهُمْ ! وقال فى رواية جعفر بن محمد : ما أحوجَ الناسَ إلى قاصٍّ صَدُوق .

وقال فى رواية على بن زكريا التَّمار وسئل عن القَصَّاص والمُعَبِّر فقال : يُخْرَجُ المُعَبِّرُ ولا يُخْرَجُ القَصَّاصُ . وقال لنا : يعجبنى القَاصُّ فى هذا الزمان ، لأنه يذكرُ الشفاعة والصراط . وقال فى رواية إسحاق بن إبراهيم : ما أنفعهم للعامة ، وإنْ كان عامة ما يتحدثون به كذباً . وقال فى رواية أبى الحارث : أكذب الناس القُصَّاصُ والسُّؤالُ . وسئل عن مجالسة القُصَّاص فقال : إذا كان القاص صدوقاً ، فلا أرى بمجالسته بأساً .

وروى الخلال عنه أنه صلى فى مسجد ، فقام سائل فسأل ، فقال أبو عبد اللّه : أخرجوه من المسجد ، هذا يكذبُ على رسول اللّه ﷺ .

وقال مهنا: إنَّ أبا عبد اللّه سألوه عن القصص فرخَّصَ فيه، فقلت له: حدثنا عبد الرزاق، عن معمر ، عن الزهرى ، عن سالم ، عن ابن عمر أنه كان يخرج من المسجد يقول : ما أخرجنى إلا القصاص ولولاهم ما خرجت ، فقال لى : يعجبنى القصاصُ اليوم ، لأنهم يذكرون عذاب القبر ويخوفون الناس ، فقلت له: حدثنا ضمرة قال : جاءنا سفيان هاهنا فقلنا: نستقبل القصاص بوجوهنا ؟ فقال : ولُّوا البِدَعَ ظهوركم ، فقال أحمد : نعم ، هذا مذهب الثورى .

وقال أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك بن ميسرة ، سمعتُ كردوس ابن قيس [1] وكان قاصَّ العامة بالكوفة يقول : أخبرنى رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبى ﷺ يقول : « لأَنْ أقعدَ فى مثل هذا المجلس أحب إلى من أن أعتقَ أربعَ رقاب » [2] . قال شعبة : فقلت : أى مجلس تعنى ؟ قال : كان قاصاً . لم أجد فى كردوس كلاماً ، وعبد الملك من الثقات الكبار .

وقال أيضاً : حدثنا أبو المغيرة : حدثنا صفوان : حدثنا عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن الحارث بن معاوية الكندى : أنه ركب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأله عن ثلاث خلال ، فقدم المدينة فسأله : ما أقدمك ؟ قال : لأسألك عن ثلاث ــ وسأله الثالثة عن

---

(١) هو الإمام المتقن أبو الحسن خلف بن محمد بن عيسى الواسطى . سمع : على بن عاصم ، ويزيد بن هارون ، وروحاً ، وعنه : ابن ماجه، وابن مَخْلَد ، وإسماعيل الصفار ، وثقة الدارقطنى ، توفى سنة أربع وسبعين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٣/١٩٩]

(٢) أحمد ٥/٣٦٦ ، والدارمى ٢/٣١٩ .

القصص ــ فإنهم أرادونى على القصص ، فقال : ما شئت . كأنه كره أن يمنعه ، قال : إنما أردت أنتهي إلى قولك . قال أخشى عليك أن تقص فترتفع عليهم فى نفسك ثم تقص فترتفع حتى يُخَيَّلَ إليكَ أنك فوقهم بمنزلة الثريا ؛ فيضعكَ اللّه عز وجل تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك . إسناد جيد .

وروى الخلال عن يونس بن عبيد أنه رأى رجلاً فى حلقة المعتزلة فقال : تعال ، فقال : فجئت ، فقال : إنْ كنت لابد فاعلاً فعليك بحلقة القصاص .

وروى أيضاً عن زياد النميرى ــ وهو ضعيف ــ أنه أتى أنس بن مالك قال : فقال لى : قصَّ ، فقلتُ : كيف والناسُ يزعمون أنه بدعة ، فقال: لو كان بدعةً ما أمرناكَ به ، ليس شيء من ذكر اللّه عز وجل بدعة ، قال : فقصصتُ فجعلتُ أكثرَ قصصى دعاء ، رجاء أن يؤمن ؟ قال : فجعلت أقص وهو يؤمن .

وقال الأوزاعى : كان الحسنُ إذا قَصَّ القاصُّ لم يتكلمْ ، فقيل له فى ذلك فقال : إجلالا لذكر اللّه عز وجل .

وروى أبو داود عن محمود بن خالد ، عن أبى مسهر ، عن عباد بن عباد الخواص ، عن يحيى بن أبى عمرو السيبَانى ، عن عمرو بن عبد اللّه السيْبَانى ، عن عوف بن مالك الأشجعى مرفوعاً : « لا يَقُصُّ إلا أميرٌ أو مأمورٌ أو مختال » [1] عمرو تفرد عنه يحيى ، ووثقه ابن حبان، وباقيه جيد ؛ تابعه صالح بن أبى غريب عن كثير بن مرة عن عوف ، وتابعه عبد اللّه ابن زيد ويقال : ابن يزيد قاصُّ مَسْلَمَةَ بالقسطنطينية عن عوف .

قال فى « النهاية » : أى لا ينبغى ذلك إلا لأمير يعظُ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا ، أو مأمور بذلك فحكمه كالأمير ، ولا يقص تكسُّباً ، أو يكون القاص مختالاً يفعل ذلك تكبراً على الناس أو مرائياً [2] . وقيل : أراد الخطبة ،لأن الأمراء كانوا يلونها ، ويعظون الناس فيها، ويقصون عليهم أخبارَ الأمم السالفة ، قال : ومنه الحديث : « القاصُّ ينتظرُ المقتَ » [3] لما يعرض فى قصصه من الزيادة والنقصان ، قال : ومنه الحديث : « إنَّ بنى إسرائيل لما قَصُّوا هَلَكُوا » [4] . وفى رواية : « لما هلكوا قصوا » أى اتَّكَلُوا على القول وتركوا العمل ، فكان ذلك سبب هلاكهم ، أو بالعكس : لما هلكوا بترك العمل أخلدوا إلى القصص .

وسئل الأوزاعى عن القوم يجتمعون ، فيأمرون رجلاً فيقص عليهم ، قال : إذا كان ذلك يوماً بعد الأيام ، فليس به بأس. وقال حبيب بن الشهيد : قال إنسان لابن سيرين: إنَّ أبا مجْلَزٍ كان لا يقعد إلى القاص ، قال : قعد إليه مَنْ هو خيرٌ منه . وعن الحسن قال: القصص بدَعةٌ،

---

(١) أحمد ٦/ ٢٣ ، و أبو داود فى العلم ، ب فى القصص (٣٦٦٥) .

(٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٤/ ٧٠ .

(٣) ابن الجوزى فى الموضوعات ٢/ ٢٤٢ .

(٤) الطبرانى فى الكبير (٣٧٠٥) وأبو نعيم فى الحلية ٤/ ٣٦٧ ، وانظر : النهاية فى غريب الحديث ٤/ ٥٧١ .

بدعةٌ ، ونعم البدعة ، كم من دعاء مستجاب أو أخ مستفاد !. وقال حنبل : قلتُ لعمى فى القصاص ، قال : القصاص الذين يُذكِّرون الجنة والنار والتخويف ، ولهم نية وصدق الحديث، فأما هؤلاء الذين أحدثوا من وضع الأخبار والأحاديث فلا أراهُ . قال أبو عبد اللّه : ولو قلت أيضاً : إنَّ هؤلاء يسمعهم الجاهلُ والذى لا يعلم ، فلعله ينتفع بكلمةٍ أو يرجع عن أمرٍ ، كان أبو عبد اللّه يكره أن يمنعوا ، وقال : ربما جاؤوا بالأحاديث الصحاح .

وروى أحمد عن غُضَيف بن الحارث قال : بعث إلىَّ عبد الملك بن مروان قال : يا أبا أسماء ، إنا جمعنا الناسَ على أمرين ، فقال : وما هما ؟ قال : رفع الأيدى على المنابر يوم الجمعة ، والقصص بعد الصبح والعصر ؟ فقال : أما إنهما أفضل بدعتكم ولست بمجيبكم إلى شىءٍ منها . قال : لأنَّ النبىَّ ﷺ قال : « ما أحدثَ قومٌ بدعةً إلا رفع من السنة مثلها » ، فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة (١) . وقال أبو عبد اللّه : لا أحبُّ أنْ يُملَّ الناسَ ، ولا يُطيلَ الموعظةَ إذا وعظ .

وروى حنبل من رواية أبى جعفر الرازى ماهان ، عن الربيع بن أنس ، قال : مَرَّ علىٌّ رضى اللّه عنه على قاصٍّ ، فقام إليه فقال : هل تعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال: هل تعرف المُحْكَمَ من المتشابه ؟ قال : لا ، قال : هل تعرف الزجر من الأمر ؟ قال : لا ، فأخذ بيده فرفعها وقال : إن هذا يقول : اعرفونى اعرفونى .

وبإسناد صحيح عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : انتهى علىٌّ إلى رجلٍ وهو يقص ، فقال: علمت الناسخ من المنسوخ ؟ قال: لا، قال: هلكتَ وأهلكت . وعن ابن عباس معناه.

وعن عائذ بن عمرو أنه قال لقاص : هل تعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال : فعلام تقصُّ على الناس وتغرُّهم عن دينهم وأنت لا تعرفُ حلالَ اللّه من حرامه ؟ .

وعن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه قال : إذا سمعتُم السائلَ يحدثُ بأحاديث الجاهلية يوم الجمعة فاضربوه بالحصى . روى ذلك الخلال .

قال الشيخ تقى الدين : قال الإمام أحمد رحمه اللّه أكذبُ الناس على رسول اللّه ﷺ السُّؤال والقُصَّاصُ فيجب منعُ مَنْ يكذب مطلقاً ، فكيف إذا كان يكذب ويسأل ويتخطى ؟ وكيف مَنْ يكذب على رؤوس الناس فى مثل يوم الجمعة ؟ فَنَهْىُ مَنْ يكذب من أعظم الواجبات، بل وينهى مَنْ روى ما لا يعرف : أصدق هو أم كذب ؟ انتهى كلامه .

وقال ابن عقيل فى « الفنون » : ولا يصلحُ للكلامِ على العوام ملحدٌ ولا أبله ، وكلاهما يفسدُ ما يحصلُ لهم من الإيمان .

---

(١) أحمد ٤/ ١٠٥ عن غضيف بن الحارث الثمالى .

وقال : المرءُ مخبوءٌ تحتَ لسانه ولابد أن ينكشفَ قَصْدُه من صفحاتِ وجهه وقلبه أو لسانه، وقال : ما أخوفنى على مَنْ كانت الدنيا أكبر هَمِّه أنْ تكونَ غاية حَظِّه .

قال : وسئل عن قوم يجتمعون حول رجل يقرأ عليهم أحاديثَ وهو غير فقيه ؟ فقال: هذا وبال على الشرع أو نحو ذلك ، فإن جماعةً من العوام تفرقوا عن مجلس مثل هذا وبعضهم يقول لبعض : أستغفر مما فعلتُ كثيرًا ولم أعلم أنَّ الشرعَ قد نهى عنه ، قيل له : وما هو ؟ قال كنتُ أبذلُ ماء قَراحى وأبذلُ حَقِّى من الماء ، وإذا هو قد نَهى الشرع عنه فإنه قد روى لنا الشيخ عن النبى ﷺ : « لا يَسْقِيَنَّ أحَدُكم ماءَهُ زرعَ غيره » (١) وقد نهى النبىﷺ عن بيع وشرط (٢) وقد كنتَ أشرطَ الخيار لنفسى، فأستغفرَ الله من ذلك . فهذا وأمثاله إذا ورد وسمعه العوام كان نسخًا عندهم لأحكام الشرع ، وإنما الراوى إذا كان قادرًا أن يبين خُصوصَ العام المخصص وتقييدَ المطلق بتقييده وإلا فمخاطرة، وربما قرأ: « نَفَسُ الرحمن من اليمن » و« الحجر الأسود يمينُ اللّه » ومعلوم أنَّ من اعتقد ظاهر هذا كفر .

قال ابن الجوزى فى كتاب « السر المكتوم »: لا يَصْلُحُ لإيداع الأسرار كُلُّ أحد، ولا ينبغى لمن وقع بكنزٍ أنْ يكتمه مطلقاً ، فربما ذهب هو ولم ينتفع بالكنز ، وكما أنه لا ينبغى للعالم أنْ يخاطبَ العوامَّ بكل علم ، فينبغى أنْ يخصَّ الخواص بأسرار العلم لاحتمال هؤلاء مالا يحتمله أولئك، وقد علم تفاوت الأفهام، وقد قال تعالى: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ**﴾ [النساء: ٨٣]. وقال : ﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٣] . وقال : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [النحل : ١٢٥] . وقال عليه السلام : « لِيَلِنى منكم أولُو الأحلام والنُّهى » (٣) .

وقال أبو هريرة رضى اللّه عنه : سمعت من رسول اللّه ﷺ وعاءين بَثَثْتُ أحدهما ، ولو بثثتُ الآخرَ لَقُطِعَ هذا الحلقوم (٤) . وهذا يشكل ، فيقال : كيف كتم العلم ولا أحسب هذا المكتوم إلا مثل قوله : « إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مالَ اللّه دولاً » (٥) ، ومثل ذكر قتل عثمان وما سيظهر من الفتن .

---

(١) أحمد ٤/ ١٠٨ ، وأبو داود فى النكاح ، ب فى وطء السبايا (٢١٥٨) كلاهما عن رويفع بن ثابت الأنصارى .

(٢) الترمذى فى البيوع ، ب كراهية بيع ما ليس عندك (١٢٣٤) عن عبد الله بن عمرو .

(٣) مسلم فى الصلاة ، ب تسوية الصفوف وإقامتها (٤٣٢/ ١٢٢) ، وأبو داود فى الصلاة ، ب من يستحب أن يلى الإمام فى الصف ، وكراهية التأخر (٦٧٤) .

(٤) البخارى فى العلم ، ب حفظ العلم (١٢٠) .

(٥) أحمد ٣/ ٨٠ ، والحاكم فى مستدركه ٤/ ٤٨٠ كلاهما عن أبى سعيد ، وابن حجر فى المطالب العالية (٤٥٣١) عن أبى هريرة .

ومن التغفيل تَكَلُّمُ القُصَّاص عند العوام الجَهَلة بما لا ينفعهم وإنما ينبغى أنْ يُخاطبَ الإنسانُ على قَدْرِ فَهْمه ، ومخاطبةُ العوام صعبةٌ ، فإنَّ أحدهم ليرى رأياً يخالف فيه العلماء ولا ينتهى. وقد رأينا أنَّ امرأةً قالت لولدها من غير زوجها : هذا زوجى كافر ، قال : وكيف ؟ قالت : طلقنى بكرة وضاجعنى فى الليل ، فقال : أنا أقتلُه وما عَلِمَ أنَّ الرجعيةَ زوجةٌ ، وأنه قد أشهدَ على ارتجاعها من غير علمها ، أو أنه يعتقدُ أنَّ الوطءَ رجعةٌ . ورأى رجل رجلاً يأكل فى رمضان فَهَمَّ بقتله وما عَلِمَ أنه مسافرٌ ، فالويل للعلماء من مقاساة الجهلة .

ثم روى بإسناده وهو ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً : « ما أنتَ بمحدِّثٍ قوماً حديثاً لم تَبْلُغْهُ عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة » (١) .

وكان ابن عباس يسر إلى قوم ولا يحدث قوماً .

وقال عمن وعظ العوام : ليحذر الخوض فى الأصول فإنهم لا يفهمون ذلك ، لكنه يوجب الفتن ، وربما كَفَّروه مع كونهم جَهَلة .

وينبغى أن يمدح جميع الصحابة رضى اللّه عنهم ، ولا يتعرض بتخطئة أحدٍ منهم ، فَقَلَّ أنْ يرجعَ ذو هوىً عن عصبيته ، وإن كان عامياً فما يستفيدُ مُكَلِّمُ الناسِ بما قد رسخ فى قلوبهم غيرُه إلا البُغْضَ والوقيعةَ فيه ، فإن سأله ذو هوى تلطف فى الأمر وأشار له إلى الصواب . وذكرت مرة أن جماعة من العلويين خرجوا على الخلفاء فعادانى العلويون ، وقلت : ما أسلم أبو طالب ، فزادت عداوتهم ، ولا ينبغى للواعظ أن يتعرض لغير الوعظ، فإنه يعادى وما يتغير ذو عقيدة .

واعلمْ أنَّ أغراضَ العوام لا يقدر العلماء على تغييرها ، فقد رأينا من الوعاظ مَنْ كان معروفاً بالتشيع ذكر يوماً : أنَّ على بن أبى طالب يوماً شرب الخمرَ حين كانتْ مُباحةً فهجروه وسبوه . وسئل آخر : هل يسمعُ النبىُّ ﷺ ليلة الجمعة صلاةَ مَنْ يصلى عليه ؟ فقال : ليس هذا بصحيح ، فَضَجُّوا بلعنته . وقال آخر : أولُ مَنْ أسلم من الصبيان علىٌّ ، فغضب قوم وقالوا : كأنه لم يخلق مسلماً ! .

فالحذرَ الحذر من مخاطبة مَنْ لا يفهم بما لا يحتمل . وقد جرت فتنٌ بين أهل الكَرْخ (٢) وأهلِ بابِ البصرة سنين قتل فيها من الفريقين خَلْقٌ كثير لا يدرى القاتل لِمَ قتل ولا المقتول ،

---

(١) رواه مسلم فى مقدمة صحيحه ١/ ١١ فى باب النهى عن الحديث بكل ما سمع وكنز العمال (٢٩٠١١) وقال : « رواه ابن عساكر عن ابن عباس » ، والأسرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة ص ٩٢ عن ابن مسعود .

(٢) هى بلدة بالعراق . انظر : معجم البلدان ٤/ ٤٤٧ .

وإنما كانت لهم أهواء مع الصحابة ، فاستباحوا بأهوائهم القتلَ ؛ فاحذرِ العوامَّ كُلَّهم ، والخَلْقَ جملةً ، فقد قال الشاعر :

فَسَـدَ الزمـانُ فـلا كريـمٌ يُـرْتجى منـه النـوالُ ولا مليحٌ يُعْشَـقُ

فصل فى هدى رسول اللّه ﷺ فى الكلام

قال أبو داود (باب الهدى فى الكلام) : حدثنا عبد العزيز بن يحيى الحَرَّانىُّ ، حدثنى محمد يعنى ابن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن عمر بن عبد العزيز، عن يوسف بن عبد اللّه بن سلام ، عن أبيه ، قال : كان رسول اللّه ﷺ إذا جلس يتحدث يكثر أن يرفع طرفه إلى السماء (١) . ابن إسحاق مدلس .

ثم روى من حديث مسعر : سمعت شيخاً فى المسجد : سمعت جابر بن عبد اللّه يقول: كان فى كلام رسول اللّه ﷺ ترتيل أو ترسيل (٢) .

ثم روى من حديث سفيان ، عن أسامة هو ابن زيد ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة رضى اللّه عنها قالت : كان كلام رسول اللّه ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كل مَنْ يسمعه (٣). وقالت : كان يحدثنا حديثاً لو عَدَّهُ العَادُّ لأحصاه (٤) ، وقالت : إنه لم يكن يسردُ الحديث كسردكم . متفق عليه (٥) .

وللبخارى : عن أنس ، عن النبى ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفْهَمَ عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سَلَّمَ ثلاثاً (٦) .

فصل كراهة التشدق فى الكلام

عن عبد اللّه بن عمرو رضى اللّه عنهما : أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنَّ اللّه عز وجل يبغضُ البليغَ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تَتَخَلَّلُ البقرة بلسانها » (٧) إسناده جيد رواه

---

(١) أبو داود فى الأدب ، ب الهدى فى الكلام (٤٨٣٧) .
(٢) السابق: (٤٨٣٨) .
(٣) السابق: (٤٨٣٩) .
(٤) البخارى فى المناقب ، ب صفة النبى ﷺ (٣٥٦٧) ، ومسلم فى الزهد ، ب التثبت فى الحديث ، وحكم كتابة العلم (٢٤٩٣/ ٧١) .
(٥) البخارى فى المناقب ، ب مناقب النبى ﷺ (٣٥٦٨) ، ومسلم فى فضائل الصحابة ، ب من فضائل أبى هريرة الدوسى (٣٤٩٣/ ١٦٠) .
(٦) البخارى فى العلم ، ب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه (٩٤) .
(٧) أحمد ٢/ ١٦٥ ، وأبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى المتشدق فى الكلام (٥٠٠٥) ، والترمذى

أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه .

قال فى « النهاية » : هو الذى يتشدقُ فى الكلام ، ويفخم به لسانه ، ويَلُفُّهُ كما تَلُفُّ البقرةُ الكلأ بلسانها لفاً (١).

وروى الترمذى عن أحمد بن منيع ، عن يزيد بن هارون ، عن أبى غسان محمد بن مُطَرِّف ، عن حَسَّانَ بن عطيَّة ، عن أبى أُمامة ، الباهلى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الحياء والعىُّ شعبتانِ من الإيمان ، والبَذاءُ والبيانُ شعبتانِ من النفاق » (٢) كلهم ثقات .

وفى « أطرافِ الحافظِ ابن عساكر » : حسان لم يسمع من أبى أمامة ، قال الترمذى : حسن غريب . وإنما جعل الحياء ــ وهو غريزة ــ من الإيمان ــ وهو اكتساب ــ لأن المستحى ينقطع بحيائه عن المعاصى فصار كالإيمان الذى يقطع بينها وبينه ، وإنما جعله بعضه لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار ما أمر اللّه به وانتهاء عما نهى اللّه عنه ؛ فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان ، والعىُّ : قلة الكلام ، والبَذَاءُ : الْفُحْشُ فى الكلام .

وروى الترمذى : حدثنا أحمد بن الحسن بن خِرَاش البغدادى ، حدثنا حسان بن هلال ، حدثنا مبارك بن فضالة ، حدثنى عبد ربه بن سعيد ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنَّ مِنْ أحبِّكم إلىَّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسِنَكُمْ أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمُتَفَيْهِقون » قالوا : يا رسول اللّه ، قد علمنا الثرثارين والمتشدقين ، فما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبرون » (٣) . مبارك ثقة تكلم فيه جماعةٌ من جهة التدليس وقد زال . قال الترمذى : حسن غريب من هذا الوجه . ورواه بعضهم عن مبارك ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، ولم يذكر عبد ربه ، وهذا أصح .

قال فى « النهاية » : الثرثار: الذى يُكْثِرُ الكلامَ تكلفاً وخروجاً عن الحق ، والثرثرة : كثرة الكلام وترديده (٤) ، والمتشدق : المتوسع فى الكلام من غير احتياط واحتراز ، وقيل : المستهزئ بالناس يلوى شدقه بهم وعليهم (٥) ، قال : والمتفيهق : الذى يتوسع فى الكلام

فى= = الأدب ، ب ما جاء فى الفصاحة والبيان (٢٨٥٣) .

(١) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٢/ ٧٣ .

(٢) أحمد ٥/ ٢٦٩ ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى العى (٢٠٢٧) .

(٣) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى معالى الأخلاق (٢٠١٨) .

(٤) انظر : النهاية فى غريب الحديث ١/ ٢٠٩ .

(٥) السابق: ٢/ ٤٥٣ .

ويفتح فاه به ، مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء والاتساع ، يقال : أفهقتُ الإناء فَفَهِقَ يَفْهَقُ فَهْقاً (١) .

ثم روى أبو داود فى هذا الباب وهو (باب ما جاء فى المتشدق فى الكلام) : حدثنا ابن السرح ، حدثنا ابن وهب ، عن عبد اللّه بن المسيب ، عن الضَّحَّاك بن شُرَحْبِيل ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ تعلم صرفَ الكلام ليسبىَ به قلوبَ الرجال ــ أو الناس ــ لم يقبل اللّهُ منه يومَ القيامة صرفاً ولا عَدْلا » (٢) . عبد اللّه بن المُسَيَّب تَفَرَّدَ عنه ابن وهب ، ووثَّقه ابن حبان .

وصرْفُ الحديث : ما يتكلفه الإنسانُ من الزيادة فيه على قدر الحاجة ، وإنما كره لما يدخله من الرياء والتصنع ، ولما يخالطه من الكذب والتزيد ، يقال: فلان لا يُحسن صَرْفَ الكلام : أى فضل بعضه على بعض . وهو من صرف الدراهم وتفاضلها ، ذكره فى « النهاية » (٣) .

والصرف : التوبة ،وقيل : النافلة ، والعدل : الفِدية ، وقيل : الفريضة ، وتكررت هاتان اللفظتان فى الحديث (٤) .

وروى أيضاً : حدثنا سليمان بن عبد الحميد أنه قرأ فى أصل إسماعيل بن عياش ، وحدث محمد بن إسماعيل ابنه قال : حدثنى أبى ، حدثنى ضمضم ، عن شُرَيح بن عبيد ، حدثنا أبو طيبة أن عمرو بن العاص قال يوماً ــ وقام (٥) رجلٌ فأكثَرَ القولَ ــ فقال عمرو : لو قَصَدَ فى قوله لكان خيراً له ، سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « رأيت أو أُمِرْتُ أنْ أتجوَّزَ فى القول ؛ فإنَّ الجواز هو خير » (٦). محمد بن إسماعيل ليس بذاك ،وضمضم مختلف فيه .

وعن معاوية رضى اللّه عنه قال : لعن رسول اللّه ﷺ الذين يشققون الكلام تشقيق الشِّعر، رواه أحمد (٧) .

وعن ابن عمر قال : قدم رجلان من المشرق فى زمان رسول اللّه ﷺ فخطبا ، فعجب الناس لبيانهما فقال : « إنَّ من البيان لسحرا ــ أو ــ إنَّ من بعض البيان لسحراً » رواه أحمد والبخارى وأبو داود وغيرهم (٨) .

---

(١) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٣/ ٤٨٢ .
(٢) أبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى المتشدق فى الكلام (٥٠٠٦) .
(٣) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٣/ ٢٤ .
(٤) السابق ذاته.
(٥) فى جميع النسخ : « وقال » ، والمثبت من أبى داود . .
(٦) أبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى المتشدق فى الكلام (٥٠٠٨) .
(٧) أحمد ٤/ ٩٨.
(٨) أحمد ٢/ ١٦ ، والبخارى فى النكاح ، ب الخطبة (٥١٤٦) ، وأبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى=

قال فى « النهاية » : أى منه ما يصرفُ قلوبَ السامعين وإنْ كان غيرَ حق . وقيل : معناه إن من البيان ما يكتسبُ به من الإثم ما يكتسبه الساحرُ بسحره ، فيكون فى معرض الذم . ويجوز أن يكون فى معرض المدح ؛ لأنه تُسْتَمال به القلوبُ [1] ، ويترضى به الساخط ، ويستنزل به الصعب ، والسحر فى كلامهم صَرْفُ الشيء عن وجهه [2] .

وقال ابن عبد البر : تأولته طائفة على الذم لأن السحر مذمومٌ ، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح ؛ لأنَّ اللّه عز وجل مدح البيانَ وأضافه إلى القرآن . قال : وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة أعجبه قوله ، فقال : هذا واللّه السحرُ الحلال . قال على بن العباس الرومى :

وحَديثُها السِّحرُ الحَلال لو أنها ... لم تَجْنِ قَتْلَ المُسْلِم المُتَحَرِّزِ

وقال الحسن : الرجال ثلاثة : رَجُلٌ بنفسه ، ورجل بلسانه ، ورجل بماله . ونظر معاوية إلى ابن عباس ، فأتبعه بصره ثم قال متمثلاً :

إذا قالَ لم يترك مقالاً لقائلٍ ... مصيب ولم يَثْنِ اللِّسَانَ على هُجْرِ
يصَرِّفُ بالقولِ اللسانَ إذا انتحى ... وينظرُ فى أعطافِهِ نَظَرَ الصَّقْرِ

ولحسَّانَ فى ابنِ عباس رضى اللّه عنهما :

إذا قالَ لم يترك مقالاً لقائلٍ ... بمُلْتَقَطَاتٍ لا ترى بينَها فصلا
شفَى وكفى ما فى النفوسِ فلم يَدَعْ ... لذى إرْبةٍ فى القولِ جِداً ولا هَزْلا

قال أبو داود: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا سعيد بن محمد،حدثنا أبو تُمَيْلَةَ، حدثنى أبو جعفر النحوى عبد الله بن ثابت ، حدثنى صخر بن عبد اللّه بن بريدة ، عن أبيه ، عن جده قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن من البيان سحراً ، وإن من العلم جهلاً ، وإن من الشعر حُكْماً ، وإن من القول عيالاً » [3] .

فقال صعصعة بن صوحان : صَدَقَ نبىُّ اللّه ﷺ .

= المتشدق فى الكلام (٥٠٠٧) ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى إن من البيان سحرا (٢٠٢٨)، وقال : « حديث حسن صحيح » .

(١) فى المخطوطة : « الطول » ، والمثبت من أ ، ر ، ط .

(٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٢/٣٤٦ .

(٣) أبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى الشعر (٥٠١٢) .

أما قوله : « إن من البيان سحراً » فالرجلُ يكون عليه الحق وهو ألحنُ بالحجج من صاحب الحقِّ ، فيسحرُ القومَ ببيانه فيذهبُ بالحقِّ .

وأما قوله : « إنَّ من العلم جهلا » فتكلف العالم إلى علمه ما لا يعلم فيجهله ذلك .

وأما قوله : « من الشعر حكماً » فهى هذه المواعظ والأمثال التى يتعظ بها الناس .

وأما قوله : « من القول عيالاً » فعرضك كلامك وحديثك على مَنْ ليس من شأنه ولا يريده .

وقد نهى عن ذلك رسولُ اللّه ﷺ بقوله : « لا تحدثوا الناسَ بما لا يعلمون » (١)، وقوله: « لا تُعْطُوا الحِكْمَةَ غيرَ أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » (٢) قال : وقد ضرب لذلك مثل أنه كتعليقِ اللآلئ فى أعناق الخنازير . ويأتى بنحو كراسة : « مَنْ حَدَّثَ قوما بما لا تحتمله عقولهم » أبو جعفر تفرد عنه أبو تُمَيْلَة ، وأما صعصعة فثقة، شهد صفين مع على أميراً.

وقال فى « النهاية » فى « إنَّ من العلم جهلاً » قيل : هو أنْ يتعلمَ ما لا يحتاجُ إليه كالنجوم وعلوم الأوائل ، ويَدَعُ ما يحتاجه فى دينه من علم القرآن والسنة (٣) .

قال : والحكم : العلم والفقه والقضاء بالعدل ، وهو مصدر حكم يحكم (٤) .

وروى أحمد والبخارى وغيرهما من حديث أبىِّ بن كعب : « إنَّ من الشعر حكمةً »(٥). قال فى « النهاية » : وهى بمعنى الحكم ، ومنه الحديث : « الصمتُ حكم ، وقليلٌ فاعله»(٦). وقال : « إنَّ من القول عيالاً » . يقال : علت الضالة أعيل عيلاً : إذا لم تدر أى جهة تبغيها ، كأنه لم يَهْتَدِ لمن يطلبُ كلامه فعرضه على مَنْ لا يريده (٧) .

وللشافعى عن عروة مرسلاً : « الشعر كلامٌ ، فَحَسَنُهُ حَسَنٌ ، وقبيحه قبيح » (٨) وصله

---

(١) البخارى فى العلم معلقا (الفتح ١/ ٢٢٥) .

(٢) رواه بنحوه الدارمى ١/ ١١٧ ، موقوفاً .

(٣) النهاية فى غريب الحديث ١/ ٣٢٢ .

(٤) انظر : النهاية فى غريب الحديث ١/ ٤١٩ .

(٥) أحمد ٥/ ١٢٥ ، والبخارى فى الأدب ، ب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه (٦١٤٥) ، وأبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى الشعر (٥٠١٠) ، والترمذى فى الأدب ، ب ما جاء إن من الشعر حكمة (٢٨٤٤). ،وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » .

(٦) انظر : النهاية فى غريب الحديث ١/ ٤١٩ .

(٧) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٣/ ٣٣١ .

(٨) الشافعى فى مسنده ٢/ ١٨٨ .

الدارقطنى بذكر عائشة رضى اللّه عنها [١]، ورواه أيضاً من حديث عبد اللّه بن عمرو ، ومن حديث أبى هريرة [٢] .

ولأحمد والبخارى ومسلم وغيرهم من حديث أبى هريرة : « لأَنْ يمتلئ جوفُ أحَدِكُم قيحاً يَرِيه خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً » [٣].

ولأحمد ومسلم من حديث أبى سعيد : بينما نحن نسير مع رسول اللّه ﷺ إذ عرض شاعر ينشد فقال : « خُذوا الشيطان ــ أو أمسكوا الشيطان ــ لأَنْ يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً » [٤] .

ولأحمد من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه : « امرؤ القيس صاحبُ لواءِ الشعراءِ إلى النار » [٥].

وعن الشريد قال : كنتُ رَدِيفَ رسولِ اللّه ﷺ يوما فقال : « هل معك من شعر أميةَ بن أبى الصلت ؟ قلت : نعم ، فأنشدته بيتاً ، فقال : « هيه » ، فأنشدته بيتاً ،فقال : « هيه » ، فأنشدته بيتاً ، قال : « هيه »، حتى أنشدته مائة بيت ، فقال : « لقد كاد أن يُسْلِمَ فى شعره » رواه أحمد ومسلم وغيرهما [٦] .

ولما دخل مكة فى عمرة القضاء وعبد اللّه بن رواحة بين يديه يقول :

خَلُّوا بنى الكفار عن سبيلِهِ ... اليَوْمَ نَضْرِبْكُمْ على تنزيلِهِ
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مَقِيلِهِ ... ويُذْهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

فقال عمر رضى اللّه عنه يا بن رواحة ، بين يدى رسول اللّه ﷺ ، وفى حرم اللّه عز وجل تقول الشعر ؟! قال : « خَلِّ عنه يا عمر ، فلهىَ أسرعُ فيهم من نَضْح النَّبْل » [٧] رواه

---

(١) الدارقطنى فى الوكالة ، ب خبر الواحد يوجب العمل ٤/ ١٥٥ .

(٢) الدارقطنى فى الوكالة ، ب خبر الواحد يوجب العمل ٤/ ١٥٦ .

(٣) أحمد ٢/ ٢٨٨ ، والبخارى فى الأدب ، ب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن (٦١٥٥) ، ومسلم فى الشعر ، ب فى الشعر (٧/٢٢٥٧) ، وأبو داود فى الأدب، ب ما جاء فى الشعر (٥٠٠٩) ، والترمذى فى الأدب ، ب ما جاء لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلئ شعرا (٢٨٥١) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٤) أحمد ٣/ ٨ ، ومسلم فى الشعر ، ب فى الشعر (٩/٢٢٥٩) .

(٥) أحمد ٢/ ٢٢٨ .

(٦) أحمد ٤/ ٣٩٠ ، ومسلم فى الشعر ، ب فى الشعر (١/٢٢٥٥)، وابن ماجه فى الأدب ، ب الشعر (٣٧٥٨) .

(٧) الترمذى فى الأدب ، ب ما جاء فى إنشاد الشعر (٢٨٤٧) ،وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»،والنسائى فى مناسك الحج ،ب إنشاد الشعر فى الحرم والمشى بين يدى الإمام (٢٨٧٣).

النسائى والترمذى وصححه من حديث أنس .

قال : وقد روى فى غير هذا الحديث أنه دخل مكة فى عمرة القضاء وبين يديه كعب بن مالك ، وهذا أصحُّ عند بعضِ أهلِ الحديث ، لأنَّ عمرةَ القضاء كانت بعد مؤتة (١) . وقال له الأسودُ بن سريع : إنى قد حمِدتُ ربِّى بمحامد مدحٍ وإيَّاكَ ، فقال: « أما إنَّ ربكَ يحب المدح، فهاتِ ما امتدحتَ به ربكَ عز وجل » فأنشدته فاستأذن رجل ، فاستنصتنى له فتكلم ساعةً ثم خرج ، فأنشدته ثم رجع فاستنصتنى ، فقلتُ : من هذا ؟ فقال : « هذا رجلٌ لا يحب الباطل، هذا عمر بن الخطاب » (٢) رواه أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، ثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد ، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عنه . على بن زيد مختلف فيه وأكثرهم لَيَّنَه ، وروى له مسلم ، واقتصر ابن الجوزى على ذكر من ضعفه عقب هذا الخبر .

ورواه النسائى عن على بن حجر ، عن إسماعيل بن علية ، عن يونس ، عن الحسن عنه، قال ابن معين وابن المدينى : لم يسمع الحسن من الأسود (٣) .

وعن البراء أن النبى ﷺ قال لحسان يوم قريظة : « اهجُ المشركين فإنَّ جبريل معك » رواه أحمد والبخارى ومسلم (٤). وفى « الصحيحين » من حديث عائشة : هجاهم حسانُ فَشَفَى وأشفى (٥) .

وروى أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عبد اللّه بن كعب ابن مالك ، عن أبيه أنه قال للنبى ﷺ : إن اللّه عز وجل قد أنزل فى الشعر ما أنزل فقال : «إنَّ المؤمنَ يجاهدُ بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأنَّ ما ترمونهم [به] (٦) نضحُ النَّبْلِ»(٧) حديث صحيح .

حدثنا يحيى بن آدم : حدثنا شريك ، عن محمد بن عبد اللّه المرادى ، عن عمرو بن مرة، عن عبد اللّه بن سلمة قال : قال عمار : لما هجانا المشركون شكونا ذلك إلى رسولِ اللّه

---

(١) الترمذى فى الأدب ، ب ما جاء فى إنشاد الشعر (٢٨٤٧) .

(٢) أحمد ٣/ ٤٣٥ .

(٣) النسائى فى الكبرى فى النعوت ، ب الحب والكراهية (٧٧٤٥) .

(٤) أحمد ٤/ ٢٨٦ ، والبخارى فى الأدب ، ب هجاء المشركين (٦١٥٣) ،ومسلم فى فضائل الصحابة ، ب فضائل حسان بن ثابت (١٥٣/٢٤٨٦) .

(٥) مسلم فى فضائل الصحابة ، ب فضائل حسان بن ثابت (١٥٧/٢٤٩٠) ،ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف للبخارى (١٧٧٤٤) .

(٦) ساقطة من المخطوطة ، والمثبت من مسند أحمد .

(٧) أحمد ٣/ ٤٥٦ ، ٦/ ٣٨٧ .

ﷺ فقال : « قولوا لهم كما يقولون لكم » قال : فلقد رأيتنا نُعَلِّمُهُ إماءَ أهلِ المدينة (١) . محمد لم أجد له ترجمة ، وباقيه حسن . وسبق ما يتعلق بالوعظ أيضاً فى أوائل الأمر بالمعروف فى الإنكار على الولاة .

وعن أبى هريرة مرفوعاً : « إنَّ الدين يُسْرٌ ، ولن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه فَسَدِّدُوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغُدْوَة والرَّوحَة وشيء من الدُّلْجَة » (٢). وفى لفظ : « سدِّدوا وقاربوا واغْدوا وروحوا ، وشيئاً من الدلجة ، والقَصْدَ القصدَ تَبْلُغُوا » (٣) رواهما البخارى .

« الدين » مرفوع على ما لم يسم فاعله ، وروى منصوباً « ولن يشاد الدين أحد » وقوله: « إلا غلبه » أى غلبه الدين لكثر طرقه . والغدوة : أول النهار ، والروحة : آخره ، والدلجة : آخر الليل ، والمراد العمل وقت النشاط والفراغ كما أن المسافر يسير فى هذه الأوقات لليسر .

وعن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه أن النبى ﷺ قال : « هَلَكَ المُتَنَطِّعونَ » قالها ثلاثاً، رواه أحمد ومسلم (٤). المتنطعون : المبالغون فى الأمور .

وروى أبو داود (فى باب الحسد) : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا عبد اللّه بن وهب ، أخبرنى سعيد بن عبد الرحمن بن أبى العمياء ، أنَّ سهل بن أبى أمامة حَدَّثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك فى المدينة ، فقال : إن رسول اللّه ﷺ كان يقول : « لا تُشَدِّدُوا على أنفسكم فيشدِّدَ اللّهُ عليكم ، فإنَّ قوماً شددوا على أنفسهم فَشَدَّدَ اللّه عليهم ، فتلك بقاياهم فى الصوامع والدِّيار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » (٥) إسناد جيد .

وفى « الصحيحين » عن عائشة : ما خُيِّرَ رسولُ اللّه ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، وما انتقم رسولُ اللّه ﷺ لنفسه قط إلا أنْ تُنْتَهكَ حُرْمَةُ اللّه فينتقم للّه (٦) . زاد مسلم : وما ضرب شيئاً بيده ولا امرأةً ولا خادماً إلا أن [يكون] (٧) يجاهد فى سبيل اللّه(٨).

---

(١) أحمد ٤/ ٢٦٣ .
(٢) البخارى فى الإيمان ، ب الدين يسر (٣٩) .
(٣) البخارى فى الرقاق ، ب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣) .
(٤) أحمد ١/ ٣٨٦ ، ومسلم فى العلم ، ب هلك المتنطعون (٧/٢٦٧٠) .
(٥) أبو داود فى الأدب ، ب فى الحسد (٤٩٠٤) .
(٦) البخارى فى الأدب ، ب قول النبى ﷺ :« يسروا ولا تعسروا » (٦١٢٦) ، ومسلم فى الفضائل ، ب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله (٧٧/٢٣٢٧) .
(٧) ساقطة من المخطوطة ، والمثبت من مسلم .
(٨) مسلم فى الفضائل ، ب مباعدته ﷺ للأثام واختياره من المباح أسهله (٧٩/٢٣٢٨) .

وفى « الصحيحين » من حديث أنس : « يَسِّرُوا ولا تُعَسِّروا وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا » (١) .

روى أحمد : حدثنا أبو سلمة الخزاعى ، أنبأنا أبو هلال ، عن حُميد بن هلال العدوى ، عن أبى قتادة ، عن الأعرابى الذى سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إنَّ خيرَ دينكم أيسره » (٢).

وروى أيضاً : حدثنا يزيد ، أنبانا محمد بن إسحاق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال : قيل يا رسول اللّه ، أىُّ الأديانِ أحبُّ إلى اللّه ؟ قال : « الحنيفية السمحة » (٣) وذكره فى « المختارة » من طريقه . ابن إسحاق مدلس .

وعن أبى هريرة مرفوعاً : « مَثَلُ الذى يجلس ليسمع الحكمة ثم لا يُحَدِّثُ عن صاحبه إلا بِشَرِّ ما يسمعُ كَمَثَلِ رجلٍ أتى راعياً فقال : يا راعى ، اخترْ لى شاةً من غنمك ، قال : اذهب فَخذ بِأُذُنِ خيرها ، فذهب فأخذ بِأُذُنِ كلبِ الغنم » رواه ابن ماجه (٤) .

وعن سهل بن سعد مرفوعاً : « اللهم لا يُدركنى زمانٌ ، ولا تدركوا زماناً لا يُتَّبَعُ فيه العليمُ ، ولا يُستحيى فيه من الحليم ، قلوبهم قلوب الأعاجم ، وألسنتهم ألسنة العرب » (٥).

وعن أبى هريرة مرفوعاً : « إذا تمنى أحدكم فلينظرْ ما يتمنى ، فإنه لا يدرى ما كتب له من أمنيته » (٦) رواهما الإمام أحمد .

فصل فى قراءة التوارة والإنجيل والزبور ونحو ذلك كما يفعله بعض القُصَّاص (٧)

سُئِلَ الإمامُ أحمد رضىَ اللّه عنه عن هذه المسألة فى رواية إسحاق بن إبراهيم فغضب فقال: هذه مسألة مسلم؟! وغضبَ . وظاهره الإنكارُ ، وذكره القاضى ثم احتج بأنه عليه الصلاة والسلام لما رأى فى يَدِ عمرَ قطعةً من التوارة غضب وقال: « ألم آتِ بها بيضاءَ نقية ؟ »(٨)

---

(١) البخارى فى الأدب ، ب قول النبى ﷺ : « يسروا ولا تعسروا » (٦١٢٥) ، ومسلم فى الجهاد والسير ، ب الأمر بالتيسير وترك التنفير (٨/١٧٣٤) .

(٢) أحمد ٥/ ٣٢ .

(٣) أحمد ١/ ٢٣٦ .

(٤) ابن ماجه فى الزهد ، ب الحكمة (٤١٧٢) ،وقال فى الزوائد : « هذا إسناد ضعيف من الطرفين ؛ لأن مدار الإسناد على علىّ بن زيد بن جدعان وهو ضعيف » .

(٥) أحمد ٥/ ٣٤٠ .

(٦) أحمد ٢/ ٣٥٧ .

(٧) هذا العنوان من المخطوطة ، وهو على غير عادة المصنِّف .

(٨) أحمد ٣/ ٣٨٧ عن جابر ، والبخارى فى التوحيد ، ب قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٢٥٧٣) عن عبد الله بن عباس .

الحديث ، وهو مشهور رواه أحمد وغيره ، وهو من رواية مجالد وجابرٍ الجُعْفِيِّ وهما ضعيفان، ولأنها كتبٌ مبدَّلة مُغَيَّرة فلم تَجُزْ قراءتها والعمل عليها ، قال : وهذه مسألة جرت بين شيوخنا العُكْبَرِيِّين ، فكان ابنُ هرمز والد القاضى أبى الحسين يقصُّ بهذه الكتب ــ وكانت مُعَرَّبةً ــ فأنكر عليه أبو عبد اللّه بن بطة ذلك ، وصَنَّفَ فيه جزءاً ذكر فيه ما حكينا من رواية إسحاق ، وذكر فيه أيضاً عن أحمد رواية أبى يحيى الناقد قال : سمعت أحمد يقول : الاشتغال بهذه الأخبار القديمة يقطعُ عن العلم ، وذكر حديثَ عمر .

وذكر أيضاً بإسناده أنَّ رجلاً من أصحاب النبى ﷺ دخلَ مسجدَ دمشق فإذا كعبٌ يَقصُّ ، فقال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « مَنْ قَصَّ بغير كتاب اللّه وسنة نبيه فاضربوا رأسه »[1] فما رؤى كعبٌ فى ذلك المجلس بعد .

وبإسناده أنَّ رجلاً أهدى إلى عائشةَ رضىَ اللّه عنها هديةً ، فقالت : لا حاجةَ لى فى هديته، بلغنى أنه يتتبع الكتبَ الأُوَل واللّه تعالى يقول : ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

ذكره القاضى فى الجزء الثانى من الجامع عند الكلام على القراءة والمصحف ــ وسبق أول الكتاب فى بيان الكذب ــ قوله عليه السلام : « حَدِّثُوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » [2] ، وكلام أحمد رضى اللّه عنه .

فصل فى التَّخَوُّلِ بالموعظة خشية الملل

فى « الصحيحين » عن ابن مسعود رضىَ اللّه عنه أنه كان يُذَكِّرُ كل يوم خميس فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن إنا نحب حديثكَ ونشتهيه ، ولوددنا أنك حَدَّثْتَنَا كل يوم ، فقال : ما يمنعنى أن أُحدثكم إلا كراهية أنْ أُمِلَّكُمْ ؛ إنَّ رسول اللّه ﷺ كان يَتَخَوَّلُنا بالموعظةِ مخافةَ السآمةِ علينا [3] .

وذكر البيهقى وغيره عن ابن مسعود قال : حَدث الناسَ ما أقبلتْ عليك قلوبهم ، إذا حدقوك بأبصارهم ، وإذا انصرفتْ عنك قلوبهم فلا تحدثهم ، وذلك إذا اتكأ بعضهم على بعض.

وقال عكرمة عن ابن عباس : حدث الناس كل جمعة مرة ، فإن أكثرت فمرتين ، فإن

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ ، وروي الإمام أحمد فى مسنده ٤/ ٢٣٣ قريباً من لفظه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) البخارى فى العلم ، ب ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالمواعظة والعلم كى لا ينفروا (٦٨) ، ومسلم فى صفات المنافقين ، ب الاقتصاد فى الموعظة (٢٨٢١/ ٨٣) .

أكثرت فثلاثاً ، ولا تُملَّ الناس من هذا القرآن ، ولا تأت القوم وهم فى حديث فتقطعَ عليهم حديثهم . فَتُملِّهم ، ولكن أنصت ، فإذا أمروك فَحَدِّثْهُمْ وهم يشتهونه ، وإياكَ والسَّجْعَ فى الدعاء ، فإنى عهدتُ رسولَ اللّه ﷺ وأصحابه لا يفعلونه . رواه البخارى (١).

وعن عمر رضى اللّه عنه : أنه كان يقول وهو على المنبر : أيها الناس لا تُبَغِّضُوا اللّه إلى عباده ! فقيل : كيفَ ذاكَ أصلحكَ اللّه ؟ قال : يجلسُ أحدكم قَاصّاً ، فيطوِّلُ على الناس حتى يُبَغِّضَ إليهم ما هم فيه ، ويقوم أحدكم إماماً فيطولُ على الناس حتى يُبَغِّضَ إليهم ما هم فيه.

وقالت عائشة رضى اللّه عنها لعبيد بن عمير : إياك وإملال الناس وتقنيطهم .

وكان الزهرى إذا سئل عن الحديث يقول : أحمضوا ، اخلُطُوا الحديثَ بغيره حتى تنفتح النفس.

وقال الزهرى : نقل الصخر أيسر من تكرير الحديث .

قال ابن عبد البر : كان يقال : ستةٌ إذا أُهينُوا فلا يلوموا إلا أنفسهم : الذاهبُ إلى مائدة لم يُدْعَ إليها ، وطالبُ الفضل من اللئام ، والداخلُ بين اثنين فى حديثهما من غير أنْ يُدخلاَه فيه ، والمُسْتَخِفُّ بالسلطان ، والجالس مجلساً ليس له بأهل ، والمقبل بحديثه على مَنْ لا يسمع منه ولا يصغى إليه . قال ابن عبد البر فى « بهجة المجالس » : كان على بن أبى طالب رضى اللّه عنه يقول : إن هذه القلوب تَمَلُّ كما تمل الأبدان ؛ فابتغوا لها طرائفَ الحكمة .

وقال ابن مسعود رضى اللّه عنه : أريحوا القلوب ، فإنَّ القلب إذا كره عَمِىَ .

وقال أيضاً : إن للقلوب شهوة وإقبالاً ، وفترة وإدباراً ، فخذوها عند شهوتها وإقبالها ، وذروها عند فترتها وإدبارها .

وفى صحف إبراهيم عليه السلام : وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عَوْنٌ له على سائر الساعات .

وقال عمر بن عبد العزيز : تحدثوا بكتاب الله وتجالسوا ، وإذا مَلَلْتم فحديث من أحاديث الرجال حسن جميل .

وقال أيضاً لابنه عبد الملك : يا بنىَّ ، إنَّ نفسى مَطيتى ، وإنْ حملتُ عليها فوق الجَهْدِ قَطَعْتُهَا .

وقال بعض الحكماء : حادثوا هذه القلوب بالذكر ، فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد . وقد

(١) البخارى فى الدعوات ، ب ما يكره من السجع فى الدعاء (٦٣٣٧) .

روى عن النبى ﷺ : « إنَّ هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد » قالوا : فما جلاؤها يا رسولَ اللّه ؟ قال : « تلاوة القرآن » (١) . وكان يقال : التفكر نور والغفلة ظلمة .

وفى البخارى من حديث أبى جحيفة قول سلمان لأبى الدرداء : « إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعْط كُلَّ ذى حَقٍّ حقه . وقول النبى ﷺ : «صَدَقَ سلمان » (٢) .

وروى الحاكم فى « تاريخه » بإسناد عن سُنَيْد قال : لا تنسى شيئاً فتقول : ﴿ **سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)** ﴾ [البقرة] . إلا ذَكَرته . وكان مالك بن أنس إذا جلس مجلسه لا ينطق بشىء حتى يقولها .

وروى أيضاً عن الأعمش : جوابُ الأحمق السكوتُ عنه . وقال الأعمش : السكوت جواب ، والتغافل يُطْفِئُ شراً كثيراً ، ورضى المتجنى غايةٌ لا تُدرك ، واستعطاف المحب عون للظفر ، ومَنْ غَضبَ على مَنْ لا يقدرُ عليه طال حزنه .

فصل فى حكم اجتماع الناس للذكر والدعاء ورفع الصوت به ، ومتى يكون بدعة

قال مهنا : سألت أبا عبد اللّه عن الرجل يجلس إلى القوم ، فيدعو هذا ويدعو هذا ويقولون له : أدْعُ أنتَ . فقال : لا أدرى ما هذا ؟

وقال ابن منصور لأبى عبد اللّه : يكره أنْ يجتمعَ القومُ يدعون ويرفعون أيديهم ؟ فقال : ما أكرهه للإخوانِ إذا لم يجتمعوا على عمد إلا أن يَكْثُرُوا .

قال ابن منصور : قال إسحاق بن راهويه كما قال ، وإنما معنى : إلا أن يكثروا : إلا أن يَتَّخِذُوها عادةً حتى يكثروا .

وقال أبو العباس الفضل بن مهران : سألت يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ، قلت : إن عندنا قوماً يجتمعون فيدعون ويقرؤون القرآن ويذكرون اللّه تعالى فما ترى فيهم ؟ قال : فأما يحيى بن معين ، فقال : يقرأ فى المصحف ، ويدعو بعد صلاة ، ويذكر اللّه فى نفسه . قلت: فأخٌ لى يفعل هذا ؟ قال : انهه ، قلتُ : لا يقبل ؟ قال : عِظْهُ ، قلت : لا يقبل ، أهجره ؟ قال : نعم . ثم أتيت أحمد ، وحكيتُ له نحو هذا الكلام ، فقال لى أحمد أيضاً : يقرأ فى المصحف ، ويذكر اللّه تعالى فى نفسه ، ويطلب حديثَ رسول اللّه ﷺ قلتُ : فأنهاه؟ قال :

---

(١) كنز العمال (٢٤٤١) ، وقال : « رواه البيهقى فى الشعب ، وأبو نعيم فى الحلية » ، والخطيب فى تاريخ بغداد ١١/ ٨٥ ، والذهبى فى ميزان الاعتدال (٣٩ ٠ ٥) كلهم عن ابن عمر .

(٢) البخارى فى الأدب ،ب صنع الطعام والتكلف للضيف (٦١٣٩) ،والترمذى فى الزهد ، ب ٦٣(٢٤١٣) ، وقال : «حسن صحيح » .

نعم ، قلت : فإن لم يقبل ، قال : بلى إن شاء اللّه تعالى ، فإن هذا مُحْدَثٌ : الاجتماع والذى تصف ، قلت : فإن لم يفعل أهجره ؟ فتبسم وسكت .

وعن معمر أن عمر بن عبد العزيز كان حسن الصوت بالقرآن ، قال : فخرج يوماً وقرأ وَجَهَر بصوته فاجتمع الناسُ له ، فقال له سعيد بن المسيب : فتنتَ الناسَ ، قال : فدخل .

وسأله المروذى عن القوم يجتمعون فيقرأ قارئٌ ، ويدعون حتى يصبحوا ؟ قال : أرجو ألا يكون به بأس .

وقال المروذى : قال لى أبو عبد اللّه : كنتُ أصلى فرأيتُ إلى جنبى رجلاً عليه كساء ومعه نفسان يدعون ، فدنوتُ فدعوتُ معهم ، فلما قمت رأيت جماعةً يدعون ، فأردتُ أنْ أعدلَ إليهم ولولا مخافة الشهرة لقعدتُ معهم .

وروى الخلال عنه أنه قال : وأىُّ شىءٍ أحسن من أنْ يجتمعَ الناسُ فيصلوا ويذكروا ما أنعم اللّه عليهم كما قالت الأنصار ؟!

وقال فى رواية عبد اللّه : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن محمد بن سيرين قال : نُبِّئْتُ أنَّ الأنصارَ قبل قدوم رسول اللّه ﷺ المدينة قالوا : لو نظرنا يوماً فاجتمعنا فيه ، فذكرنا هذا الأمرَ الذى أنعم اللّه به علينا ، وذكر الحديث ، وفيه أنهم اجتمعوا يوم الجمعة فى بيت أسعد بن زرارة وذبحت لهم شاة وكفتهم .

قال الشيخ تقى الدين : فَقَيَّدَ أحمد الاجتماعَ على الدعاء إذا لم يُتَّخَذْ عادةً .

وعن ابن مسعود أنه لما اتخذ أصحابه مكاناً يجتمعون فيه للذكر فخرج إليهم ، فقال : يا قوم ، لأنتم أهدى من أصحابِ محمدٍ ، أو لأنتم على شعبةِ ضلالة .

ومذهبُ الشافعى والجمهور : أنه يستحب الاجتماعُ لتلاوة القرآن للخبر المشهور . وقال مالك : يكره ، وتأوَّلَهُ بعض أصحابه . وكان يحيى بن سعيد القطان إذا قُرئ عليه القرآن يسقط إلى الأرض حتى يكاد يذهب عقله . وكان عبدُ الرحمن بن مهدى يبكى وينكر سقوط يحيى .

قال أحمد فى رواية المروذى : لو قَدَرَ أن يدفع هذا أحد لدفعه يحيى . ويأتى فى آداب القراءة قبل فصول الطب ، وقال عبد اللّه : ما رأيت أبى يبكى قط إلا فى حديث توبة كعب .

فصل فى صفة المحدث الذى يؤخذ عنه

قال المروذى : قال أبو عبد اللّه : لا ينبغى للرجل إذا لم يعرف الحديث أن يُحدث به ، ثم قال : صار يحدث به مَنْ لا يعرفه واسترجَعَ .

وقال مالك : لا يؤخذ العلم من شيخٍ له فَضْلٌ وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يُحَدِّثُ .

وقال الأثرم : قال لى أبو عبد اللّه : الحديثُ شديد ، سبحان اللّه ما أشده أو كما قال . ثم قال : يحتاج إلى ضَبْطٍ وذهن ، وكلام يشبه هذا ، ثم قال : ولاسيما إذا أراد أن يخرج منه إلى غيره . قال : إذا حدث ، ثم قال : هو ما لم يحدث مستور ، فإذا حدث خرج منه إلى غيره بدا ما كان فيه ، وكلام نحو هذا .

وعن جعفر بن برقان قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز وقال فى كتابه : ومُرْ أهلَ الفقه من جُنْدِكَ فلينشروا ما علمهم اللّه فى مساجدهم ومجالسهم والسلام .

وقال أحمد لابنه عبد اللّه : أفد أصحاب الحديث وأكرمهم ، فإن إبراهيم بن بكر بن عياش لم يكن يفيدُ أصحابَ الحديث ويَجْفُوهم فلم يفلح .

ومشهور عن أنس أنه كان إذا سئل عن مسألة يقول : سَلُوا مولانا الحسن فإنه حَضَرَ وغبنا وحفظَ ونسينا .

وقال الصاحب أبو القاسم بن عباد : ما عَبَّرَ الإنسانُ عن فضلِ نفسه بمثل ميله إلى الفضل وأهله . وكان أبو الحسن عمر بن محمد النوقاتى ــ بنون مفتوحة وقاف بعدها ألف ثم بتاء باثنتين من فوق ، نسبة إلى نوقات موضع بسجستان ويشتبه بالنوقانى بنون بعد الألف بلدة من مدن طوس ــ كان حاضراً فنظم المعنى وقال :

ومَا عبَّر الإنسان عن فضل نفسه ... بمثلِ اعتقادِ الفضلِ فى كُلِّ فاضلِ
وإنَّ أخَسَّ النقص أن يتقى الفتى ... قذى النقصِ عنه بانتقاص الأفاضل

وهذا لما سعى بعض الناس إلى أبى القاسم بن عباد وقال عن الحافظ أبى عبد اللّه بن منده: إنه جمع كتاباً فى التشبيه ، فاستدعاهُ وبحثَ عنه فأنصف ، وكان ابن عباد معتزلياً ، وقال : كيف يُنْقَمُ على رجلٍ ما أودعَ كتابه إلا آيةً مُحْكَمَةً أو أخباراً صحيحة ؟ ودخل ابن منده على ابن عباد فقام له وأكرمه ، فلما خرج ، قيل له : قمتَ لرجلٍ من معاندينا لا يحسن شيئاً إنما يعرفُ جماعةً من محمد وأحمد ؟ قال ابن عباد : أليس يعرفُ جماعةً من محمد وأحمد لا أعرفهم ؟ فله على بذلك مزية .

وقد قال الصاحب بن عباد : مَنْ لم يكتب الحديث لم يعرف حلاوة الإسلام . ولما أراد أنْ يملى ويروى الحديث ، امتنع من حضور الديوان وأظهر التنسك والتورع ، فلما شاع ذلك عنه أحضرَ الفُقهاءَ واستفتاهم بالكتابة عن مثله فأفتوا بجوازها فأفتى مجالس . ذكر ذلك الحافظ عبد القادر الرُّهاوى [1] فى كتابه « تاريخ المادح والممدوح » .

---

(١) هو الإمام الحافظ المحدث الرحال الجوال محدث الجزيرة أبو محمد عبد القادر بن عبد الله بن عبد الله الرهاوى الحنبلى السّفّار ، ولد سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، سمع من مسعود بن الحسن الثقفى ، والحسن بن العباس الرستمى ، ورجاء بن حامد المعدانى وغيرهم ، حدث عنه ابن نقطة ، وزكى الدين =

ولما حَجَّ يحيى بن عمار السجزى ونزل بظاهر الرى ، فأرسل إليه الصاحبُ بن عباد ضيافةً، فأبى أن يقبلها فقال : وَددْتُ أنى ضُرِبْتُ بكل سوطٍ ضُرِبَ به أحمد بن حنبل عشرة أسواط ، واسترحتُ من عداوة هؤلاء القوم .

وروى الحاكم فى « تاريخه » ، عن ابن المبارك قال : مَنْ بخل بالعلم ابْتُلىَ بثلاث : إما أنْ يموتَ فيذهب علْمُه ، وإما أنْ ينْسى حديثه ، وإما أن يبتلى بالسلطان . وقال ابن المبارك : الحِبْر خَلوق العلماء .

فصل فى إنصاف طلاب العلم ومَنْ كان يحابى فى التحديث

قال مهنا : سمعت أبا عبد اللّه يقول : كان إسماعيل بن عُلَيَّة يضع فى الحديث ما لا يحلُّ له فى الشفاعات ونحن على الباب نتضور . وقال فى رواية الفضل بن زياد : كان لا ينصفهم فى الحديث ــ يعنى إسماعيل ، قلت : كيف كان لا ينصف ؟ قال : كان يحدث بالشفاعات ، قلت : فإن كان رجل له إخوان يخصهم بالحديث ، لا ترى ذلك ؟ قال : ما أحسن الإنصاف ! ما أرى يسلم أهل الحديث من هذا ، قلت : وإن كان رجل يقرئ رجلاً مائتى آية ويقرئ آخر مائة آية ما تقول فيه ؟ فقال : ينبغى أن ينصف بين الناس . وقلت له : إنه يأخذ على هذا مائتى آية ؛ لأنه يرجو أن يكون عاملاً به ، ويأخذ على هذا أقل ، لأنه لا يبلغ هذا فى العمل ما ترى فيه ؟ قال : ما أحسن الإنصاف فى كل شىء ! وقال فى رواية المروذى : عيسى كان منتصباً للناس ، وحفص كان يحدث بالشفاعة .

وروى الخلال ، أخبرنى العباس بن محمد الدورى [1] ، ثنا أبو سليمان الأشقر قال : كنا عند حماد بن زيد بالبصرة ، فجعل يقبل على أهل البصرة ويحدثهم ، فقلنا : تقبل على هؤلاء وتَدَعُنا ؟ قال : أهل بلدى أحَقُّ بالحديث منكم . وسمعت العباس بن محمد الدورى يقول : ربما كنا عند أحمد بن حنبل أيام الحج فيجيئه أقوام من الحجاج ، فيقبل عليهم ويحدثهم ، فربما قلنا له فى ذلك ، فيقول : هؤلاء قوم غرباء وإلى أيام يخرجون .

وعن سفيان الثورى أنه جاء إلى يونس فأخذ يسأله ويملى عليه ومعه ألواح ، فلما قام قالوا : نسألك فلا تحدثنا وتحدث سفيان ؟ قال : سفيان غريب . وعن أبى الدرداء رضى اللّه عنه قال : لن تزالوا بخير ما دام العالم يعدلُ بينكم بعلمه لا يحيف . وعن أبى العالية فى قوله

= البرزالى ، وضياء الدين المقدسى وغيرهم ، أثنى عليه ابن النجار ، وعظمه ، وترجمه ، توفى فى ثانى شهر جمادى الأولى سنة اثنتى عشرة وستمائة . [سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٧١ ــ ٧٥] .

(١) هو الإمام الحافظ الثقة الناقد أبو الفضل عباس بن محمد بن حاتم بن واقد الدورى ، البغدادى ، مولى بنى هاشم ، أحد الأثبات المصنفين ، ولد سنة خمس وثمانين ومائة ، سمع حسين بن على الجعفى ، ومحمد ابن بشر ، وجعفر بن عون وغيرهم ، حدث عنه أرباب السنن الأربعة ، ووثقه النسائى ، توفى فى صفر سنة إحدى وسبعين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٢/ ٥٢٢ ــ ٥٢٤] .

تعالى : ﴿**وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**﴾ [لقمان : ١٨] . قال : يكون الغنى والفقير عندك فى العلم سواء .

وقال ابن عون : كلموا محمداً فى رجل يحدثه فقال : لو كان رجل من الزنج لكان عندى وعبد اللّه بن محمد فى هذا سواء .

وقال جعفر بن محمد : من أنصف الناس من نفسه ، قضى به حكماً لغيره ، قال الشاعر :

إذا أنتَ لم تُنْصِفَ أخاكَ وجدته على طرفِ الهجران إنْ كان يعقل

وقالوا: ثلاثة من حقائق الإيمان : الاقتصاد فى الإنفاق والابتداء بالسلام ، والإنصاف من نفسك .

وقال مالك بن دينار : وليس فى الناس شىءٌ أقل من الإنصاف .

وقال جعفر بن سعد : ما أقل الإنصاف ، وما أكثر الخلاف ! والخلاف موكلٌ بكلِّ شىءٍ حتى القَذاة فى رأس الكوز ؛ فإذا أردتَ أنْ تشربَ الماء حارت إلى فيك ، وإذا أردت أن تصب من رأس الكوز لتخرج رجعت . قال الشاعر :

آخِ الكِرامَ المنصفين وصِلْهُمُ واقطعْ مودةَ كلِّ مَنْ لا يُنْصِفُ

وقال أبو العتاهية :

إذا ما لم يكُنْ لَكَ حُسْنُ فَهْم أسأت إجابةً ، وأَسَأْتَ سمعا

وعن أبى عوانة أنه حدث قوماً ومنع آخرين . وأسمع هشيم رجلاً بشفاعة أحمد . وعن أبى عاصم أنه كان إذا جاءه إنسان من قبل السلطان أو شفاعة حدثه مع أصحاب الحديث ولم يحدثه دونهم ولم يَخُصَّه .

فصل

جاء رجلان إلى أحمد فقال : لو جئتكم إلى المنزل وحدثتكم لكنتم أهلاً لذلك . وقال عروة : ائتونى فتلقوا منى . وصَحَّ عنه أيضاً أنه كان يتألف الناس على حديثه . وقال فى رواية حبيش : جاء زهير إلى ابن أبى زائدة [١] برجل فقال : حدثه ، قال : حتى أسألَ عنه ، فقال له زهير : متى عهدتَ الناسَ يفعلون هذا ؟ فقال له ابن أبى زائدة : ومتى عهدتَ الناسَ يسبون أبا بكر وعمر ؟

(١) فى المخطوطة : « أبى زائدة » ، والمثبت من ر ، ط .

وعن أيوب : سأل رجل سعيد بن جبير عن حديث فمنعه ، فقال له الرجل : تُؤْجَرُ ، فقال له : ليس كل الأجر نقوى عليه . وكذا روى عن أحمد .

وعن أحمد قال فيما رُوى عن أيوب : قال : لا تُحَدِّثُوا الناسَ بما لا يعلمون أو لا يعرفون فتضروهم .

وصح عن مسروق قال : لا تَنْشُرْ بزَّكَ إلا عند من يبغيه ، رواه أحمد فى رواية عبد اللّه وقال : يعنى الحديث .

وقال شعبة : أتانى الأعمش وأنا أحدث قوماً فقال : ويحك ، تعلق اللؤلؤ فى أعناق الخنازير ؟ وقال مهنا لأحمد : ما معنى قوله ؟ فقال : معنى قوله لا ينبغى أن يحدث مَنْ لا يستأهل .

وقال عبد اللّه : حدثنى أبى قال : قال سفيان : قال عيسى عليه السلام : للحكمةِ أهلٌ ، فإنْ وضعتها فى غير أهلها ضيعت ، وإن منعتها [1] من أهلها ضيعت ، كُنْ كالطبيبِ يضعُ الدواءَ حيثُ ينبغى .

وقال عبد الملك بن عمير : كان يقال : إضاعةُ الحديث أن يحدث به مَنْ ليس بأهل . وعن دغفل قال : آفة العلم أن تخزنه ولا تحدث به ولا تنشره . وقال إبراهيم النخعى : حدِّثْ حديثكَ مَنْ تشتهيه ومن لا تشتهيه ، فإنك تحفظه حتى كأنه أمامك تقرؤه . روى ذلك الخلال .

وقال عبد الرزاق : عن معمر عن رجل هو عمرو بن عبد اللّه ، عن عكرمة قال : قال عيسى عليه السلام : لا تطرح اللؤلؤ إلى الخنزير ؛ فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ، ولا تُعْطِ الحكمةَ مَنْ لا يريدها ، فإن الحكمة خير من اللؤلو ، ومَنْ لا يريدها شَرٌّ من الخنزير .

وقال مالك : ذُلٌّ للعلم ، وإهانة للعلم أن يتكلم به عند مَنْ لا يُطيقُه . وقال كثير ابن مرة الحضرمى : لا تَحَدَّثْ بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك ، ولا تمنع العلمَ أهلَهُ فتأثم ، ولا تحدث به غير أهله فتجهل ، إنَّ عليك فى علمك حقاً كما أنَّ عليكَ فى مالك حقاً . ذكره البيهقى وغيره .

وروى الخلال فى « الأخلاق » : أن إبراهيم بن شماس قال : كنا بعبادان فجرى تشاجرٌ بين طلبة الحديث فلم يحدثهم ، يعنى وكيع بن الجراح سبعةَ أيام ، فقال : إنما أردت أؤدبهم ، ثم حَدَّثهم .

---

(١) فى المخطوطة : « ضيعتها » ،وهو خطأ .

وفى « الصحيحين » : قول ابن عباس لعمر رضى اللّه عنهما : إن الموسم يَجْمَعُ الرَّعَاع والغوغاء ، فأمهِلْ حتى تَقْدَمَ المدينة فتخلص بأهل الفقه . فقدمنا المدينة وذلك أن عمر قبل مشورة ابن عباس فلم يتكلم بذلك حتى قدم المدينة (١) .

قال ابن الجوزى : فى هذا تنبيه على ألا يُودعَ العلمَ عند غير أهله ، ولا يُحَدِّثَ القليلَ الفهمِ ما لا يحتمله فهمه. قال: والرَّعَاعُ : السِّفْلَةُ ، والغَوغَاء نحو ذلك ، وأصل الغَوْغَاء : صغار الجراد. قال ابن عقيل قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . ذلك مع المعجز ﷺ شهد الحق له ، لولا تَخَلُّقُهُ الخلق الجميل لانْفضُّوا عنك ولم يقنع بالمعجز فى تحصيلهم ، لا تقنع أنت العلوم وتظن أنها كافية فى حوشِ الناسِ إلى الدين ، بل حَسِّنْ ذلك ، وحلِّه بالأخلاق الجميلة .

فصل فى أخذ العلم عن أهله وإن كانوا صغار السن

قال الإمام أحمد : بلغنى عن ابن عيينة قال : الغلامُ أستاذ إذا كان ثقة . وقال على بن المدينى : لأن أسأل أحمد بن حنبل عن مسألة فيفتينى أحب إلىَّ من أن أسأل أبا عاصم وابن داود ؛ إن العلم ليس بالسن .

وروى الخلال من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى قال : قال عمر رضى اللّه عنه : إن العلم ليس عن حداثة السن ولا قدمه ، ولكن اللّه تعالى يضعه حيث يشاء . وقال وكيع : لا يكون الرجل عالماً حتى يسمع ممن هو أسن منه ، ومن هو مثله ، ومن هو دونه فى السن . هذه طريقة الإمام أحمد على ما ذكره البيهقى فى « مناقبه » وغيره .

وفى « فنون » ابن عقيل : وجدتُ فى تعاليق: محققٌ أن سبعةً من العلماء ماتَ كُلُّ واحد ـ منهم وله ست وثلاثون سنة ، فعجبتُ من قصر أعمارهم مع بلوغهم الغاية فيما كانوا فيه : فمنهم الإسكندر ذو القرنين وقد مَلَكَ ما ذكره اللّه ، وأبو مسلم الخراسانىُّ (٢) صاحبُ الدولة العباسية ، وابنُ المقفع (٣) صاحبُ الخطابة والفصاحة ،

---

(١) أحمد ١/ ٥٥ ، والبخارى فى مناقب الأنصار ، ب مقدم النبى ﷺ وأصحابه المدينة (٣٩٢٨) .

(٢) هو عبد الرحمن بن مسلم ، ويقال : عبد الرحمن بن عثمان بن يسار الخراسانى الأمير ، صاحب الدعوة، ولد سنة مائة ، سمع من ثابت البنانى ، وأبو الزبير المكى ، ومحمد بن على الإمام وغيرهم ، وروى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ ، وابن شبرمة الفقيه ، وعبد الله بن منيب وغيرهم ، وكان عالماً بالشعر ، قتل فى شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة [سير أعلام النبلاء ٦/ ٤٨ ــ ٧٣] .

(٣) هو عبد الله بن المقفع ، من أئمة الكتّاب ، أصله من الفرس ولد فى العراق مجوسيا ترجم كتاب كليلة ودمنة ، واليتيمة ، واتهم بالزندقة ، فقتله الإمام بالبصرة ، قال عنه الخليل بن أحمد : ما رأيت مثله ، وعلمه أكثر من عقله ، تناوله الكُتَّابُ بالدرس والتحليل ، قتل سنة تسع وخمسين وسبعمائة . [الأعلام ٤/ ١٤٠] .

وسيبويه [١] صاحبُ التصانيف والتقدم فى العربية ، وأبو تمام الطائى [٢] فى علم الشعر ، وإبراهيم النظام [٣] فى علم الكلام، وابن الراوندى فى المخازى ، وله كتاب « الدافع » مما غَرَّ به أهلَ الخلاعة وله «الجدل». انتهى كلامه .

وكان القراء أصحاب مشورة عمر : كهولاً كانوا أو شباناً ، وكان وقافاً عند كتاب اللّه . ذكره البخارى [٤] وغيره .

وفى « الصحيحين » عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : كنت أقرئ رجالاً من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف [٥] .

قال ابن الجوزى فى « كشف المشكل » : فيه تنبيه على أخذ العلم من أهله وإنْ صغرت أسنانهم ، أو قَلَّتْ أقدارهم . وقد كان حكيم بن حزام يقرأ على معاذ بن جبل ، فقيل له : تقرأ على هذا الغلام الخزرجى ؟ فقال : إنما أهلكنا التكبر .

فصل

قال ابن عقيل فى « الفنون » : من أكبر ما يُفوِّت الفوائد ترك التلمح للمعانى الصادرة عمن ليس بمحلٍّ للحكمة ، أترى يمنعنى من أخذ اللؤلؤة وجدانى لها فى مزبلة ؟ كلا ، سمعت كلمة بقيت من قلقها مدة ، وهى أن امرأة كانت تقول على شغلها وتترنم بها : كم كنتُ باللّه أقول لك : إن للتوانى غائلة ، وللقبيح خميرة تبين بعد قليل فما أوقعها من تخجيل

---

(١) هو إمام النحو ، وحجة العرب ، أبو بِشْر ، عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسى ، ثم البصرى ، برع وساد أهل العصر ، وألف كتابه الكبير الذى لا يدرك شأوه فيه ، استملى على حماد بن سلمة ، وأخذ النحو عن عيسى بن عمر ،ويونس بن حبيب ،والخليل ،اشتهر بالمسألة الزُّنْبُورِيَّةَ ،كان شاباً جميلاً نظيفا قد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب بسهم فى كل أدب مع حداثة سنة ، توفى سنة ثمانين ومائة . [سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٥١ ، ٣٥٢] .

(٢) هو شاعر العصر أبو تمام ، حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائى . أسلم وكان نصرانيا . مدح الخلفاء والكبراء . وشعره فى الذروة ، ولد فى أيام الرشيد . ألف الحماسة فدلت على غزارة معرفته بحسن اختياره ، وقيل : كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب . مات فى جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١١/ ٦٣ ــ ٦٩] .

(٣) هو شيخ المعتزلة ، صاحب التصانيف ، أبو إسحاق إبراهيم بن يسار مولى آل الحارث بن عباد الضبعى البصرى المتكلم ، تكلم فى القدر ، وانفرد بمسائل ، وهو شيخ الجاحظ وله نظم رائق ، وترسل فائق ، وتصانيف جمة ، مات سنة بضع وعشرين ومائتين [سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٤١ ، ٥٤٢] .

(٤) البخارى فى الاعتصام ، ب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨٦) ،ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف إلا للبخارى (٥٨٥٢) .

(٥) البخارى فى الحدود ، ب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت (٦٨٣٠) .

على إهمالنا الأمور ، غداً تبينُ خمائرها بين يدى اللّه سبحانه وتعالى .

وروى الترمذى وابن ماجه ــ والإسناد ضعيف ــ عن أبى هريرة مرفوعاً : « الكلمةُ الحكمةُ ضالةُ المؤمن حيث وجدها ، فهو أحَقُّ بها » (١) .

فصل خير الناس من شهد له بالخير أهله وجيرانه

قال الفضل : سمعتُ أبا عبد اللّه وسئل عن أحمد بن محمد بن أيوب صاحب المغازى فقال : هذا يُسألُ عنه جيرانُه ، فإذا أثنوا عليه قُبِلَ منهم .

وروى الخلال من حديث إسماعيل ، عن أيوب ،عن أبى قلابة قال : خير الناس خيرهم فى أهله وخيرهم فى جيرانه ، قال : هم أعلم به .

وروى ابن ماجه: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن منصور، عن أبى وائل ، عن عبد اللّه قال : قال رجل لرسول اللّه ﷺ : كيف لى أنْ أعلمَ إذا أحسنتُ وإذا أسأتُ ؟ قال رسول اللّه ﷺ : « إذا سمعتَ جيرانك يقولون : قد أحسنتَ فقد أحسنتَ ، وإذا سَمِعْتَهُمْ يقولون : قد أسأتَ فقد أسأتَ » (٢) إسناد جيد. ورواه أيضاً من حديث جامع بن شداد عن كلثوم الخزاعى (٣) .

وروى أحمد الحديث الأول ولفظه : « إذا سمعتم » ولم يقل : « جيرانك » (٤) .

وقد سبق ما يتعلق بهذا بنحو كراسين . وقال سفيان الثورى : إذا رأيت الرجل مُحَبَّباً إلى جيرانه ، فاعلمْ أنه مدَاهِنٌ .

فصل فيمن يتلقى العلم ممن ينتفع منه بغير العلم

قال أبو داود : سمعتُ أبا عبد اللّه قيل له : الرجلُ يكتبُ عن الرجلِ لكى يقضى له حاجةً ؟ فقال : إذا كان عنده ثقة يكتب عنه ، قلت : ليس هو عنده فى موضع يكتب عنه ،

---

(١) الترمذى فى العلم ، ب ما جاء فى فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٧) ، وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه من هذا الوجه » ، وابن ماجه فى الزهد ، ب الحكمة (٤١٦٩) .

(٢) ابن ماجه فى الزهد ، ب الثناء الحسن (٤٢٢٣) ، وقال فى الزوئد : « إسناد حديث عبد الله بن مسعود هذا صحيح . رجاله ثقات . ورواه ابن حبان فى صحيحه من طريق عبد الرزاق به » .

(٣) ابن ماجه فى الزهد ، ب الثناء الحسن (٤٢٢٢) ، وقال فى الزوائد : « رجال إسناد كلثوم الخزاعى ثقات ، إلا أنه مرسل. كلثوم بن علقمة، ويقال له : ابن المصطلق ذكره ابن حبان فى الثقات . وقال ابن عبد البر: أحاديثه مرسلة لا يصح له صحبة . وكذا قال نعيم . وردوا الصحبة لأبيه » .

(٤) أحمد ١/ ٤٠٢ .

يقول : اكتب ثم ارْمِ به ، فكره ذلك ، قلت : أتخاف أن تكون ممن يأكل بالعلم ؟ فقال : أخاف .

وقال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد اللّه قيل له : الرجلُ لا يكونُ ثقةً فى الحديث فتعرض للرجل الحاجة : أيكتبُ عنه لمكان حاجته ؟ فقال : إنْ كان ثقةً يكتبُ عنه ، وإن لم يَكُ ثقة ، فلا يكتب عنه .

وفى البخارى : عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : إنْ كنتُ لأستقرئ الرجلَ الآيةَ هى معى كى ينقلب بى فيطعمنى (١).

قال ابن هبيرة : فيه دليلٌ على جواز محادثة الرجل بشيءٍ من الذكر والقرآن لقصدٍ يقصده الإنسان يستجلبُ به نفعاً له أو يدفع به ضرره . قال : ولم ينكره على أبى هريرة مُنْكِرٌ .

وقيل لأبى زرعة : كتبت عن يحيى بن أكثم ؟ فقال : ما أطمعته فى هذا قط ، ولقد كان شديد الإيجاب لى ، لقد مرضتُ ببغداد فما أُحْسِنُ أَصِفُ ما كان يُولِينى من التَّعاهُدِ والافتقاد.

وحَدَّثَ ذاتَ يومٍ عن الحارث بن مرة الحنفى بحديثِ الأشربة فقال : « يعيش » وصَحَّف فيه فقلت له : نفيس فقال : نفيس : من أسامى العبيد وخجل ، فقلتُ له : حَدَّثنا أحمد بن حنبل والقواريرى(٢) قالا : حدثنا الحارث بن مرة ، فرجع لما ورد عليه أحمد والقواريرى، قال أبو زرعة : جبلان .

فصل فى محو كتب الحديث أو دفنها إذا كانت لا ينتفع بها

قال بكر : عن أبيه عن أبى عبد اللّه سمعه ــ وسئل عن رجلٍ أوصى إليه رجلٌ أنْ يدفنَ كتبه ــ قال : ما أدرى ما هذا ؟ وقال الأثرم : قلت لأبى عبد اللّه : دفنُ دفاترِ الحديث ؟ قال: أرجو ألا يكونَ به بأس . وقال فى رواية أبى طالب وقد سأله عن محو كتب الحديث ، فقال : سبحان اللّه تمحى السنة والعلم ! قلت ما تقول ؟ قال : لا .

وقال أبو طالب : سألت أبا عبد اللّه ، ما ترى فى دفن العلم إذا كان الرجلُ يخاف أنْ

---

(١) البخارى فى فضائل الصحابة ، ب مناقب جعفر بن أبى طالب الهاشمى (٣٧٠٨) .

(٢) هو عبيد الله بن عمر بن ميسرة الإمام الحافظ ، محدث الإسلام ، أبو سعيد الجشمى مولاهم البصرى القواريرى الزجاج ، ولد سنة اثنتين وخمسين ومائة تقريبا ، وحدث عن حماد بن زيد ، وعبد الوارث ، وجعفر بن سليمان ، وغيرهم ، وحدث عنه البخارى ومسلم ، وأبو داود وخلق سواهم ، كتب عنه يحيى ابن معين وأحمد بن حنبل وهو ثقة صدوق ، مات سنة خمس وثلاثين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ٤٤٢/١١ ــ ٤٤٦] .

ليس له خلفٌ يقوم به ويخافُ عليه الضيعةَ ؟ قال : لا يدفن ، ولعلَّ ولده ينتفع به ، عبيدةُ أوصى أنْ تُدفن ، والثوريُّ لم يكن له ولدٌ ولعل غير ولدِه ينتفع به ، قلت : يباع ؟ قال : لايباعُ العلمُ ، ولكن يَدَعُه لولده ينتفع به أو غير ولده ينتفع به . وقال فى رواية المروذى ، وسأله عمن أوصى أن تدفن كتبه ، قال : ما يعجبنى دفنُ العلم .

وقال المروذى : سألت أبا عبد اللّه عن رجلٍ أمر بدفنِ كتبه وله أولادٌ فأطرق مليا ثم قال: لعله ينتفع بها ، ثم قال : إن كان فيها منفعة عرضت فما أعطى بها من شىء حُسبتْ من ثُلثِه.

وحمل أحمد بن أبى الحوارى كتبه إلى البحر فَفرَّقها وقال: لم أفعل هذا تهاوناً بك ، ولا استخفافاً بحقك ، ولكن كنت أطلب أن أهتدى بكِ إلى ربى ، فلما اهتديتُ بك استغنيتُ عنكِ.

وقال صالح : سألت أبا عبد اللّه عن رجل أوصاهُ أبوهُ إذا هو ماتَ أنْ يَدفنَ كتبه قال الابن بعد موت أبيه : ما أشتهى أن أدفنها ، قال : إنى أرجو إذا كانت مما ينتفع بالنَّظَرِ فيها ورثته رجوتُ إن شاء اللّه تعالى .

وسأله المروذى عمن أوصى أن تدفن كتبه وله أولاد ؟ قال : فيهم من أدرك ؟ قلت : نعم، قال: وعَمَّنْ كتبَ هذه الكُتبَ ؟ قلتُ : عن قوم صالحين ، قال : أحب العافية منها ، أكره أنْ أتكلَّمَ فيها ، واستعفى من أنْ يُجيبَ من أن تترك أو تدفن .

قال الخلال : والذى أذهبُ إليه من قوله فى هذا أنه إنْ كانت صُحفاً أو حديثاً أنها لا تُباع ولا تُمحى ولا تُحْسَبُ من الثلث ؛ لأنى لا أعرفُ لحسابه من الثُّلُثِ معنى ، لعله قد أوصى بثلثه فى أبواب البر . وقد توقف عنه أبو عبد اللّه ، والأحوطُ فى هذا أنْ تُدفنَ فهو أشبه فى هذا الزمان .

فصل فى كتابة الحديث والعلم والأحاديث المتعارضة فيها

روى الخلال : أخبرنا أبو العباس الدورى : سمعت يحيى يقول : قال يحيى بن سعيد القطان : ما رأيتُ مثل سفيان الثورى ، كنت إذا سألته عن الحديث لم يكن عنده اشتدَّ عليه ، وكان مسعر لا يبالى ألا يكونَ عنده . وقال رجل لأحمد : أريدُ أن أعرف الحديث ، قال : إنْ أردتَ أنْ تعرفَ الحديثَ فأكْثِرْ من الكتابة .

وقد دَلَّ هذا النصُّ وغيره على كتابة الحديث بل وكتابة العلم . وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة : « اكتبوا لأبى شاه »[1]، وفيهما أيضاً قول على رضى اللّه عنه : وما فى

(١) سبق تخريجه .

هذه الصحيفة [١] .

وفى البخارى عن أبى هريرة : لم يكن أحدٌ أكثر حديثاً منى إلا عبد اللّه بن عمرو فإنه كان يكتبُ ولا أكتب . وفى رواية : استأذن رسولَ اللّه ﷺ فى الكتابة ، فأذن له [٢] .

وفى «السنن» :أن عبد الله بن عمرو قال: يا رسول الله، أكتب عنك فى الغضب والرضا؟ فقال : « اكتب فوالذى نفسى بيده ما يخرجُ منه إلا حَقٌّ » [٣] وأشار بيده إلى فيه ﷺ .

وعن عمر وابن عباس وأنس رضى الله عنهم : قَيدوا العلم بالكتاب .

وقال حنبل : حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عبد الله بن المؤمل ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قَيِّدُوا العلم » ، قلت : وما تقييده ؟ قال : « الكتاب »[٤] ابن المؤمل ضعيف .

وللنسائى عن عمرو بن عثمان ، عن الوليد بن مسلم ، عن ابن جريج ، أخبرنى عطاء ، عن عبد الله بن عمرو قال : يا رسول الله ، إنا نسمعُ منكَ أحاديث ، فتأذن لنا أن نكتبها ؟ قال : « نعم »[٥] وذكر الحديث ، قال النسائى : منكر ، وهو عندى خطأ .

وسمع أنس وكتب من النبى ﷺ وعرضها عليه .

وأملى واثلة بن الأسقع على الناس الأحاديث وهم يكتبون بين يديه .

وقال أبو المليح : يعيبون علينا الكتاب والله يقول : ﴿ **قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ** ﴾ [طه:٥٢] .

وكان ابن عمر لا يخرج من بيته غدوة حتى ينظر فى كتبه . وقال بشير بن نهيك كتبت عن أبى هريرة ما كنتُ أسمعه منه ، ثم أتيته به فقلت : هذا سمعته منك قال : نعم .

وعن الحسن بن على رضىَ الله عنهما أنه أمر بَنيه وبنى أخيه بكتابةِ العلم حتى يرْووه أو يضعوه فى بيوتهم .

---

(١) البخارى فى الجهاد ،ب فكاك الأسير (٣٠٤٧) ،ومسلم فى الحج ،ب فضل المدينة . . . (١٣٧٠/٤٦٧)

(٢) البخارى فى العلم ، ب كتابة العلم (١١٣) .

(٣) أحمد ٢ / ١٦٢ ، وأبو داود فى العلم ، ب فى كتاب العلم (٣٦٤٦) .

(٤) الحاكم فى مستدركه فى العلم ، ب قيدوا العلم بالكتاب ١ / ١٠٦ .

(٥) النسائى فى الكبرى فى العتق ، ب ذكر الاختلاف على علىّ فى المكاتب يؤدى بعض كتابته (٥٠٢٧) .

وكتب ابنُ عباس كثيراً، وكتبَ الناسُ عن زيدِ بن ثابت وجابر والبراء وغيرهم من الصحابة وخلقٍ من التابعين لايحصون .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم أنْ يجمعَ له السنن والآثار : فإنى خشيتُ ذهاب العلم .

وروى مسلم : عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد مرفوعاً : « من كتب عنى سوى القرآن فَلْيَمْحُهُ » (١).

وروى البيهقى : عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد أنه قال : لا نكتبكم ولا نجعلها مصاحفَ، احفظوا عنَّا كما كنا نحفظُ عن نبيكم . قال البيهقى : فدلَّ ذلك على أنَّ النهىَ إنما كان خشيةَ أن يختلطَ بكتابِ الله شىء . ثم روى من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن عروة أنَّ عمرَ أراد أن يكتبَ السنن ، فاستشار الصحابة رضى الله عنهم ، فأشاروا عليه بذلك ، ثم استخار الله شهراً ثم قال : إنى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكَبُّوا عليها وتركوا كتابَ الله عز وجل ، وإنى والله لا ألبسُ كتابَ الله بشىء أبداً .

وعن ابن مسعود أنه كره كتابةَ العلم وكذا روى عن ابن عمر وأبى موسى الأشعرى والزهرى وغير واحد أنهم كرهوا ذلك . وقال أبو هريرة : لا نكتبُ ولا نكتمُ . وقال ابن جريج : أخبرنى الحسن بن مسلم ، عن سعيد بن جبير ، أنَّ ابنَ عباس كان ينهى عن كتابة العلم ،وقال: إنما أضَلَّ مَنْ كان قبلكم الكتب . قال البيهقى : وإنما ذلك للمعنى الذى أشرنا إليه أو نحوه . وقال أيضاً : لعله ﷺ أذنَ فى الكتابةِ لمن خشىَ عليه النسيان ، ونهى عن الكتابة لمن وثق بحفظه، أو نهى عن الكتابة حين خافَ الاختلاطَ ، وأذن فى الكتابة حين أمِنَ منه ، وقد قال الأوزاعى : كان هذا العلمُ كريماً يتلاقاه الرجال بينهم ، فلما دخل فى الكتب دخل فيه مَنْ ليس من أهله .

وقال أبو كريب : كان عيسى عليه السلام يقول : لا خيرَ فى علمٍ لا يعبرُ معكَ الوادى ، ولا يعمرُ بكَ النادى .

قال فى شرح مسلم : أجمعت الأمةُ على استحبابِ كتابة العلم بعد ذلك ، وأجابوا عن أحاديثِ النهى بخوفِ اختلاط القرآن بغيره قبل اشتهاره ، فلما اشتهر وأمن ذلك جاز .

---

(١) مسلم فى الزهد والرقائق ، ب التثبت فى الحديث ، وحكم كتابة العلم (٣٠٠٤ / ٧٢) .

والجواب الثانى : أنه نهىُ تنزيه لمن وثق بحفظه ، وخِيفَ اتكاله على الكتابة .

وقال الثورى : معرفة معانى الحديث وتفسيره أشد من حفظه . وقال وكيع : قال إبراهيم [ابن إسماعيل][1] بن مجمع ــ وكان ثقة ــ : كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به .

وسأل مهنا أحمد : ما الحفظ ؟ قال : الإتقان هو الحفظ .

وقال عبد الرحمن بن مهدى : الحفظُ الإتقانُ ، ولا يكون إماماً فى العلم مَنْ يحدث بكل ما سمع ، ولا يكون إماماً فى العلم مَنْ يُحَدِّثُ بالشاذ من العلم .

وقال المروذى : إن أبا عبد الله قال : ما أنفع مجالس أصحاب الحديث ! قلت : كيف مجالستهم وهم يغتابون ؟ قال : ما أنفع مجالستهم ! يعرف الرجل الحديث بهم .

وروى الخلال عن ابن سيرين قال : كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يجلسون فى مسجدِ النبىِّ ﷺ حِلقاً يتذاكرون الحديثَ ويتراجزون الشِّعْرَ .

وروى أحمد عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : تذاكروا الحديث فإن حياته المذاكرة .

وعن علقمة قال : أطيلوا ذِكْرَ الحديثِ لا يدرس .

وعن وَهْب بن منبه قال : مجلسٌ يُتَنازَعُ فيه العلمُ أحَبُّ إلىَّ من قَدْرِه صلاة ، روى ذلك الخلال .

وذكر البيهقى فى كتاب «المدخل» من حديث شعبة، عن على بن الحكم ، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا جلسوا كان حديثهم يعنى الفقه إلا أن يقرأ رجلٌ سورة ، أو يأمروا أحدهم أن يقرأ سورة .

وعن على رضى الله عنه قال : تذاكروا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا ذلك اندرسَ العلمُ .

وقال أبو سعيد : تذاكروا الحديث فإن الحديث يهيج الحديث .

وقال عمر المهاجرى عن ابن عباس : إنَّ له لساناً سؤولاً ، وقلباً عقولاً . رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عنه . وروى أحمد ، عن جرير ، عن مغيرة قال : قال رجل لابن عباس: بم أصبتَ هذا العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول .

وقال ابن وهب عن يونس ، قال الزهرى : العلم خزائن ، وتفتحها المسألة .

---

(١) سقط من المخطوطة والمثبت من ر ، ط .

وروى عن الزهرى أنه كان يرجع إلى منزله وقد سمع حديثاً كثيراً فيعيده على جارية له من أوله إلى آخره كما سمعه ويقولُ لها : إنما أردت أن أحفظه . وكان غيره يعيده على صبيان المكتب ليحفظه .

وقال الأوزاعى : عن الزهرى : آفةُ العلمِ النسيانُ وقِلَّة المذاكرة .

وعن محمد بن كعب مرسلاً : ما تجالس قومٌ فلم يُنصت بعضهم لبعض إلا نَزَعَ اللهُ من ذلك المجلس البركةَ .

وعن ابن مسعود أنه كان إذا قعد يقول : إنكم فى ممر الليل والنهار إلى آجالٍ منقوصة ، وأعمالٍ محفوظة ، والموتُ يأتى بَغتةً ، فمن زرعَ خيراً يوشك أنْ يحصدَ رغبة ، ومَنْ زرع شراً يوشك أن يحصد ندامةً ، ولكل زارع ما زرع لا يفوت بطىء حظه ، ولا يدرك حريصٌ ما لم يُقَدَّرْ له ، فمن أعطىَ خيراً فالله أعطاه ، ومَنْ وُقِىَ شراً فالله وقاه ، المُتَّقُونَ سادة ، والفقهاء قادة ، مجالستهم زيادة . قال البيهقى : وروى عن الحارث عن على مرفوعاً ، وهو ضعيف .

وقال على بن المدينى : حدثنا جندب بن عبد الرحمن الرُّواسِىُّ ، حدثنا زكريا بن أبى زائدة ، عن على بن الأقمر ، عن أبى جُحَيْفَةَ ، قال : جالسوا الكبراء وسائلوا العلماء ، وخالطوا الحكماء . قال البيهقى : روى مرفوعاً وهو ضعيف .

وقال لقمان : يا بنىَّ جالسِ العلماء وزاحمهم بركبتيك فإنَّ الله يحيى القلوبَ بنورِ الحكمة كما يحيى الأرضَ بوابلِ المطر . قال البيهقى : وروى مرفوعاً وهو ضعيف .

وعن أنس مرفوعاً : « منهومان لا يشبعان : طالبُ علمٍ وطالب دنيا »[1] رواه الترمذى . قال البيهقى : وروى عن كعب من قوله .

وروى الفقيه نصر بن إبراهيم المقدسى ، أخبرنا أبو بكر قال : أخبرنا عبد الغفار بن أبى الطيب[2] المؤدب ، حدثنا عمر بن أحمد بن عثمان ، حدثنا محمد بن أحمد بن أبى الثلج ، حدثنا جدى قال : سألتُ أحمدَ بن حنبل قلتُ : يا أبا عبد الله ، أيما أحَبُّ إليك ؟ الرجلُ يكتبُ الحديثَ ، أو يصوم ويصلى ؟ قال: يكتب الحديث ، قلت : فمن أين فضلتَ كتابةَ الحديث على الصوم والصلاة ؟ قال : لأنه يقول : إنى رأيت قوماً على شىء فاتبعتهم .

---

(١) الدارمى فى المقدمة ، ب فى فضل العلم والعالم ١ / ٩٦ عن الحسن وابن عباس ، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان ، ب فى الزهد وقصر الأمل (١٠٢٧٩) عن أنس بن مالك ، ولم نقف عليه فى الترمذى .

(٢) فى المخطوطة : « ابن أبى طالب » والمثبت من ر ، ط .

فصل فى فضل الجمع بين الحديث وفقهه وكراهة طلب الغريب والضعيف منه

قال أحمد بن الحسن الترمذى : سمعتُ أبا عبد اللّه يقول : إذا كان يعرفُ الحديثُ ، ويكون معه فقْهٌ أحبّ إلىَّ من حفظِ الحديث لا يكونُ معه فقهٌ .

وقال الأثرم : سأل رجل أبا عبد اللّه عن حديث ، فقال أبو عبد اللّه : اللّه المستعان ، تركوا العِلْمَ وأقبلوا على الغرائب ، ما أقلَّ الفقه فيهم !

وقال الحسن بن محمد : سمعتُ أحمد بن حنبل سئل عن أحاديث غرائب فقال : شىء غريب ، أىُّ شىء يُرجى به ؟! قال : يطلب الرجل ما يزيد فى أمر دينه ما ينفعه .

وقال فى رواية أبى داود : يطلبون حديثاً من ثلاثين وجهاً ، أحاديث ضعيفة ، قال : شىء لا ينتفعون به . ونحو هذا الكلام .

وقال أيضاً : شر الحديث الغرائب التى لا يُعمل بها ولا يعتمد عليها .

وقال إبراهيم النخعى : كانوا: يكرهون غريب الحديث ذكره الخلال .

وروى أحمد عن الربيع بن خثيم قال : إنَّ من الحديثِ حديثاً له ظلمةٌ كظلمةِ الليلِ تنكره، وإنَّ من الحديثِ حديثاً له ضوءٌ كضوءِ النهار تعرفه .

وقال على بن الحسين زين العابدين : العلمُ ما تواطأت عليه الألسن .

وقال مالك : شَرُّ العلمِ الغريب ، وخيرُ العلم الظاهر الذى قد رآه الناس وقال أبو يوسف القاضى : مَنْ طلبَ الدِّينَ بالكلام تزندق ، ومَنْ طلب غريبَ الحديثِ كذب ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس . وعن مالك مثله .

وقال ابن المبارك : لنا فى صحيحِ الحديث شغلٌ عن سقيمه .

وقال ابن مهدى : لا ينبغى للرجل أنْ يشغلَ نفسه بكتابة الحديث الضعيف ، فأقل ما فى ذلك أنْ يفوته من الصحيحِ بِقَدَرِه .

وقال ابن الجوزى : قال أحمد بن حنبل : الاشتغال بالأخبار القديمة يقطع عن العلم الذى فرض علينا طلبه .

وقال مالك : ما أكْثَرَ أحدٌ من الحديث فأنجح .

قال ابن الجوزى : وإنما الإشارةُ إلى ما ذكرت من التشاغل بكثرةِ الطرق والغرائبِ؛ فيفوت الفقه . وذكر كلاماً كثيرا إلى أن قال : وقد أوغل خلق من المتأخرين فى كتابة طرق

المنقولات ، فشغَلَهم عن معرفة الواجبات ،حتى إنَّ أحدهم يُسألُ عن أركانِ الصلاةِ فلا يدرى ، لا بل قد أثر هذا فى القدماء ، ثم روى بإسناده أنَّ امرأة وقفت على مجلس فيه يحيى ابن معين وأبو خيثمة وخلف بن سالم فى جماعة يتذاكرون الحديثَ فسألتهم عن الحائض تغسل الموتى ؟ وكانت غاسلة ، فلم يُجِبْهَا منهم أحدٌ ، وجعل بعضُهم ينظرُ إلى بعضٍ ، فأقبل أبو ثور ، فقالوا لها : عليك بالمُقْبِلِ ، فسألته: فقال: نعم تغسلُ الميتَ ، لحديث عائشة رضى اللّه عنها : « أما حَيْضَتك ليست فى يَدِكِ » (١) ولقولها : كنتُ أفرقُ رأسَ رسول اللّه ﷺ بالماء وأنا حائض(٢) . قال أبو ثور : فإذا فَرَقتْ رأسَ الحى فالميتُ به أوْلى ، قالوا : نعم رواه فلان، وحدثنا به فلان ، ونعرفه من طريق كذا ، وخاضوا فى الطُّرقِ والروايات ، فقالت المرأة: فأين كنتم إلى الآن ؟

قال : وقد كان بعض أكابرهم يستحى من رد الفتيا ، فيفتى بما لا يَحسُن ذكره : إنَّ امرأةً سألت علىَّ بن داود المحدث وفى مجلسه نحو ألف رجلٍ فقالت : إنى حلفت بصدقةِ إزارى ؟ فقال : بكم اشتريته ؟ فقالت : باثنين وعشرين درهماً قال : صومى اثنين وعشرين يوماً ، فلما ذَهبتْ جعلَ يقول : آه غلطنا واللّه ، أمرناها بكفَّارةِ الظهار . حكاه إبراهيم الحربى .

ثم روى بإسناده عن أبى زرعة قال : كتب إلى أبى ثور : لم يزل هذا الأمرُ فى أصحابك حتى شغلهم عنه إحصاء عدد رواة « مَنْ كذب علىَّ متعمداً » (٣) فغلبهم هؤلاء القوم عليه . قال ابن الجوزى فى « صيد الخاطر » فهو كما قال الحطيئة (٤) :

زواملُ للأخبار لا علمَ عندها ... بمتقنها إلا كعلمِ الأباعرِ
لعمرك ما يدرى البعيرُ إذا غدا ... بأوساقه أو رَاحَ مَا فى الغرائرِ

ثم ذكر العلوم ، وقال : إنَّ الفقه عليه مدارُ العلوم ، فإن اتَّسَعَ الزمانُ للتزيد من العلم فليكن من الفقه ؛ فإنه الأنفع . وقال فيه : ولقد أدركنا فى زماننا مَنْ قرأ من اللغة أحمالاً

---

(١) مسلم فى الحيض ، ب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء فى حجرها وقراءة القرآن فيه (٢٩٨/ ١١) .

(٢) مسلم فى الحيض ، ب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء فى حجرها وقراءة القرآن فيه (٢٩٧/ ٩ ، ١٠) .

(٣) البخارى فى العلم ب إثم من كذب على النبى ﷺ (١١٠) عن أبى هريرة ،ومسلم فى الزهد ، ب التثبت فى الحديث وحكم كتابة العلم (٣٠٠٤/ ٧٢) عن أبى سعيد الخدرى .

(٤) هو جرول بن أوس بن مالك العبسى أبو مُلكية ، شاعر مخضرم ، كان هجاء عنيفا ، لم يكد يسلم من لسانه أحد ، وهجا أمه وأباه ونفسه ، أكثر من هجاء الزبرقان بن بدر ، فشكاه إلى عمر بن الخطاب فسجنه بالمدينة ، فاستعطفه بأبيات فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس . له ديوان شعر ، توفى سنة خمس وأربعين [الأعلام ١١٨/٢] .

فحضر بعض المتفقهة ، فسأله عن الحديث المعروف « لو طعنت فى فخذها أجزأك » (١) فقال : هذا للمبالغة ، فقال له الصبىُّ : أليس هذا فى ذكاة غير المقدور عليه ؟ ففكر الشيخ ساعة ثم قال : صدقتَ .

وأدركنا من قرأ الحديثَ ستينَ سنةً فدخلَ عليه رجلٌ فسأله عن مسألة فى الصلاة فلم يَدْرِ ما يقول وأدركنا مَنْ بَرَعَ فى علم التفسير فقال له رجل يوماً : إنى أدركتُ ركعةً من صلاة الجمعة فأضفت إليها أخرى فما تقول ؟ وأدركنا مَنْ بَرَعَ فى علوم الفقة فكان إذا سئل عن حديث لا يدرى ما يقول فَسَبَّهُ ولامه على تخلفه ولم يَدْرِ ما الجواب . وأدركنا مَنْ برع فى علوم القراءات فكان إذا سئل عن مسألة يقول : عليك بفلان . هذه كلها محن قبيحة . فلما رأيتُ فى الصبا أنّ كُلَّ مَنْ برع من أولئك فى فنه ما استقصى وإنما عَوَّقته فضوله عن المهم وما بلغ الغايةَ رأيتُ أنَّ أخْذَ المُهِمِّ من كل علمٍ هو المهم ، فإنه من أقبح الأشياء أن يطلب المحدثُ عُلُوَّ الإسناد وحسن التصانيف فيقرأ المصنفات الكبار ويطلب الأسانيدَ العوالى ، ويكتب فيذهب العمر ، ويرجع كما كان ليس عنده إلا أجزاء مصححة لا يدرى ما فيها وقد سهر وتعب :

وإذا ساءلته عن علْمه ... قال علمى يا خليلى فى سَفَطْ (٢)
فى كَرَارِيسَ جيادٍ أُحْكِمَتْ ... وبخطٍ أىٍّ خطٍ [أى خطْ] (٣)
وإذا ساءلته عن مُشْكِلٍ ... حَكَّ لَحْيَيْهِ جميعاً وامتخط

ويتفقه صبى صغير ، فيفتى فى مسألة قد عجز ذلك الشيخ عنها ، وإنما أشرحُ هذه الأشياء للتعليم . انتهى كلامه .

ولأبى داود عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص مرفوعاً : « العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » (٤) .

وللترمذى وقال : حسن غريب ، عن أنس أن النبى ﷺ قال له : « يا بنىَّ ، إنْ قدرتَ أنْ تُصبحَ وتمسى وليس فى قلبك غشٌّ لأحدٍ فافعل، ثم قال : يا بنى وذلك من سنتى ، مَنْ أحيا

---

(١) أحمد ٤/ ٣٣٤ ، والترمذى فى الأطعمة ، ب ما جاء فى الزكاة فى الحلق واللبة (١٤٨١) عن أبى العشراء عن أبيه ، وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة ، ولا نعرف لأبى العشراء عن أبيه غير هذا الحديث » .

(٢) السفط : هو الذى يعبى فيه الطِّيب وما أشبهه من أدوات النساء ، ويقال : هو سفيط النفس أى سخيها طيبها . اللسان ، مادة « سفط » .

(٣) سقط من المخطوطة ، وهو فى أ ، ر ، ط .

(٤) أبو داود فى الفرائض ، ب ما جاء فى تعليم الفرائض (٢٨٨٥) .

سنتى فقد أحيانى ، ومن أحيانى كان معى فى الجنة » [1] .

وقال الشافعى ليونس بن عبد الأعلى : عليك بالفقه ، فإنَّهُ كالتفاح الشامى يحملُ من عامِه .

وقال ابن الجوزى فى « كتاب العلم » : الفقه عمدة العلوم .

وأملى الشافعى على مصعب بن عبد اللّه بن الزبير أشعار هذيل ووقائعها وأيامها حفظاً ، فقال له : يا أبا عبد اللّه ، أين أنت بهذا الذهن عن الفقه ؟ فقال : إياه أردت .

وقال محمد بن الحسن : كان أبو حنيفة يَحُثُّنَا على الفقه ، ونهانا عن الكلام ، وكان يقول: لعن اللّه عمرو بن عبيد ؛ لقد فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيهم .

وقال الربيع : مر الشافعى بيوسف بن عمرو وهو يذكر شيئاً من الحديث ، فقال : يا يوسف تريد تحفظ الحديث وتحفظ الفقه ؟ هيهات .

وقال صاحب « المحيط » من الحنفية : أفضلُ العلومِ عند الجمهور بعد معرفةِ أصل الدين وعلم اليقين معرفةُ الفقه والأحكام الفاصلة بين الحلال والحرام .

وروى الحاكم فى « تاريخه » عن عبد العزيز بن يحيى قال : قال لنا سفيان بن عيينة : يا أصحابَ الحديث ، تَعلَّموا معانىَ الحديث ، فإنى تعلمتُ معانى الحديث ثلاثين سنة قال : فتركوه ، وقالوا : عمرو بن دينار عمن ؟

وقال أبو حيان النحوى المتأخر المشهور فى أثناء كلام له : وأما إنْ كان صاحبَ تصانيف وينظر فى علومٍ كثيرة ، فهذا لا يمكن أنْ يبلغَ الإمامة فى شىءٍ منها ، وقد قال العقلاء : ازدحامُ العلوم مضلة للمفهوم ، ولذلك تجد مَنْ بلغ الإمامة من المتقدمين فى علم من العلوم لا يكاد يشتغل بغيره ولا ينسب إلى غيره وقد نظمت أبياتاً فى شأن من ينهز بنفسه ، ويأخذ العلم من الصحف بفهمه :

يظن الغَمْرُ أنَّ الكتب تهدى ... أخا فَهْمٍ لإدراكِ العلوم
وما يدرى الجهولُ بأنَّ فيها ... غوامض حَيَّرَتْ عقلَ الفهيمِ
إذا رمتَ العلوم بغير شيخٍ ... ضللتَ عن الصراط المستقيم
وتلتبسُ الأمور [2] عليك ... تَصيرَ أَضَلَّ من توما الحكيم

أشرت إلى قول بعضهم :

---

(١) الترمذى فى العلم ، ب ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٨) .
(٢) فى أ ، ر ، ط : « العلوم » .

قال حمارُ الحكيم توما ... لو أنصفونى لكنتُ أَرْكَبْ
لأننى جاهلٌ بسيط ... وصاحبى جاهلٌ مُرَكَّبْ

وقال بعضهم :

إذا لم تكنْ حافظاً واعياً ... فَجَمْعُكَ للكُتْبِ لا يَنْفَعُ
وتحضرُ بالجهل فى موضع ... وعلمُك فى الكُتْبِ مُسْتَودَعُ
ومَنْ كان فى عُمْرِهِ هكذا ... يكن دَهْرَهُ القَهْقَرَى يَرجعُ

ومن المشهور :

فدَعْ عنكَ الكتابةَ لستَ منها ... ولو سَوَّدتَ وَجهَكَ بالمداد

ومثله :

وللعلومِ رجالٌ يُعْرَفُون بها ... وللدواوينِ كُتَّابٌ وحُسَّابُ

فصل

قال ابن الجوزى : ومن علومِ الحديث معرفةُ علله وذلك بجمع طرقه . وقال أحمد بن حنبل : إذا لم يجمع طرق الحديث لم يفهم ، والحديث يفسر بعضه بعضاً . وقال عبد الرحمن ابن مهدى : لأن أعرف علةَ الحديث هو عندى أحب إلىَّ من أن أكتب عشرين حديثاً ليست عندى . انتهى كلامه .

وقال سفيان الثورى عن أبيه ، عن منذر أبى يعلى الثورى ، عن الربيع قال : إنَّ من الحديث حديثاً له ضوءٌ كضوءِ النهار نعرفه ، وإن من الحديث حديثاً له ظُلمةٌ كظلمة الليل ننكره.

وقال نعيم بن حماد [1] . قلت لعبد الرحمن بن مهدى : كيف تعرف صحيح الحديث من خطئه فقال : كما يعرف الطبيب المجنون .

وذكر البخارى عن ابن المدينى ، عن ابن مهدى وسأله رجل عن ذلك فقال عبد الرحمن : أرأيت لو أتيتَ الناقد فأريتَهُ دراهمكَ ، فقال : هذا جيدٌ وهذا ستُّوق [2] ، وهذا مبهرج [3] ،

---

(١) نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك الإمام العلامة الحافظ أبو عبد الله الخزاعى المروزى الفرضى فى الأعور ، صاحب التصانيف ، حدث عن أبى حمزة السكرى وهو أكبر شيخ له ، وهشيم، وأبى بكر بن عياش وغيرهم ، وروى عنه البخارى ، وأبو داود والترمذى وابن ماجه وغيرهم ، مختلف فى توثيقه ، مات سنة تسع وعشرين ومائتين. [سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٩٥ ــ ٦١٢] .

(٢) درهم ستوق : زيف بَهْرَج لا خير فيه ، وهو معّرب . اللسان ، مادة « ستق » .

(٣) البهرج : الردىء من الشىء ، ودرهم بَهْرَج : ردىء الفضة . المصباح المنير ، مادة « بهرج » .

obeikandi.com

أكنتَ تسأله عن ذلك أو كنت تُسَلِّمُ الأمرَ له ؟ قال : بل كنتُ أسلمُ الأمرَ إليه ،قال فهذا كذلك؛ لطول المجالسة والمناظرة والخبرة .

وعن ابن مهدى قال : عِلْمُنَا بصحة الحديث كهانةٌ عند الجاهل .

وجاء رجل إلى أبى زُرْعَةَ فقال : ما الحجة فى تعليلكم الحديث ؟ فقال : الحجة فى ذلك أن تسألنى عن حديث له علة ، فأذكر علَّته ، ثم تقصد محمدَ بن مسلم بن وارة فتسأله عنه فيعلِّلهُ ، ثم تقصد أباً حاتم الرازى فيعلله ،ثم تنظر فإن وجدت بيننا اختلافاً فى علته ، فاعلم أنَّ كُلاً منّا تكلم على مراده ، وإنْ وجدتَ الكلمةَ متفقة فاعلم حقيقةَ هذا العلم ، ففعل الرجل ذلك ، فاتفقتْ كلمتهم ، فقال : أشهدُ أن هذا العلمَ إلهامٌ . رواه الحاكم والبيهقى والخطيب وغيرهم .

وقال أبو زرعة الدمشقى : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، سمعت الأوزاعى يقول : كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا كما نعرض الدرهم المزيف ؛ فما عرفوا منه أخذنا وما أنكروا منه تركنا .

وقال الأعمش : كان إبراهيم صيرفى الحديث ، فكنتُ إذا سمعتُ الحديثَ من بعض أصحابنا أتيته فعرضته عليه .

وقال قبيصة بن عقبة : رأيت زائدة يعرض كتبه على سفيان الثورى ، ثم التفت إلى رجل فى المجلس ، فقال : مالك لا تعرض كتبك على الجهابذة كما نعرض ؟

وقال زائدة : كنا نأتى الأعمش فيحدثنا بكثير ، ثم نأتى سفيان الثورى فنذكر له تلك الأحاديث ، فيقول : ليس هذا من حديث الأعمش ، فنقول : صدق سفيان ليس هذا من حديث الأعمش ، فنقول : هو حدثناه الساعة ، فيقول : اذهبوا فقولوا له إن شئتم ، فنأتى الأعمش فنخبره ، فيقول : صدق سفيان ليس هذا من حديثنا .

وقال ابن معين : لولا الجهابذةُ لكثرت الستوق والزيوف فى رُواةِ الشريعة ، أمَا تحفظُ قولَ شريح : إنَّ للأثر جهابذةً كجهابذةِ الوَرِق ؟!

وقال الربيع : قال الشافعى : لا تستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المخبر وكذبه إلا فى الخاص القليل من الحديث، وذلك أنْ تَستدلَّ على الصدق والكذب فيه بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أنْ يكونَ مثله، أو يخالفه من هو أثبتُ وأكثرُ دِلالاتٍ بالصدق منه.

قال البيهقى : ومن ذلك حديث يحيى بن آدم يعنى ما يأتى فى العمل بالحديث الضعيف فى آداب الدعاء والقراءة ، قال وإنْ كانت رواته ثقات ، فهو مما لا يجوزُ أنْ يكون مثله ؛ لأن النبىَّ ﷺ لا يأمرُ بتصديق من أخبر عنه ما لم يقله ، وقد تفرد عنه يحيى بن آدم وهو ثقة ،

ولكن اختلف عليه فيه ، وأرسله بعضهم ، وهو أشبه ، والخطأ فى مراسيل المقبرى متوهم .

ثم ذكر البيهقى أحاديث أُخَرَ معللة إلى أن ذكر الحديث المذكور فى آخر الكتاب فى كفارة المجلس واللّه أعلم . وسبق قبل هذا بنحو كراسة فى طلب العلم حديث : « يحملُ هذا العلمَ من كُلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ » (١) .

فصل فى علم الإعراب لصاحب الحديث

قال ابن الجوزى: ومن العلومِ التى يلزمُ صاحبَ الحديث معرفتهُ الإعرابُ لئلا يلحن ، وليورد الحديثَ على الصحة . كان ابن عمر يضرب ولده على اللحن (٢) انتهى كلامه . وكذا قال ابن عبد البر : كان ابن عمر يضرب ولده على اللحن .

قال : وكتب عمر إلى أبى موسى رضى اللّه عنهما : أما بعد ،فتفقهوا فى السنة وتعلموا العربية ، أما الأول فرواه أبو بكر بن أبى شيبة ، عن عبد اللّه بن إدريس ، عن نافع ، عن ابن عمر ، إسناد جيد . وروى الثانى عن عيسى بن يونس ، عن ثور ، عن يحيى بن سعيد قال : كتب عمر ، فذكره ، وهو منقطع (٣) .

وروى ابن أبى شيبة عن عمر أنه قال: تعلموا العربية فإنها تثبت العقل، وتزيد فى المروءة. وإسناده ضعيف(٤) .

قال ابن عبد البر : وقال شعبة : مثل الذى يتعلمُ الحديثَ ولا يتعلمُ النحو مثل البرنس لا رأسَ له .

وقال عبد الملك : اللحن فى الكلام أقبح من آثار الجُدرى فى الوجه .

وقال ابن شبرمة : إذا سرَّكَ أنْ تَعْظُمَ فى عين مَنْ كنتَ فى عينه صغيراً ، أو يصغر فى عينك مَنْ كان فيها كبيراً ، فتعلم العربية ، فإنها تُجَرِّئكَ على المنطق وتُدنيكَ من السلطان ، قال الشاعر :

اللَّحْنُ يُصْلحُ من لسانِ الأَلْكَنِ ... والمرءُ تُعْظمُهُ إذا لم يَلْحَنِ
لحنُ الشريف مَحَطَّةٌ من قَدْرِه ... فتراه يسقطُ من لحاظ الأعين
وتري الدنيَّ إذا تكلم معرباً ... حاز النهاية باللسان المعلن
وإذا طلبتَ من العلوم أجَلَّهَا ... فأجَلُّهَا منها مُقِيمُ الألسنِ

(١) سبق تخريجه .
(٢، ٣) ابن أبى شيبة فى مصنفه فى فضائل القرآن ، ب ما جاء فى إعراب القرآن ١٠/٤٥٧ .
(٤) البيهقى فى الشعب ٢/٢٥٧ (١٦٧٦) ، والكنز ٣/٨٨٧ (٩٠٣٠٧) ، وبنحوه فى ابن أبى شيبة ١٠/٤٥٩ (٩٩٦٣) .

وذكر ابن عبد البر فى مكان آخر: أن قائل هذا لو كان مهتديا لقال: فأَجَلُّها [منها] (١) مقيم الأدين .

وما قاله حق . قال : وقالوا : العربيةُ تزيد فى المروءة ، وقالوا : مَنْ أحَبَّ أن يجد فى نفسه الكبر ، فليتعلم النحو ،كذا قال .

وقال أبو جعفر النحاس (٢) : ويروى أن المأمون كان يتفقد ما يكتب به الكتاب فَيُسْقِطُ مَنْ لحن ويحطُّ مقدارَ مَنْ أتى بما غيرُه أجودُ منه فى العربية ، فكان الكتابُ يثابرون على النحو لما كان الرؤساء يتفقدون هذا منهم ، ويُقَرِّبون العلماء كما قال الفضل بن محمد : جاءنى رسول الرشيد فنهضت ودخلت وسلمت عليه ، فأومأ بيده ومحمد عن يمينه والمأمون عن يساره والكسائي بين يديه يطارحهم معانى القرآن والشعر،فقال لى الرشيد:كم اسم فى ﴿ **فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [البقرة : ١٣٧] ، فقلت : ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين . اسم اللّه عز وجل ، والكاف الثانية اسم النبى ﷺ والهاء مع الميم اسم الكفار ، قال الرشيد : كذا قال الرجل ، وأومأ بيده إلى الكسائى ، ثم التفت إلى محمد فقال: أفهمتَ ؟ قال : نعم ، قال : فارده على إنْ كنتَ صادقاً ، فرده على ما لفظت به ، فقال : أحسنتَ أمتعَ اللّهُ بك . ثم أقبل علىَّ فقال: من يقول :

نُفَلِّقُ هاماً لم تَنَلْهُ أَكُفُّنَا ... بأسيافنا هامَ الملوكِ القَماقِمِ ؟

فقلت : الفرزدق (٣) يا أمير المؤمنين ، قال : كيف يفلقُ هاماً لم تَنَلْهُ كَفُّه ؟ قلتُ : على التقديم والتأخير ، كأنه قال : نفلق بأسيافنا من الملوك القماقم هاماً لم تنله أكفنا على التعجب والاستفهام ، فقال : أصبت ، ثم أقبل على الكسائى فحادثه ساعة ، ثم التفت إلىَّ ، فقال : أعندكَ مسألة ؟ قلتُ : نعم لصاحب هذا البيت ، قال : هات ، فقلت :

أخذنا بآفاقِ السماء عليكم ... لنا قمراها والنُّجومُ الطَّوالعُ

قال الرشيد : قد أفادنا هذا الشيخ فى هذه المسألة ؟ قالا : نعم ، علمنا على بن حمزة أن القمرين هاهنا الشمس والقمر ، كما قالوا : سيرة العمرين ، يريدون أبا بكر وعمر ، كما قيل:

---

(١) ساقطة من المخطوطة ، وهى فى أ ، ر ، ط .

(٢) هو العلامة إمام العربية ، أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن إسماعيل البصرى النحوى صاحب التصانيف ، حدث عن محمد بن جعفر بن أعين ، وبكر بن سهيل الدمياطى، والزجاج وغيرهم ، روى عنه ، أبو بكر محمد بن على الأدفوى، وأبو سعيد بن يونس، ومن كتبه: إعراب القرآن، تفسير أبيات سيبويه ، والكافى فى النحو ،وكان من أذكياء العالم ، مات فى ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة . [سير أعلام النبلاء ١٥/٤٠١ ، ٤٠٢] .

(٣) هو شاعر عصره، أبو فراس، همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية التميمى البصرى،روى عن أبى هريرة، والحسين ، وابن عمر ، وغيرهم ، وروى عنه : الكميت ، ومروان الأصغر ، وخالد الحذاء وغيرهم ، بلغ نظمه الذروة، وكان أشعر أهل زمانه مع جرير والأخطل، مات سنة عشر ومائة. [سير أعلام النبلاء ٤/٢٢٦] .

ما اطَّردَ الأسودان ، يريدون الليلَ والنهار . قلت : أزيدُ يا أميرَ المؤمنين فى السؤال ؟ قال: زِدْ، قلت : فَلِمَ استحسنوا هذا ؟ قال : لما اجتمع شيئان من جنس واحد ، فكان أحدهما أشهر من الآخر غلبَ الأشهر ؛ لأن القمر أشهر عند العرب لأُنْسه وكثرةِ بروزهم فيه ومشاهدتهم إياه دون الشمس فى أكثر الأوقات . وتلك القصة فى قولهم : العمران لطولِ خلافةِ عمر وكثرة الفتوح فيها ، وكذلك الليل ، لأنهم فيه أفزع ، وسمرهم فيه أكثر . قلت : أفيه يا أميرَ المؤمنين غير هذا ؟ قال : ما أعلمه ، ثم التفتَ إلى الكسائى فقال : أتعرفُ فى هذا غير ما قلنا مما أفدتناه ؟ قال : لا يا أميرَ المؤمنين وهو وفاء المعنى ، فأمسك عنى قليلاً ، ثم قال: أتعرف فيه أنت أكثر من هذا ؟ قلتُ : نعم يا أميرَ المؤمنين ، بقيت الغاية التى افتخرَ بها قائلُ هذا الشعر ، قال : فقل : قلت : الشمسُ أراد بها إبراهيم الخليل ، والقمر ابن عمك محمدًا ﷺ ، والنجوم أنتَ والخلفاء من آبائك ومَنْ يكونُ من ولدكَ إلى يومِ القيامة : قال : فتهلَّلَ وجهه وقال : حَسَنٌ واللّه ، والعلمُ كثير لا يُحاطُ به ، ولعل هذا الشيخ لم يسمع هذا فيفيدناه، وإنَّ هذا لعمرى لأبلغ إلى غاية الفخر ، ثم رفع رأسه إلى الفضل بن الربيع فقال : تحمل إلى منزل الشيخ عشرة آلاف درهم ، فتقدم بها من ساعته .

قال أبو جعفر النَّحَّاس وغيره : وممن امتنع من النحوين من ملازمة السلطان إجلالاً للعلم وغِنى نفس، الخليلُ بن أحمد (١) وبكر بن محمد المازنى (٢) وقال بعضُ العلماء : كان الخليلُ من الزُّهَّادِ المنقطعين إلى العلم ، ومن خيار عبادِ اللّه المتقشفين فى العبادة ، أرسلَ إليه سليمانُ ابن حبيب المهلبى لما ولى فنثر بين يدى رسوله كثيرًا وامتنع أن يأتيه وكتب إليه :

أبلغْ سليمانَ أنى عنه فى سَعَةٍ ... وفى غنىً غير أنى لستُ ذا مالِ
شحاً بنفسىَ أنِّى لا أرى أحداً ... يموتُ هَزْلاً ولا يبقى على حالِ
والرزق عن قَدَرٍ لا الضَّعْفُ يَنْقُصُهُ ... ولا يَزيدَنَّ فيه حولُ محتالِ
والرزق يغشى أناساً لا طَبَاخَ لهم ... كالسَّيلِ يغشى أصول الدَّيدن البالى
كُلُّ امرئ بسبيلِ الموت مُرْتَهَنٌ ... فاعملْ لبالك إنى شاغلٌ بالى
والفقر فى النفسِ لا فى المال نعرفهُ ... ومثل ذاك الغنى فى النفسِ لا المالِ

---

(١) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدى الأزدى اليحمدى ، من أئمة اللغة والأدب ، وواضع علم العروض ، وأستاذ سيبويه ، ولد سنة مائة بالبصرة عاش فقيراً صابراً ، له كتاب العين فى اللغة ، ومعانى الحروف ، وكتاب العروض وغيرها من المصنفات ، وقد أبدع بدائع لم يسبق إليها ، وهى تأليفه كتاب العين ، مات سنة سبعين ومائة . [الأعلام ٢/ ٣١٤] .

(٢) هو بكر بن محمد بن حبيب بن بقية ، أبو عثمان المازنى ، أحد الأئمة فى النحو من أهل البصرة ، له تصانيف ، منها كتاب : ما تلحن فيه العامة ، والألف واللام ، والتصريف ، مات سنة تسع وأربعين ومائتين . [الأعلام ٢/ ٦٩] .

وأما المازنى فأشخصه الواثق إلى سُرَّ مَن رأى [1] لأن جارية غنت وراء ستارة :

أظليـم إنَّ مُصَابَكُـمْ رَجُـلاً أهـدى السَّـلامَ تَحيَّـةً ظُلْـمُ

فقال لهـا الـواثق : رجـلٌ ، فقـالت : لا أقول إلا كما عُلِّمْتُ ، فقال للفتح : كيف هو يا فتح ؟ فقال: هو خبرُ « إنَّ » كما قلت، فقالت الجارية : عَلَّمَنى أعْلَمُ الناس بالعربية المازنى؛ فأمر بإشخاصه فأُشخصَ . قال أحمد بن يحيى : فلقينى يعقوب بن السِّكِّيت [2] ، فسألنى ، فأجبته بالنصب فقال : فأين خبر إن ؟ قلت : « ظلم » . ثم أتى المازنى ، فأجابه بمقالة الجارية، قال المازنى : قلتُ لابنِ قادم ولابن سعدان لما كابرانى : كيف تقول : نفقتك ديناراً أصلحُ من درهم ؟ فقال : ديناراً ، قلت : كيف تقول : ضربك زيداً خير لك ؟ فنصب ، قلت : فَرِّقْ بينهما فانقطع ، وكان ذلك عند الواثق . وحضَر ابن السِّكِّيت فقال لى الواثق : هاتِ مسألةً فقلت ليعقوب : ﴿ **فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ**﴾ [يوسف : ٦٣] ما وزنه من الفعل ؟ قال : نفعل . قال الواثق : غلطت ، ثم قال لى : فسره ، فقلت : نَكْتَل ، تقديره نفتعل نكتيل ، فانقلبت الياء ألفاً لفتحة ما قبلها فصار لفظها نكتال فأُسكنت اللامُ للجزمِ لأنه جوابُ الأمرِ وحُذفت الألفُ لالتقاء الساكنين ، فقال : هذا هو الجواب ، فلما خرجنا عاتبنى يعقوب، فقلتُ : واللّهِ ما قصدتُ تخطئتك ، ولكن كانت فى نفسى هينة الجواب ، ولم أظن أنها تعزب عليك .

قال : وحضر يوماً آخر واجتمع جماعة نحويى الكوفة ، فقال لى الواثق : يا مازنى ، هاتِ مسألةً ، فقلت: ما تقولون فى قول اللّه تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا** ﴾ [مريم : ٢٨]. ولم يقل : بغيةً وهى صفة لمؤنث ، فأجابوا بجوابات ليست مرضية ، فقال لى الواثق : هاتِ الجواب ، فقلت : لو كانت بغى على تقدير فعيل بمعنى فاعلة لَحقَتْهَا الهاءُ إذاً لكانت مفعولة بمعنى : امرأة قتيل وكفٌّ خَضيب ، وتقدير بَغِى هاهنا ليس بفعيل إنما هو فعول ، وفعول لا تلحقه الهاء فى وصف التأنيث نحو : امرأة سَكُونٌ وبئر شَطُونٌ إذا كانت بعيدة الرشاء، وتقدير بغى بغوى : قلبت الواو ياء ، ثم أُدغمت الياءُ فى الياء نحو سيد وميت فاستحسن الجواب ثم استأذنته فى الخروج فقال : إلا أقمتَ عندنا : فقلت : يا أمير المؤمنين ،

---

(١) فى المخطوطة : « سرمرى » ، والمثبت من ر ، ط .

(٢) هو شيخ العربية أبو يوسف ، يعقوب بن إسحاق بن السِّكِّيت البغدادىّ النحوى المؤدب مؤلف كتاب : إصلاح المنطق ، حجة فى العربية ، أخذ عن أبى عمرو الشيبانى ، وطائفة ، روى عنه أبو عكرمة الضبى، وأحمد بن فرح المفسر ، وجماعة . برع فى النحو واللغة ، وله من التصانيف نحو من عشرين كتابا ، وكان إليه المنتهى فى اللغة ، وله شعر جيد ، مات سنة أربع وأربعين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٦/١٢ ــ ١٩].

إنَّ لى بُنَيَّةً أُشفق أغيبُ عنها ، قال : كأَنِّى بها قد قالت ما قالت ابنة الأعشى للأعشى [1] :

أرانا إذا أَضْمَرَتْكَ البلادُ نُجْفَى وتُقْطَعُ منا الرَّحِمْ

وقلت أنت :

تقول بنتى وقد قَرَّبْتُ مُرتحلاً يا رب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليكِ مثلُ الذى صليت فاغتمضى يوماً فإن بجَنْب المرء مُضْطَجَعا

فواللّه ما أخطأ ما فى نفسى ، فأمر لى بجائزة ، وأذن لى فى الانصراف .

قال أبو جعفر النحاس : وفَرَّ أبو عمرو بن العلاء [2] من الحجاج ؛ قال : فبينما أنا أسير إذ سمعت رجلاً ينشد :

ربما تجزعُ النفوسُ من الأمـ ـر له فَرجةٌ كَحَلِّ العِقَال

قد مات الحجاجُ ، فلم أدرِ بأيِّهما كنتُ أشَدَّ فرحاً ؟ أبموتِ الحجاج أو قوله : فرجة ؟

قال أبو جعفر : وعبيد اللّه بن إسحاق أحد القراء والنحويين كان ممتنعَ الجانبِ قليلَ الغشيان للسلطان حتى ذكره الفرزدق وغيره بالكبْر وهجاه . قال أبو جعفر : ومن النحويين من سارع إلى السلاطين ولم يحمد العاقبة ، منهم سيبويه وابن السكيت ، كما حدثنا على بن سليمان ، حدثنا أحمد بن يحيى ومحمد بن يزيد قالا : لما ورد سيبويه إلى العراق شَقَّ أمرهُ على الكسائى [3] ، فأتى جعفرَ بن يحيى والفضل بن يحيى ، فقال : أنا وليكما وصاحبكما وهذا الرجلُ قد قَدِمَ ليذهبَ مَحَلِّى، قالا: فاحْتَل لنفسك فسنجمع بينكما ، فَجُمِعَا عند البرامكة وحضر سيبويه وحده ، وحضر الكسائى ومعه الفَرَّاء[4] وعلى الأحمر وغيرهما من أصحابِه ،

---

(١) هو عامر بن الحارث بن رباح الباهلى من همدان ، شاعر جاهلى ، يكنى أبا قحفان ، أشهر شعره رائية له، فى رثاء أخيه لأمه ، أوردها البغدادى برمتها وقيل : اسمه عمر . [الأعلام ٣/ ٢٥٠] .

(٢) هو زبان بن عمار التميمى المازنى البصرى أبو عمرو ، ويلقب أبوه بالعلاء : من أئمة اللغة والأدب ، وأحد القراء السبعة ، ولد بمكة سنة سبعين ، كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر ، له أخبار وكلمات مأثورة توفى بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة . [الأعلام ٣/ ٤١] .

(٣) هو على بن حمزة بن عبد الله الأسدى ، الكوفى ، أبو الحسن الكسائى ، إمام اللغة والنحو والقراءة ، من أهل الكوفة ، قرأ النحو بعد الكبر ، أخباره مع علماء الأدب فى عصره كثيرة ، له تصانيف منها : معانى القرآن، والمصادر ، والحروف ، والقراءات ، والنوادر وغيرها ، مات سنة تسع وثمانين ومائة . [الأعلام ٤/ ٢٨٣] .

(٤) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمى ، مولى بنى أسد ، المعروف بالفراء ، إمام الكوفيين ، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، وكان يقال : الفراء أمير المؤمنين فى النحو ، ويقال : لولا الفراء ما كانت اللغة ، ولد بالكوفة سنة أربع وأربعين ومائة ، كان فقيها متكلماً عالماً بأيام العرب وأخبارها له تصانيف كثيرة ، مات سنة سبع ومائتين . [الأعلام ٨/ ١٤٥ ، ١٤٦] .

فسألوه كيف تقولُ : كنتُ أظن أنَّ العقربَ أشَدُّ لسعةً من الزنبور فإذا هو هىَ ، أو هو إيَّاها ؟ فقال : أقول : فإذا هو هىَ ، فقال له : أخطأتَ ولحنتَ ، فقال يحيى : هذا موضعٌ مشكل فَمَنْ يحكمُ بينكم ؟ قالوا : هؤلاء الأعراب بالباب ، فأدخل أبو الجراح وجماعة معه فسئلوا ، فقالوا : نقولُ : فإذا هو إياها فانصرمَ المجلسُ على أنَّ سيبويه قد أخطأ ، وحكم عليه ، فأعطاه البرامكة وأخذَ له من الرشيد وبُعِثَ به إلى بلده ، فيقال : إنه ما لبثَ إلا يسيراً ثم مات كمداً.

وقال علىّ بن سليمان : وأصحاب سيبويه إلى هذه الغاية لا اختلافَ بينهم أنَّ الجوابَ على ما قال سيبويه وهو : فإذا هو هىَ ، وهذا موضع الرفع .

قال أبو جعفر : وأما ابنُ السكيت ، فحدّثنى محمدُ بن الحسين بن أبى الحسن ، حدثنى عبد اللّه بن عبد العزيز النحوى (١) قال : قال لى يعقوب بن السكيت: أريدُ أشاورك فى شىء، قلتُ : قُلْ ، قال : إنَّ المتوكل قد أدنانى وقَرَّبنى ونَدَبنى إلى منادمته ، فما ترى ؟ قلتُ لا تفعل، وكرهت له النهاية ، فدافع به يعقوب ، ثم تطلعت نفسه إليه فشاورنى ، فقلت: يا أخى أُحَذِّرُكَ على نفسك فإنه سلطانٌ وأكرهُ أنْ تَزِلَّ بشىء ، فحمله حُبُّ ذلك على أنْ خالفنى فقتله فى أول مرة لشىء جرى بينه وبينه فى أمرِ الحسنِ والحسين عليهما السلام وكان أوَّلُه مزاحاً، وكان ابنُ السكيت يَتَشَيَّع فقتله .

قال أبو جعفر : ومن النحويين من قرب من السلاطين فحظى عندهم ، منهم على بن حمزة ، قال يونس بن حبيب : أقام الكسائى بالبصرة عشرين سنة ثم رحل إلى الكوفة ، فأخذ عن أعراب ليسوا بفصحاء ، فأفسد الحق بالباطل فقد صار النحو كله من البصرة ؛ لأن الكسائى منهم ، تعلم ثم قرأ على الأخفش كتاب سيبويه ، ويحكى أنه دفع إليه مائتى دينار ، قال أبو جعفر: وليس أحدٌ من الرؤساء المتقدمين فى النحو إلا بصرىٌّ حتى إنهم حججٌ فى اللغة يُؤْخَذُ عنهم لفصاحتهم وكانوا لا يأخذون إلا عن الفُصحاء من الأعرابِ، ولهم السَّبْقُ والتقدم ، منهم أبو الأسود وأبو عمرو .

وسمعت علىَّ بن سليمان يقول : ساءنى أنَّ خلفاً البَزَّار على جلالته ومحله ترك الكسائى وهو أستاذه ، فلم يروِ عنه حرفاً واحداً مع حاجته إليه فى تصنيفه كتاب « القراءات » ، قال أبو جعفر : ثم عَرَّفنى غير أبى الحسن أنه إنما ترك الروايةَ عنه ؛ لأنه سمعه يقول : قال لى سيدى الرشيد فتركه ، وقال : إنَّ إنساناً مقدار الدنيا عنده أن يجعل من أجلها هذا الإجلالَ لَحَرِىٌّ ألا يُؤخذَ عنه شىءٌ من العلم .

قال أبو جعفر : وقد كان الأصمعى متصلاً بالرشيد وكان يقدمه ويتكلم فى مجلسه ، وقد

---

(١) هو عبد الله بن عبد العزيز ، أبو موسى البغدادى ، أديب نحوى ضرير ، من أهل بغداد كان يؤدب ولد المهتدى بالله العباسى ، وأملى كتبا صغيرة ، منها الكتاب وصفة الدواة والقلم وتصريفهما ، وسكن مصر وحدث بها ، مات سنه خمسين ومائتين . [الأعلام ٤/٩٨] .

ذكر أبو جعفر عن القاسم بن مخيمرة أنه قال : النحو أوله شغل ، وآخره بغى ، ورد أبو جعفر على ذلك وسبق فى فصول السلام الكلام فى الكتابة ، ويأتى بعد نصف كراسة أيضاً .

وذكر أبو جعفر فى (باب الاصطلاح المُحْدَث الذى استعماله خطأ) قال : واستعملوا يفعل ذلك بغير لام الأمر ، وهذا من الخطأ القبيح الذى ينقلب معه المعنى فيصير خبراً والمراد الأمر ، وإنْ جزم أيضاً فخطأ ؛ لأن الأمر لا يكون بغير لام إلا فى شذوذ واضطرار ، على أنه حكى عن على بن سليمان أنه لا يجوز عنده ولا عند أصحابه حذف اللام من الأمر للغائب ؛ لأن الحروف لا تضمر ؛ ولأن عوامل الأفعال أضعف من عوامل الأسماء ، وأن ما أنشد فيه من الشعر ليس بحجة ؛ لأنه لا يعرف قائله وهو :

محمدُ تَفْدِ نفسَكَ كلُّ نفسٍ

كذا قال . وقد قال تعالى : ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ**﴾ [التوبة : ٦٤] .

قيل : هو خبر من اللّه على حالهم ، وقال الزجاج [(١)]: إنه أمر من اللّه لهم بالحذر ، فتقديره : ليحذر المنافقون ، قال ابن الأنبارى : والعرب ربما أخرجت الأمر على لفظ الخبر فيقولون : يرحم اللّه المؤمن ويعذب الكافر ، يريدون : ليرحم وليعذب ، فيسقطون اللام ويجرونه مجرى الخبرِ فى الرفعِ وهم لا ينوون إلا الدُّعاءَ ، والدعاء مضارع للأمر . وأما الجزمُ بلام الأمر مقدرة فيجوز كثيراً مطرداً بعد أمر كقوله تعالى : ﴿ **قُل لِّعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ [إبراهيم : ٣١] .

والأشهر أنه جوابُ قُلْ ، والتقدير قُلْ لهم : أقيموا الصلاة يقيموا ، أى : إنْ تَقُلْ لهم يقيموا . ورَدَّهُ قوم بأن قول النبى ﷺ لهم لا يوجب أن يقيموا ، واختار ابن مالك هذا الردَّ ولم يَرَهُ أبو البقاء ؛ لأنه لم يرد بالعباد الكفار بل المؤمنين يدل عليه ﴿ **قُل لِّعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ وإذا أمرهم الرسولُ أقاموا ، وقيل : يقيموا جواب أقيموا المحذوفة : أى إن يُقيموا يقيموا ، ورُدَّ بوجوبِ مخالفةِ جوابِ الشرط له فى الفعلِ والفاعلِ أو فيهما ، فلا يجوز : قم تقم ، وبأن المقدر للمواجهة ويقيموا على لفظ الغيبة وهو خطأ إذا كان الفاعل واحداً . ويجوز الجزم بلام الأمر مقدرة قليلاً بعد قول بلا أمر ذكره ابن مالك ، ولا يجوز الجزم بها بلا أمر ولا قولٍ ولا ضرورة ، واللّه أعلم . وإنما ذكرت ذلك لكثرة كتابة « يعتمد ذلك » ونحوها ، وكثرة من لا يعرف إلا إنكاره فينكره ، ويوافقه عليه مَنْ لا يعلم ، واللّه أعلم .

---

(١) هو إبراهيم بن السرىّ بن سهل ، أبو إسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، مال إلى النحو فعلمه المبرد ولد سنة إحدى وأربعين ومائتين ، كانت له مناقشات مع ثعلب وغيره ، له مصنفات كثيرة ، مثل الاشتقاق والأمالى، وفعلت وأفعلت ، وغيرهم . توفى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . [الأعلام ١/ ٤٠] .

فصل فى إصلاح اللحن العارض لمتن الحديث

ومتى يجوز التحديث ومن يقدم ؟

قال إسحاق بن إبراهيم : سمعتُ ابنَ زَنجويه يسأل أبا عبد اللّه : يجيءُ الحديث فيه اللحنُ وشيء فاحشٌ فترى أنْ يُغَيَّرَ ، أو يُحَدَّثَ به كما سمع ؟ قال : تغيره شديد، إنَّ النبىﷺ وأصحابه لم يكونوا يلحنون ، وإنما يجيء اللحنُ ممن هو دونهم .

وقال ابنُ الجوزى : وينبغى لصاحبِ الحديثِ أنْ يُصلحَ اللحن فى كتابه ، وذكر ذلك عن جماعة ، وكان أحمد يفعله ، قال : ويصلح الغلطَ الذى لا يشكُّ فيه ، وذكره عن جماعة .

والأولى ألا يحدث حتى يتم له أربعون سنة إلا أنْ يحتاج إليه ، فقد حَدَّثَ بندار وله ثلاث عشرة سنة ، وحَدَّثَ البخارى وما فى وجههِ شعرةٌ .

ويُكره أنْ يُحَدِّثَ بحضرةِ مَنْ هو أسَنُّ منه أو أعلم ، فقد كان الشعبىُّ إذا حضر مع إبراهيم لم يتكلم إبراهيم ، وقال سفيان الثورى لسفيان بن عيينة : مالك لا تحدث ؟ قال : أما وأنت حىٌّ فلا .

وقال سمرة بن جندب : لقد كنتُ على عهد رسول الله ﷺ غلاماً فكنت أحفظُ عنه ، فما يمنعنى من القولِ إلا أنَّ هاهنا رجالاً هم أسنُّ منى (١)، متفق عليه .

قال ابن هبيرة : فيه أنه يتعين على الحدَثِ أنْ يُوقِّرَ الشيوخَ ، وأنه إذا رأى عندهم ما عنده لم يزاحمهم بالرواية له ، فإنه يعرض أن يعيش بعدهم ، فيروى فى حالة عدمهم فيكون ذلك فى موقعه ، وإنْ مات قبلَهم لم تكن تُغْنى روايته لما يعرفه الشيوخ طائلاً ، واللّه أعلم . وسبق هذا المعنى بنحو كراسين فى فصل ، قال ابن عباس : إذا ترك العالم « لا أدرى » .

وقد ظهر من ذلك أنه يرد على القارئ الغلط والخطأ كما عليه عادةُ العلماء .

وقد قال ابن طاهر المقدسى الحافظ : سمعتُ أبا إسحاق الحبال (٢) بمصر يقول : لم يكن فى الدنيا مثلُ أبى القاسم سعد بن على الزنجانى فى الفضل ، وكان يحضرُ معنا المجالسَ ويُقْرأُ الخطأُ بين يديه ، فلا يردُّ على أحدٍ شيئا ولو قرئ بين يديه الكفر إلا أن يُسأل ، فإذا سئلَ عن

---

(١) البخارى فى الحيض ، ب الصلاة على النفساء وسنتها (٣٣٢) ،ومسلم فى الجنائز ، ب أين يقوم الإمام من الميت للصلاة عليه (٩٦٤/ ٨٨) ،واللفظ لمسلم .

(٢) هو الإمام الحافظ المتقن العالم أبو إسحاق ، إبراهيم بن سعيد بن عبد الله النعمانى مولاهم ، المصرى ، الكتبى ، الوراق ، الحبال الفراء ، ولد سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة ، سمع من أحمد بن عبد العزيز بن ثرثال ، ومحمد بن أحمد بن شاكر القطان وغيرهما ، وحدث عنه أبو عبد الله الحميدى ، وإبراهيم بن الحسن العلوى النقيب ، وغيرهما ، كان ثقة ثبتا ورعاً خيراً ، مات سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة . [سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٩٥ ــ ٥٠٣] .

شيء أجاب ، وأرى اليوم بعض الصبيان يتبعون الأغلاط ، ويبادرون بالرد على المقرئ ولا يحسنون الأدب . ومرادُ أبى إسحاق ــ واللّه أعلم ــ أنَّ أبا القاسم لا يبادر بالرد ولَعَلَّهُ يكتفى بغيره ، ولهذا قال : ولو قُرئ بين يديه الكفر ، ومعلومٌ أنَّ مثلَ هذا لا يحلُّ عَدَمُ بيانِه والسكوت عنه .

قال ابن طاهر : سمعت الفقيه أبا محمد هياج بن عبيد إمام الحرم ومفتيه يقول : يوم لا أرى فيه سعد بن على الزنجانى [1] لا أعتدُّ أنى عملتُ خيراً . قال ابن طاهر وكان هياج يعتمر كل يوم ثلاث عمر ، ويواصل الصوم ثلاثة أيام ، ويُدَرِّسُ عدة دروس ومع هذا كله كان يعتقد أن نظره إلى الشيخ سعد والجلوس بين يديه أجَلُّ من سائر عمله .

قال ابن طاهر : سمعت أبا عبد اللّه محمد بن أحمد الكرخى يقول : لما عزم الشيخ سعد على الإقامة بالحرم والمجاورة به ،عزم على نفسه نيفاً وعشرين أنه يلزم نفسه من المجاهدات والعبادات ،ومات بعد ذلك بأربعين سنة ولم يخل منها عزيمة واحدة رحمه اللّه .

فصل فى مكانة حُفَّاظِ الحديث وإقبال الألوف على مجالسهم وحسد الخلفاء لهم

قال جعفر بن درستويه : كنا نأخذُ المجلسَ فى مجلس على بن المدينى وقت العصر اليوم، لمجلس غد ، فنقعد طولَ الليل مخافةَ ألا نلحق من الغد موضعاً نسمعُ فيه ، فرأيتُ شيخاً فى المجلس يبوِّلُ فى طيلسانه ويدرج الطيلسان [2] مخافة أنْ يُؤخذَ مكانُه إنْ قام للبول .

وذكر غير واحد أنه كان مجلس يزيد بن هارون يُحزر بسبعين ألفاً . وأمر المعتصم بحزر مجلس عاصم بن علىٍ فحزروا المجلس عشرين ألفاً ومائة ألف . وأملى البخارى ببغداد فاجتمع له عشرون ألفاً .

وقال أبو الفضل الزهرى : كان فى مجلس جعفر الفريابى من أصحاب الحديث مَنْ يكتب حدود عشرة آلاف ، ما بقى منهم غيرى سوى من لا يكتب .

وأملى أبو مسلم الكجى فى رحبة غسان ، فكان فى مجلسه سبعةُ مُسْتَملينَ يُبَلِّغُ كل واحد

---

(١) هو الإمام ، العلامة ، الحافظ ، القدوة ، العابد ، شيخ الحرم ، أبو القاسم ، سعد بن على بن محمد بن على بن الحسين الزنجانى الصوفى ، ولد سنة ثمانين وثلاثمائة ، سمع من عبد الله بن نظيف ، والحسين ابن ميمون الصدفى وغيرهما ، وحدث عنه أبو بكر الخطيب ،وهبة الله بن فاخر وغيرهما ، كان حافظا متقنا ثقة ورعاً كثير العبادة ، توفى فى أول سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، وله تسعون عاما . [سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٨٥ ــ ٣٨٩] .

(٢) الطيلسان : ضرب من الأكسية ، مُعَرَّبُ « تالسان ». انظر : مقاييس اللغة ، مادة « طلس » .

منهم صاحبه الذى يليه ، وكتب الناس عنه قياماً بأيديهم المحابر ، ثم مُسِحَتِ الرحبةُ وحُسِبَ مَنْ حضر بمحبرة فبلغ ذلك نيفاً وأربعين ألف محبرة سوى العطارة .

قال ابن الجوزى : قد كانت الهمم فى طلب العلم كما قد ذكرنا ، ثم ما زالت تقل الرغبات حتى اضمحلت ، فحكى شيخنا أبو جعفر عمر بن ظفر المغازلى قال : كنا فى حلقة ابن يوسف نسمع الحديث ، فطلبنا محبرة نكتب بها السماع فما وجدنا قال : وقد كان الخلفاء والكبراء يغبطون المحدثين على هذه المرتبة . ثم روى بإسناده عن محمد بن سلام الجمحى أنه قال : قيل للمنصور : هل بقى من لذاتِ الدنيا شىءٌ لم تنله ؟ قال : بقيت خصلةٌ : أنْ أقعد فى مصطبة وحولى أصحابُ الحديث ، فيقول المستملى : من ذكرت رحمك اللّه ، قال : فغدا عليه الندماء وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر ، فقال : لستم بهم ، إنما هم الدَّنسةُ ثيابهم ، المتشققةُ أرجُلهم ، الطويلةُ شعورهم ، بُرُدُ الآفاق ، ونَقَلَةَ الحديث .

وقال يحيى بن أكثم : قال لى الرشيد : ما أنبل المراتب ؟ قلتُ : ما أنتَ فيه يا أمير المؤمنين ، قال : فتعرفُ أجَلَّ منى ؟ قلت : لا . قال : لكنى أعرفه ، رجلٌ فى حلقة يقول : حدثنا فلان عن فلان ، قال : قال رسول اللّه ﷺ ، قلتُ : يا أمير المومنين : هذا خيرٌ منك وأنتَ ابن عم رسول الله ﷺ وولى عهد المسلمين ؟! قال : نعم ، ويلك هذا خيرٌ منى ، لأنَّ اسمه مقترنٌ باسم رسول اللّه ﷺ لا يموت أبداً ، ونحن نموت ونفنى ، والعلماء باقون ما بقى الدهر .

وقال المأمون : ما طلبتْ منى نفسى شيئاً إلا وقد نالته ما خلا هذا الحديثَ ، فإنى كنتُ أحب أنْ أقعد على كرسى، ويقال لى : مَنْ حدثك ؟ فأقول : حدثنى فلان ، قيل له : يا أمير المؤمنين ، فلم لا تحدث ؟ قال : لا يصلحُ المُلْكُ والخلافة مع الحديث .

وقال يحيى بن أكثم : وليتُ القضاء وقضاء القضاء والوزارة وكذا وكذا ، ما سررتُ لشىءٍ كسرورى بقول المستملى : مَنْ ذكرتَ رضى اللّه عنك ؟!

فصل فى تقديم النية الصالحة والإخلاص قبل القول والعمل

تَقَدَّمَ الكلامُ فى النية للعلم والحذرِ من الرياء ، وقال فى « صيد الخاطر » : يا قوم ، قد علمتم أنَّ الأعمالَ بالنيات ، وقد فهمتم قوله تعالى : ﴿**أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ [الزمر : ٣] وقد سمعتم عن السَّلَفِ أنهم كانوا لا يعملون ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح ، أيذهبُ زمانكم يا فقهاء فى الجدل والصياح ، وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة ، ثم يُقْدِم أحدُكم على الفتوى وليس من أهلها ، وقد كان السلف يتدافعونها !

ويا معشر المتزهدين ، إنه يعلمُ السر وما يخفى ، أَتُظْهِرونَ الفقر فى لباسكم وأنتم تشتهون

شهوات ، وتُظهرون التخشُّعَ والبكاء فى الجلوات دون الخلوات ، كان ابنُ سيرينَ يضحكُ ويقهقه فإذا خلا بكى فأكثر . وقال سفيان لصاحبه : ما أوقحكَ تُصلِّى والناسُ يرونَكَ ؟!

أفدى ظبـاء فـلاة مـا عـرفـن بهـا مَضْغَ الكلام ولا صبغَ الحواجيبِ

آه للمرائى من يوم يحصّلُ ما فى الصدور ، وهى النيات والعقائد ؛ فالجزاء عليهما لا على الظواهر ، فأفيقوا من سكرتكم ، وتوبوا من زَلَّتكم ، واستقيموا على الجادة . ﴿**أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ**﴾ [الزمر : ٥٦] .

فصل فى جَرْح رواة الحديث لبيان الحقيقة ومعرفة الصحيح من غيره

سأل رجل أبا عبد اللّه عن أبى البَختَرى فقال : كان كذاباً يضعُ الحديثَ ، فقال الرجل: أنا ابن عمه لَحا ! قال أبو عبد اللّه : اللّه المستعان ولكنْ ليس فى الدين محاباة .

وقال مهنا: سألت ابن معين عن الواقدى، قال : أنت تعرفه ، وأحب أنْ تعفينى ، قلت: لِمَ ؟ قال : إنَّ ابنه أخٌ لى ، قلتُ : فدعه .

وسأل أحمد رجلاً عن موتِ ابنِ المبارك فقال : ما تصنع بهذا يا أبا عبد اللّه ؟ قال : نعرف به الكذابين .

وقال يحيى بن سعيد : سألتُ شُعبةَ ، وسفيان بن سعيد ، وسفيان بن عيينة ، ومالك بن أنس عن الرجل يُحَدِّثُ بالحديث يُخطئ فيه أو يكذب فيه فقالوا جميعاً : بَيِّنْ أمْرَهُ .

قال أحمد فى رواية مهنا : هو كما قالوا ، فقلتُ له : أما تخافُ أنْ يكون هذا من الفاحشة ؟ قال : لا ، هذا دِينٌ . ونقل غيره عن أحمد أنه سأله عن معنى الغيبة فقال : إذا لم ترد عَيْبَ الرجل ، قلت : قد جاء يقول : فلان لم يسمع ، وفلان يخطئ ؟ قال : لو تُرِكَ هذا لم يُعْرَفِ الصحيحُ من غيره .

وقال شعبة : وقيل له تُمسك عن أبان بن أبى عياش ؟ فقال : ما أرى يَسَعُنى السكوتُ عنه . وقد سبق هذا المعنى فى أول الكتاب ، وفى فصول الهجرة من الأمر بالمعروف .

وقيل ليحيى بن سعيد : أمَا تخشى أنْ يكون هؤلاء الذين تركتَ حديثهم خُصماءك عند اللّه ؟ قال : ذاك أحبُّ إلى من أنْ يكون خصمى رسولُ اللّه ﷺ يقول : لِمَ حدثتَ عنى حديثاً ترى أنه كذب ؟

وقال بعض الصوفية لابن المبارك وقد تكلم فى المعلى بن هلال : يا أبا عبد الرحمن ،

تغتاب ؟ فقال له : اسكت ، إذا لم نُبيِّنْ ، كيف نعرفُ الحق من الباطل ؟ وقال الشافعى : ليس هذا من الغيبة . وفى هذا المعنى أحاديث وآثار كثيرة .

وقال أبو الحارث : سمعت أبا عبد اللّه غير مرة يقول : ما تكلم أحد فى الناس إلا سقط وذهب حديثه ، قد كان بالبصرة رجلٌ يقالُ له : الأفطس ، كان يروى عن الأعمش والناس ، وكانتْ له مجالس ، وكان صحيحَ الحديثِ إلا أنه كان لا يَسْلَمُ على لسانه أحدٌ فذهب حديثُه وذِكْرُهُ .

وقال فى رواية الأثرم ــ وذكر الأفطس واسمه عبد اللّه بن سلمة ــ قال : إنما سقطَ بلسانه، فليس نسمعُ أحداً يَذْكُره . وتكلَّمَ يحيى بن معين فى أبى بدر ، فدعا عليه قال أحمد: فأراه استُجيبَ له ، والمرادُ بذلك واللّه أعلمُ:عَدَم التَّثَبُّت والغيبة بغيرِ حَقٍّ .

وقال أبو زرعة : عبد اللّه بن سلمة الأفطس : كان عندى صَدُوقاً ، لكنه كان يتكلمُ فى عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان ، وذكر له يونس بن أبى إسحاق فقال : لا ينتهى يونس حتى يقولَ : سمعتُ البراء . قال أبو زرعة فانظر كيف يردُّ أمره . قال أبو زرعة : كُلُّ مَنْ لم يتكلم فى هذا الشأن على الديانة فإنما يعطبُ نفسه ، وكان الثورىُّ ومالك يتكلمون فى الناس على الديانة فينفذُ قولُهم ، وكل مَنْ يتكلم فيهم على غيرِ الديانةِ يرجع الأمر عليه .

قال أبو زرعة ــ وذكر أبا قتادة الحَرَّانى ــ فقال : سمعت ابن نفيل يقول : قرأ يعنى أبا قتادة كتاب مسعر فبلغ : وشك أبو نعيم ، فقال ما هذا ؟ فقال أبو زرعة : وذكر ابنُ نفيل يوماً مات فلان سَنَةَ كذا لشيوخه ، فقيل له : متى ماتَ أبو قتادة ؟ فقال : إنما نُسألُ عن تاريخ العلماء، فظننتُ أنه سُلِّطَ عليه ، وذلك أنَّ ابنَ نفيل حَدَّثَ فقيل لأبى قتادة : حدث ابنُ نفيل، فقال : ابن أخت ذاك الصبى ؟ يعنى سعيد بن حفص ، فجعلتُ أعْجَبُ من استخفافه هذا به، ثم سُلِّطَ عليه كما ترى . انتهى كلامه .

واعلم أن أبا قتادة ــ واسمه عبد اللّه بن واقد ــ ضعيفٌ متروكٌ عند الأئمة وكذَّبه بعضُهم،وقَوَّاهُ أحمد وكذا ابن معين فى رواية ، ولا روايةَ له فى الكُتُبِ الستة ، وماتَ سنةَ عشر ومائتين . فَمَنْ هذا حالُهُ لا يحل له أن يتكلم فى الجرح والتعديل لا سيما بغير إنصاف فيمن عَظَّمَهُ الأئمةُ وأثنوا عليه واتفقوا عليه ، وهو أبو جعفر عبد اللّه بن محمد بن نفيل النفيلى الحرانى وسعيد بن حفص ثقة ، وتوفيا سنة بضع وثلاثين ومائتين فلم يَضُرّهما كلامُ أبى قتادة وانْضَرَّ هو ، فنسأل اللّه العفو والستر ، وقال أبو زرعة : ذكرت لأبى جعفر النفيلى أن أحمد ابن حنبل حدثنا عن أبى قتادة فاغْتَمَّ وقال : قد كتبتُ إليه ألا يحدث عنه ، وإنما كان أحمد حدثنا عنه فى المذاكرة .

فصل فى خطأ الثقات وكونه لا يَسْلَمُ منه بشر

قال أحمد فى رواية الأثرم : ليس ينبغى لأحدٍ أنْ يُنكرَ حديثاً يُلْقى عليه . كان وكيع لا يقول : ليس هذا عندنا ، ولا يقول : لم أسمعه ، يسكت . قال أبو عبد اللّه : وكان ابن مهدى ذكر له ، عن ابن المبارك ، عن ورقاء ، عن سعيد بن جبير : إذا أقر بالحد ، ثم أنكر لم يقم عليه ، فأنكره إنكاراً شديداً ثم نظر فوجده فى كتابه . وقال مهنا لأحمد : كان غندر يغلطُ؟ قال : أليس هو من الناس ؟

وقال البويطى : سمعتُ الشافعىَّ يقول : قد ألفتُ هذه الكتب ولم آلُ فيها ، ولابد أنْ يوجدَ فيها الخطأ إن اللّه تعالى يقول : ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء : ٨٢] .

فما وجدتم فى كتبى هذه مما يخالفُ الكتابَ والسنة فقد رجعتُ عنه . وقال حنبل : سمعتُ أبا عبد اللّه يقول : ما رأيتُ أحداً أقلَّ خطأ من يحيى بن سعيد ــ يعنى القطان ــ ولقد أخطأ فى أحاديث . قال أبو عبد اللّه : ومَنْ يَعْرَى من الخطأ والتصحيف .

ونقل إسحاق بن إبراهيم عن أحمد : كان وكيع يحفظُ عن المشايخ ولم يَكُنْ يُصحف ، وكلُّ مَنْ كتب يَتَّكِلُ على الكتابِ يُصَحِّفُ . ونقل إسحاق أيضاً عن أحمد : ما أكثرَ ما يخطئ شعبة فى أسامى . وقال عباس الدورى : سمعتُ يحيى يقول : مَنْ لا يخطئ فى الحديث فهو كذابٌ . وقال عبد الرحمن بن مهدى : مَنْ يُبَرِّئُ نفسه من الخطأ فهو مجنونٌ . وقال مالك : ومَنّ ذا الذى لا يخطئ .

فصل فى صفات من يُؤخذُ عنهم الحديثُ والدين ومن لا يؤخذ عنهم

قال الصاغانى : رأيتُ أحمدَ بن حنبل عند أبى سلمة الخزاعى وكنتُ قائماً ، فقال أبو سلمة : يا أبا عبد اللّه هاهنا ، فأبى حتى كتبَ المجلس وهو قائم .

وقال أبو النضر العجلى : سمعتُ أبا عبد اللّه يقول : بلغنى أنَّ حماد بن زيد سئل عن حديث ، فقال : أى شىء تسأل عن حديث رسول اللّه ﷺ وأنتَ قائم ؟ وقال حنبل : سمعت أبا عبد اللّه يقول : إنما يحيا الناسُ بالمشايخِ ، فإذا ذهب المشايخ فماذا بقى .

وقال الحافظ تقى الدين بن الأخضر فى تسمية مَنْ روى عن أحمد : قال البخارى : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : إنما الناسُ بشيوخهم فإذا ذهب الشيوخُ فمع مَنِ العيشُ ؟

وصَحَّ عن ابن سيرين قال : إن هذا العلمَ دِينٌ ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ؟ ذكره مسلم فى مقدمة « صحيحه »(١) .

---

(١) مسلم فى المقدمة ، ب بيان أن الإسناد من الدين . . . إلخ ١/ ١٤ .

وعن أبى سعيد الأشج ، عن وكيع ، عن الأعمش ، عن المُسَيَّب بن رافع ، عن عامر بن عَبْدَةَ قال : قال عبد اللّه ، هو ابن مسعود : إنَّ الشيطان ليتمثَّلُ فى صورة ، فيأتى القومَ فيحدثهم بالحديث من الكذب ، فيتفرقون ، فيقول الرجل منهم : سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدرى ما اسمه يحدث(١) . عامر تَفَرَّد عنه المسيب .

وروى مسلم فى « صحيحه » : عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « سيكون فى آخر أمتى أناسٌ يُحَدِّثُونكم بما لم تَسْمَعُوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم » (٢) . وفى لفظ : «يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تَسمعوا أنتم ولا آباؤكم ؛ فإياكم وإيَّاهم لا يُضلُّونكم ولا يفتنونكم » (٣) .

وقال مالك لرجل : اطلب هذا الأمر من عند أهله . وقال مالك أيضاً لسفيان بن عيينة : إنك امرؤ ذو هيئة وكُبر ، فانظر عمن تأخذ .

وقال مالك : لا يُؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ عمن سواهم : لا يؤخذ عن معلنٍ بالسَّفه، ولا عمن جُرِّبَ عليه الكذب ، ولا عن صاحبِ هوىً يدعو الناسَ إلى هواه ، ولا عن شيخٍ له فضلٌ وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث به .

وقال مالك أيضاً : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ، لقد أدركنا فى هذا المسجد سبعين ممن يقول : قال فلان : قال رسول اللّه ﷺ ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيتِ مالٍ ، لكان أميناً عليه فما أخذت منهم شيئاً ، لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، ويَقْدَمُ علينا محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى وهو شاب فنزدحمُ على بابه .

وقال يحيى القطان: كم من رجلٍ صالح لو لم يحَدِّثْ لكان خيراً له. وقال أيضاً: ما رأيتُ الكذبَ فى أحدٍ أكثرَ منه فيمن يُنْسَبُ إلى الخير . قال البيهقى : لأنهم اشتغلوا بالعبادة عن ضبط الحديث وإتقانه ، فأدخل عليهم الكذابون ما ليس من حديثهم ، ومنهم قوم توهموا أن فى وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب أجراً وجهلوا ما فى الكذب على رسول اللّه ﷺ من كبير الإثم .

وروى الخلال عن ابن عباس مرفوعاً : « لا تأخذوا العلم إلا ممن تجيزون شهادته » (٤). وروى عن الحسن وابن سيرين مرسلاً .

وقال بهز بن أسد: [دين](٥) اللّه أحق أن يطلب عليه العدول. وقال هشيم عن مغيرة ،

(١ ــ ٣) مسلم فى المقدمة ، ب النهى عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط فى تحملها ١/ ١٢ .

(٤) الكامل لابن عدى ١/ ١٥٢ ، والخطيب فى تاريخ بغداد ٩/ ٣٠١ .

(٥) ساقطة من المخطوطة ، وهى فى أ ، ر ، طـ .

عن إبراهيم النخعى قال : كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سَمْتِه [1]، وإلى صلاته، وإلى حاله ، ثم يأخذون عنه .

وقال الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر : لا يُؤخَذُ العِلْمُ إلاَّ عَمَّن شهدَ له بطلب العلم . وقال ربيعة : إنَّ من إخواننا مَنْ نرجو بركةَ دعائه ولو شهد عندنا على شهادة ما قبلناها .

واشترط الشافعىُّ أنْ يكونَ حافظاً إنْ حَدَّثَ مِنْ حِفْظِه ، حافظاً لكتابه إنْ حَدَّثَ من كتابه، وروى عن مالك نحو هذا ، لئلا يدخل عليه ما ليس من حديثه .

وقال الإمام أحمد : يُكتبُ الحديثُ عن الناس كُلِّهم إلا عن ثلاثة : صاحب هوى يدعو إليه ، أو كذاب ، أو رجل يغلط فى الحديث فيرد عليه فلا يقبل .

وقال سفيان الثورى : لا يُؤخذُ الحلالُ والحرام إلا عن الرؤساء المشهورينَ بالعلم الذين يعرفون الزيادةَ والنقصان ، ولا بأس بما سوى ذلك من المشايخ . وقال سعيد بن عبد العزيز : عن سليمان بن موسى ، قال : كانوا يقولون : لا تأخذوا العلم عن الصُّحُفِيِّين [2] .

وقال عبد اللّه بن المبارك : قال أبو حنيفة : تُكتُب الآثار ممن كان عَدْلاً فى هواه إلا الشيعة؛ فإنَّ أصلَ عقدهم تضليل أصحابِ محمد ﷺ ، ومن أتى السلطانَ طائعاً حتى انقادت العامةُ له ، فذاك لا ينبغى أنْ يكون من أئمة المسلمين . وقال حرملة : سمعت الشافعى يقول: ما فى أهل الأهواء قومٌ أشهدُ بالزور من الرافضة .

وقال شعبة : عن أبى إسحاق ، عن سعيد بن وهب ، عن عبد اللّه بن مسعود قال : لا يزالُ الناسُ بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم وعن علمائهم وأمنائهم ، فإذا أخذوه من أصاغرهم وشِرَارهم هلكوا .

وقال ابن طاهر المقدسى : سمعت أبا محمد السمرقندى الحافظ الحسن بن أحمد : سمعت أبا العباس المستغفرى [3] الحافظ : سمعتُ أبا عبد الله محمد بن إسحاق بن منده الحافظ يقول: إذا رأيتَ فى إسنادٍ : حدثنا فلان الزاهد فاغسلْ يَدَكَ من ذلك الإسناد .

---

(١) فى المخطوطة : « اسمه » ، والمثبت من ر ، ط هو الموافق للسياق .

(٢) الصُّحفيون : الذين يأخذون العلم من الصحف دون الرواية .

(٣) هو الإمام الحافظ المجود المصنف ، أبو العباس ، جعفر بن محمد بن المعتز بن محمد بن المستغفر بن الفتح ابن إدريس ، المستغفرى النسفى ، مؤلف كتاب : معرفة الصحابة ، والدعوات ، ودلائل النبوة ، وغيرها، حدث عن زاهر بن أحمد السرخسى وإبراهيم بن لقمان ، وجعفر بن محمد البخارى وغيرهم ، وحدث عنه الحسن بن عبد الملك النسفى ، والحسن بن أحمد السمرقندى وغيرهما ، مولده بعد الخمسين وثلاثمائة بيسير ، وكان محدث ما وراء النهر فى زمانه ، ومات سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة . [سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٦٤ ، ٥٦٥] .

فصل فى سمت العلماء الذين يؤخذ عنهم الحديث والعلم وهديهم

روى الخلال فى أخلاق الإمام أحمد عن إبراهيم قال : كانوا إذا أتوا الرجلَ ليأخذوا عنه نظروا إلى صلاته وإلى سَمْتِه وإلى هيئته ثم يأخذون عنه ، وقد سبق . وعن الأعمش قال : كانوا يتعلمون من الفقيه كُلَّ شىء حتى لباسه نعليه . وقيل لابن المبارك : أين تريد ؟ قال : إلى البصرة ، فقيل له : مَنْ بقىَ ؟ فقال : ابنُ عون آخُذُ من أخلاقه ، آخذُ من آدابه .

وقال عبد الرحمن بن مهدى : كنا نأتى الرجلَ ما نريدُ علمه ليس إلا أنْ نَتعلَّمَ من هَدْيِه وسَمْته ودلّه . وكان علىُّ بن المدينىِّ وغير واحد يحضرون عند يحيى بن سعيد القطان ما يريدون أنْ يسمعوا شيئاً إلا أن ينظروا إلى هَدْيِه وسمته .

وقال عبد اللّه بن أحمد : سمعت ابن على بن المدينى يقول : رأيت فى كتب أبى ستةَ أجزاء مذهب أبى عبد اللّه وأخلاقه ؛ ورأيتُ أحمدَ يفعل كذا ويفعل كذا ، وبلغنى عنه كذا وكذا ، قال الشاعر :

إذا أعجبتك طِباعُ امرئٍ ... فَكُنْهُ يَكُنْ منك ما يُعْجِبُكْ
فليس على الجُودِ والمكرمات ... حجابٌ إذا جِئْتَهُ يَحْجُبُكْ

فصل فى الإقامة فى بلاد العلم والرحلة عن غيرها

قال الفربرىُّ [1]: سمعتُ البخارىَّ يقول : دخلت بغداد آخر ثمان مرات فى كُلِّ ذلك أُجالسُ أحمدَ بن حنبل ، فقال لى فى آخرِ ما ودعته : يا أبا عبد اللّه ، تترك العلمَ والناسَ وتصيرُ إلى خراسان ، قال البخارى : فأنا الآن أذكرُ قولَهُ . وقال إبراهيم بن خرزاذ : دخلَ أحمد بن حنبل وخلف بن سالم حلب ، فقال أحمد بن حنبل لخلف : ارحلْ بنا من هذا البلد، فإنَّ هذا بلدٌ يَضيعُ فيه العلم .

فصل فى خطرِ كتمان العلم وفضل التعليم وما قيلَ فى أخَذِ الأجرِ عليه

قال مثنى : إنه سأل أبا عبد اللّه عن الحديث الذى جاء : « مَنْ سُئِلَ عن علم فكتمه أُلْجِمَ

(١) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربرى ، راوى الجامع الصحيح عن أبى عبد الله البخارى ، وهو المحدث الثقة العالم ، وسمع أيضا من على بن خشرم ، ولد سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، حدث عنه أبو زيد المروزى ، والحافظ أبو على بن السكن وغيرهما ، وكان ثقة ورعا ، مات لعشر بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة . [سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٠ ــ ١٣] .

بلجامٍ من نار » [1] فرفعه ، ولم يَرَ إذا سُئِلْتُ عن شيءٍ ألا أجيب فيه إذا علمت ، ولم ير الجلوس فى مسجد الجامع لمكان الشهرة ، ولم يكره أن أحدث مَنْ أراد ذلك منى وإنْ كنت متعلماً . وقال الخلال : سمعت أبا بكر أحمد بن محمد بن صدقة يقول : قال أبو عبد اللّه : الأحاديث فيمن كتم علماً ألجمه اللّه بلجام من نار لا يصح منها شيء !

قال أبو داود (باب كراهية منع العلم) : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، أخبرنا على بن الحكم ، عن عطاء ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ سُئِلَ عن علم، فكتمه ، أُلجمهُ اللّهُ بلجامٍ من نار يوم القيامة » .

ورواه ابن ماجه والترمذى وحَسَّنَهُ من حديثِ على بن الحكم [2] ، له طرق عن على بن الحكم ، وعلى من رجال البخارى ، ووثَّقه ابنُ سعد وأبو داود وغيرهما ، وقال أبو حاتم : لا بأس به ، صالح الحديث . وقد رواه صدقة بن موسى وهو ضعيف عندهم ، عن مالك بن دينار، عن عطاء .

وقال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

قال : وهذه الآية تُوجبُ إظهارَ علوم الدين منصوصةً كانتْ أو مُستَنبطَةً ، وتدلُّ على امتناع جواز أخذ الأُجرة على ذلك إذْ غير جائز استحقاقُ الأجر على ما يجب فعله ، كذا قال ابن الجوزى ، وقد يستحق الأجر على ما يجب فعله كأداء الشهادة ونحو ذلك على خلاف مشهور فيه . ثم ذكر ابن الجوزى ما فى « الصحيحين » عن أبى هريرة أنه قال : إنكم تقولون أكْثَرَ أبو هريرة عن النبىِّ ﷺ، واللّه المَوْعد، وايمُ اللّه لولا آيةٌ فى كتاب اللّه ما حدثت بشيءٍ أبداً ثم تلا: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا** ﴾ إلى آخرها [3] وروى ابن ماجه : عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أفضل الصدقة أن يتعلم المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم»[4]. وعن أبى الدرداء والحسن البصرى وغيرهما هذا المعنى .

وقد ذكر الشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله ذلك فى بعض كلامه ، وقال : إن كاتم

---

(١) أحمد ٢/ ٢٦٣ ، وأبو داود فى العلم ، ب كراهية منع العلم (٣٦٥٨) ، والترمذى فى العلم ،ب ما جاء فى كتمان العلم (٢٦٤٩) ، وقال : « حديث حسن » ، وابن ماجه فى المقدمة ، ب من سئل عن علم فكتمه (٢٦١) .

(٢) انظر : تخريج الحديث السابق .

(٣) البخارى فى الاعتصام ، ب الحجة على من قال إن أحكام النبى ﷺ كانت ظاهرة وما كان يغيب بعضهم عن مشاهد النبى ﷺ وأمور الإسلام (٧٣٥٤) ،ومسلم فى فضائل الصحابة ، ب من فضائل أبى هريرة الدوسى (٢٤٩٢/ ١٥٩) .

(٤) ابن ماجه فى المقدمة ، ب ثواب معلم الناس الخير (٢٤٣) ،وقال فى الزوائد : « إسناده ضعيف . فإسحاق بن إبراهيم ضعيف ، وكذلك يعقوب ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة ، قاله غير واحد » .

العلم يلعنه اللّه ويلعنه اللاعنون . ومراد هؤلاء : إذا لم يكن عذر وغرض صحيح فى كتمانه، واللّه أعلم .

وقال سلمان الفارسى رضى اللّه عنه: عِلْمٌ لا يُقالُ به ككنزٍ لا ينُفق منه ،وروى مرفوعاً[1] ولا يَصحُّ .

وقال الضحاك : أول بابٍ من العلم الصمت ، ثم استماعه ، ثم العمل به ، ثم نشره .

وعن المسيح : مَنْ تعلم وعمل فذاك يسمى عظيماً فى ملكوت السماء . وعن المسيح عليه السلام : عَلِّمْ مجاناً كما عُلِّمْتَ مجاناً .

وقال الزهرى : إياكم وغُلول الكُتبِ .

وقال ابن المبارك : إذا كتم العالمُ عِلْمَهُ ابتُلىَ إما بموتِ القلب ، أو ينسى ، أو يتبع السلطان ، ذكر ذلك البيهقى وغيره ، وسبق هذا المعنى بنحو كراسة فى فصل « جاء رجلان »، وقبله بنحو كراسة فى فصل « قال المروذى » .

ويُشترطُ فَهْمُ المتعلمِ والسائلِ ويسقطُ الفَرْضُ بذلك ، على هذا يدلُّ كلامُ إمامنا وأصحابنا وهو مذهبُ الشافعى . واشترط الحنفية حفظه وضبطه أيضاً ؛ لأنه افترض عليهم التعليم بقدر ما يحتاج إليه لإقامة فرائضه ولا يتمكن إلا بالحفظ .

وقال مهنا : سألت أحمد قال: قال يحيى بن سعيد : ربما جاءنى مَنْ يستأهل فلا أحدثه، ويجىء مَنْ لا يستأهل أن أحدثه فأحدثه .

وعن أحمد أنه سئل عن شىء بعد ما ضُربَ ، فقال : هذا زمان حديث ؟ فقال له السائل: يا أبا عبد اللّه ، يحلُّ لكَ أنْ تمنعنى حقِّى وتمنع هذا حَقَّهُ ؟ لرجل آخر سأله عن شىء، فقال : وما حَقُّكم ؟ قال : ميراثُ محمد ، قال : فسكت أبو عبد اللّه .

وعنه أيضاً : وقال له جماعة: نسألك عن مسألة ، قال : قد قلتُ اليوم لا أجيبُ فى مسألة ولكن ترجعون فأجيبُكُم إنْ شاء اللّه تعالى .

وقال الأثرم : أتينا أبا عبد اللّه فى عشر الأضحى فقال : قال أبو عوانة : كنا نأتى الجريرى فى العشر فيقول : هذه أيام شغلٍ وللناس حاجاتٌ ، فابنُ آدمَ إلى الملالِ ما هو .

وقال محمد بن يحيى الكحال : قلتُ لأبى عبد اللّه كأنى أردتُ أنْ أحثه على الحديثِ قال: ليس لهم إكرام للشيوخ .

وقال عبد اللّه : جاء رجلٌ إلى بابنا ، فقال لى أبى : اخرجْ إليه فقل له : لستُ أحدثك، ولا أحدثُ قوماً أنتَ فيهم ، فقلت : ما شأنه يا أبتِ ؟ قال : رأيته يَمجُن على باب عفان .

---

(١) كنز العمال (٢٨٩٩٤) عن ابن مسعود .

وعن أحمد أنه أخرج الكتاب ليحدث قال الراوى : فأخرجنا الكتب فاطَّلَعَ رجلٌ صاحبُ هيئة ولباس ، فنظر إليه أحمد فأطبق الكتابَ وغضبَ وقام . فقال الرجلُ : أنا أذهب فَحَدِّثِ القومَ ، فقال : ليس أحدث اليوم .

وعن مغيرة قال : كنت أحدثُ الناسَ رغبةً فى الأجر ، فأنا أمنعهم اليوم رغبة فى الأجر.

وعن الميمونى أنه سمعَ أبا عبد اللّه قال : وخرج إلينا فرأى جماعتنا فشكا ذلك إلينا وأخبرنا بما يكره من ذلك لمكان السلطان قال : ولولا ذلك لحقَّ علىَّ أن آتيهم فى منازلهم .

وقال ابن منصور : قلتُ لأحمد أَيَسَعُكَ ألا تُحَدِّثَ ؟ قال: لِمَ لا يسعنى؟ أنا قد حدثت. وقال له محمد بن مسلم بن وارَة : يا أبا عبد الله لِمَ قطعتَ الحديثَ والناسُ يحتاجون ؟ فمن فعل هذا ؟ فسمى رباح بن زيد ، وحبان أبو حبيب ، يعنى : ابن هلال حَدَّثا ثم قطعا.

وقال المروذى : قال أبو عبد الله : سألونى ــ يعنى فى المسائل التى وردت عليه من قبل الخليفة ــ فلم أجبْ ، قلتُ : فلأىِّ شىء امتنعتَ أنْ تُجيبَ ؟ قال : خِفْتُ أن تكون ذريعةً إلى غيرها . قال : وسمعت أبا عبد الله ــ وسأله علىُّ بن الجهم عن شىء فلم يُجِبْهُ ــ وقال : قد فقدتُ بعضَ ذهنى ، وسأله عبد الرحمن بن خاقان عن شىء فلم يُجِبْهُ ، وقال : قد فقدتُ بعض ذهنى .

وقال ابن الجوزى فى أوائل « صيد الخاطر » : أنا لا أرى تركَ التحديث بعلَّة قول قائلهم : إنى أجدُ فى نفسى شهوةً للتحديث ، لأنه لابُدَّ من وجود شهوةِ الرياسة فإنها جِبِلَّةٌ فى الطباع ، وإنما ينبغى مجاهدتها ، ولا يترك حق لباطل .

فصل مخاطبة الناس على قدر عقولهم

قال المروذى : سألتُ أبا عبد الله عن شىء من أمرِ العدل ، فقال : لا تسأل عن هذا فإنك لا تُدركه . قال ابن عقيل فى « الفنون » : حرامٌ على عالمٍ قوىِّ الجوهر وأدرك بجوهريته وصفاء نحيزته علماً أطاقه فحمله أنْ يرشح به إلى ضعيف لا يحمله ولا يحتمله ؛ فإنه يُفسده. ولهذا قال عليه السلام : « نحنُ معاشرَ الأنبياءَ أمِرْنَا أنْ نُكَلِّمَ الناسَ على قَدْرِ عقولهم »(١). انتهى كلامه . و هذا الخبر رواه أبو الحسن التميمى من أصحابنا فى كتاب « العقل » له بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبىِّ ﷺ أنه قال : « نحن مَعَاشِرَ الأنبياء نُخاطبُ الناسَ على قَدْرِ عقولهم » .

وقال ابن عقيل : واكَمَدَاهُ من مخافة الأغيار ، واحَصْراهُ من أجل استماع ذى الجهالة للحقِّ والإنكار ، واللّه ما زال خواصُّ عبادِ اللّه يتطلبون لتروّحِهم بمناجاتهم رؤوس الجبال ،

(١) انظر : السخاوى فى المقاصد الحسنة ص٩٣ ، وقال : « وسنده ضعيف جدا ».

والبرارى والقفار ، لما يرونه من المُنكرين لشأنهم من الأغمار . والسفير الأكبر يهرب من فُرُشِ الزوجات إلى خلوةٍ بمسجد للتروّحِ بتلك المناجاة ، فلا ينبغى للعاقل أن ينكر تكدير عيشه . وقال أيضاً : وقد يكون الإنسانُ مسلماً إلى أنْ يضيقَ به عَيْشٌ ، وإنما ديننا مبنىٌّ على شعثِ الدنيا وصلاحِ الآخرة ، فمن طلب به العاجلة أخطأه .

وروى الحافظ ضياء الدين فى « المختارة » من رواية أحمد بن زياد العتكى : حدثنا الأسود ابن سالم ، أنبأنا أبو عبد الرحمن يزيد بن يزيد الزراد ، عن محمد بن عجلان ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « أُمِرْنا معشرَ الأنبياء أن نُكَلِّمَ الناسَ على قَدْرِ عقولهم »، ثم قال الحافظ الضياء : الزراد لم يذكره ابنُ أبى حاتم ولا الحاكم أبو أحمد فى كتابه « الكنى».

وقال ابنُ الجوزىِّ : ولا ينبغى أنْ يُملى ما لا يحتمله عقولُ العوام .

وقال البخارى : قال على رضى اللّه عنه : حَدِّثُوا الناسَ بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ، أَتُحِبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ اللّهُ ورسوله ؟!

وقال ابن مسعود : ما أنتَ بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . رواه مسلم فى المقدمة ، وعزاه بعضهم إلى البخارى (١).

وروى البخارى عن المقدام بن مَعْدى كَرِب مرفوعاً : « إذا حَدَّثتم الناسَ عن ربِّهم فلا تُحدثوهم ما يَعْزُبُ عنهم ويَشقُّ عليهم » (٢) وسبق بنحو كراسة الكلامُ فى القُصاص وما يتعلق بهم ، وله تَعَلُّقٌ بهذا .

وروى الحاكم فى « تاريخه » بإسناده عن أبى قدامة ، عن النضر بن شميل قال : سُئِلَ الخليلُ عن مسألة فأبطأ بالجوابِ فيها ، قال : فقلتُ : ما فى هذه المسألة كُلُّ هذا النظر ، قال: فرغتُ من المسألة وجوابها ، ولكنى أريد أنْ أُجيبكَ جواباً يكون أسرع إلى فهمك . قال أبو قدامة : فحدثتُ به أبا عبيد فَسُرَّ به .

وفى « تاريخ » عبد اللّه بن أحمد بن جعفر السَّرَخْسِى أبو محمد الفقيه : أخبرنى محمد ابن حامد ، حدثنا عبد اللّه بن أحمد ، سمعت الربيع ، سمعت الشافعى يقول : لو أنَّ محمدَ ابن الحسن كان يكلمنا على قَدْر عقله ما فهمنا عنه ، لكنه كان يُكلِّمُنَا على قَدْرِ عقولنا فنفهمه.

---

(١) مسلم فى المقدمة ، ب النهى عن الحديث بكل ما سمع ١١/١ ، ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف للبخارى (٩٤٠١) .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٨١٩٦) ، وقال : « لا يروى هذا الحديث عن المقدام بن معدى كرب إلا بهذا الإسناد، تفرد به بقية » ، وابن عدى فى الكامل ٧ / ٨٠ ، وكنز العمال (٥٣٠٧) . ولم نجده فى البخارى.

وروى مسلم عن قزعة قال : أتيتُ أبا سعيدٍ الخدرىّ وهو مكثور عليه ، أى عنده ناسٌ كثيرون ، فلما تَفَرَّقَ الناسُ عنه قلتُ : أسألك عن صلاةِ رسول اللّه ﷺ فقال : مالك فى ذلك من خير ، فأعادَ عليه ، فأجابه . وذكر الحديث (١) .

قال فى شرح مسلم : معناه أنك لا تستطيعُ الإتيانَ بمثلها وإنْ تَكَلَّفتَ ذلك شَقَّ عليكَ ولم تُحَصِّله فتكون قد علمتَ السُّنة وتركتها . وسبق ما يتعلق بهذا فى رمى العالِم المسألة وسؤالِ الناس له .

وقال محمد بن عبد اللّه بن عبد الحكم : أخبرت الشافعى يوماً بحديث وأنا غلام فقال : مَنْ حدثك ؟ فقلتُ : أنتَ ، قال : ما حدثتك من شىء فهو كما حدثتك ، وإياك والرواية عن الأحياء .

فصل فى وضع العالم المحبرةَ بين يديه وجواز استمداد الرجل من محبرة غيره

وضع أبو عبد اللّه رحمه اللّه بين يديه محبرة فقيل له : أستمدُّ منها ؟ فتبسم وقال : قد روى عن زهير بن أبى خيثمة أنه كانت معه محبرةٌ فقالوا : نستمدُ منها ؟ فقال : إنها عاريةٌ. نقله المروذى ، وقال حرب : قلت لإسحاق بن راهويه : يستمدُ الرجلُ من محبرة الرجل ؟ قال: لا يستمد إلا بإذنه .

قال الخَلاَّل:(كراهية أن يستمد الرجل من محبرة الرجل إلا بإذنه) وذكر ذلك ، وقال محمد بن إبراهيم المعروف بمُرَبَّع: كنتُ عند أحمد بن حنبل وبين يديه محبرة، فذكر أبو عبد اللّه حديثاً فاستأذنته بأنْ أكتبَ من محبرته ، فقال لى اكتب يا هذا ، فهذا وَرَعٌ مظلم .

وقال محمد بن طارق البغدادى : كنت جالساً إلى جانب أحمد بن حنبل فقلتُ : يا أبا عبد الله ، أستمدُّ من محبرتك ؟ فنظر إلىَّ وقال : لم يبلغ ورعى ورعَكَ هذا .

وعن وكيع وجاء إليه رجل فقال له : إنى أَمُتُّ إليك بحرمة . قال : وما حُرْمَتُكَ ؟ قال: كنتَ تكتبُ من محبرتى فى مجلس الأعمش ، فوثب فدخل منزله ، فأخرج صرة فيها دنانير، وقال له : اعذرنى ، فإنى لا أملك غيرها .

وقال يحيى بن زكريا بن يحيى الأحول : جئتُ يوماً وأحمد بن حنبل يملى فجلستُ أكتبُ فاستمددتُ من محبرة إنسان فنظر إلىَّ أحمد فقال : يا يحيى ، أستأمرته ؟

وقال إبراهيم الحربى : لزمتُ أحمدَ بن حنبل سنتين ، فكان إذا خرج ليحدثنا يخرج معه محبرة مجلدة بجلد أحمر وقلماً ، فإذا مر به سقط أو خطأ فى كتابه أسقطه بقلمه من محبرته،

(١) مسلم فى الصيام ، ب أجر المفطر فى السفر إذا تولى العمل (١١٢٠/١٠٢)

يتورع أنْ يأخذ من محبرةِ أحدنَا شيئا . وحكى ابنُ عقيل فى (باب الغصب) من « الفصول » عن القاضى أنه قال : روى عن أحمد أنه مَنَع الكَتْبَ من محبرة غيره بغير إذنه . وفى رواية ، قال لمن استأذنه : هذا من الورع المظلم ، فحملنا الأول على كَتْب يطول ، والثانى على غَمْسِه قلماً لكَتْبِ كلمة ، أو فى حق من ينبسط إليه ويأذن له حُكْماً وعُرْفًا . انتهى كلامه .

والأوْلى أن يقال يحمل الأول على كَتْب يطول ، والثانى على كتب قليل ؛ لأنه يُتسامح به عادة وعرفاً ، أو يحمل الأول على مَنْ يغلبُ على ظنه أنه لا يطيبُ قلبه ولا يأذنُ فيه ، ويحمل الثانى على مَنْ يَطيبُ به ويأذن فيه .

فصل فى الكتابة والكتب والكتاب وأدواتهم الكتابية

قال الخلال:(التوقى ألا يُتَرَّبَ الكتابُ إلا من المباحات) ثم روى عن المروذى أنَّ أبا عبد اللّه كان يجيء معه بشيء ولا يأخذ من تراب المسجد .

قال المروذى : سمعت عبد الصمد بن مقاتل ، سمعت أبى يقول : رأيتهم يكتبون الكتابَ فى دورِ السبيل ، فإذا أرادوا أنْ يختموه أرسلوا إلى البحر فأخذوا الطين .

وذكر بعض الشافعية فى كتاب « فاتحة العلم » ما يدلُّ على أنَّ هذا لا يحرم .

وعن جابر مرفوعاً : « تربُّوا صُحُفَكم أنجح لها ، فإنَّ التراب مبارك » (١) .

وعن زيد بن ثابت مرفوعاً : « ضَعَ القلمَ على أذنك فإنه أذكر للمُمْلى » (٢) رواهما الترمذى وضعفهما ، وروى ابن ماجه الأول .

قال ابن عبد البر : وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « تَرَبُّوا الكتبَ وسجوها من أسفلها، فإنه أنجحُ للحاجة » (٣) . وذكر أيضاً الخبر المشهور عن النبى ﷺ أنه قال: « نحنُ أُمةٌ أُمّيةٌ لا نكتبُ ولا نَحسب »(٤).

وروى عنه ، أنه قال : « من أشراطِ الساعة أن يُرْفَعَ العِلْمُ ، ويفيضَ المالُ ، ويكثر التجار، ويظهر القلم » يعنى الكتابة ، كذا ذكره ابن عبد البر ، والصحيح المشهور : « يُرفَعُ العِلْمُ ويَفيضُ المال » (٥) حسب .

---

(١) الترمذى فى الاستئذان ، ب ما جاء فى تتريب الكتاب (٢٧١٣) ، وابن ماجه فى الأدب ، ب تتريب الكتاب (٣٧٧٤) .

(٢) الترمذى فى الاستئذان ، ب ٢١ (٢٧١٤) .

(٣) كنز العمال (٢٩٣٠٩) عن ابن عباس ، بلفظ : « تربوا الكتاب وسجوه من أسفله فإنه أنجح للحاجة » .

(٤) أحمد ٢/ ١٢٢ عن ابن عمر .

(٥) البخارى فى الاستسقاء ، ب ما قيل فى الزلازل والآيات (١٠٣٦) ، ومسلم فى الزكاة ، ب الترغيب فى الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها (١٥٧/ ٦١) ، كلاهما بلفظ مقارب عن أبى هريرة .

قال الحسن البصرى : لقد أتى علينا زمان ، وإنما يُقال : تاجرُ بنى فلان ، وكاتبُ بنى فلان ، ما يكونُ فى الحى إلا التاجر الواحد والكاتب الواحد . وقال الحسن أيضاً : لقد كان الرجل يأتى الحى العظيم فما يجد به كاتباً .

وفى الحديث المرفوع أيضاً : « فُشُوُّ القلم وفشو التجارة من أشراطِ الساعة » (١) يعنى بقوله « فشو القلم »: ظهور الكتابة وكثرة الكتاب .

وعن بعض المفسرين فى قوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام : ﴿**اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف : ٥٥] قال : كاتبٌ حاسبٌ .

وقد كتب لرسول اللّه ﷺ جماعة منهم أبى بن كعب وزيد بن ثابت وعلى وعثمان وحنظلة الأسدى ومعاوية وعبد اللّه بن الأرقم ، وكان كاتبه المواظب على الرسائل والأجوبة وهو الذى كتب الوحى كله لرسول اللّه ﷺ ، وأمره رسولُ اللّه ﷺ أنْ يتعلمَ كتابَ السريانية ليجيبَ عنه مَنْ كتب إليه بها ، فتعلمها فى ثمانية عشر يوماً .

وقال على بن أبى طالب رضى اللّه عنه لكاتبه عبيد اللّه بن أبى رافع : إذا كتبتَ فألقِ دواتك ، وأطلْ سِنَّ قلمك ، وفَرِّج السطور ، وقارب بين الحروف . وقالت العرب : القلمُ أحدُ اللسانين . وقالوا : الخَطُّ الحَسَنُ يَزيدُ الحَقَّ وضوحاً .

وقال المأمون : الخط لسان اليد ، وهو أفضل أجزاء اليد . وأمر أبوجعفر المنصور بسجن طائفةٍ من الكتاب عتب عليهم فكتب إليه بعضهم من طريق السجن :

أطال اللّهُ عُمْرَكَ فى صلاح ... وعِزٍّ يا أميرَ المؤمنينا
بعفوِكَ نستجير فإنْ تُجِرْنا ... فإنَّك رحمةٌ للعالمينا
ونحن الكاتبونَ وقد أسأْنا ... فَهَبْنَا للكِرامِ الكاتبينا

قال : فعفا عنهم وأمر بتخليتهم . واسم الكُتاب بالفارسية ديوان ، أى شياطين لحذقهم بالأمور ولطفهم ، فسمى الديوانُ باسمهم ، كذا ذكره ابن عبد البر .

وقال أبو جعفر النحاس ــ واسمه أحمد بن محمد ، توفى فى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة قال : معنى الديوان : الأصلُ الذى يرجع إليه ، ويعمل بما فيه ، كما قال ابن عباس : إذا سألتمونى عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإنَّ الشعر ديوانُ العرب ، أى أصله، ويقال : دَوِّنْ هذا : أى أثبِتْهُ واجعله أصلاً .

وزعم بعضُ أهلِ اللغة أنَّ أصله عجمىٌ ، وبعضهم يقول : عربى ، وقد ذكره سيبويه فى «كتابه» ، وتكلم على أنَّ أصله دوَّان ، واستدلَّ على ذلك بقولهم فى الجمع : دواوين . وهذا

---

(١) النسائى فى البيوع ، ب التجارة (٤٤٥٦) ، وكنز العمال (٣٨٥٢٠) .

قولٌ حَسَنٌ ، أبدلوا من أحد الواوين ياء . ونظيره دينار ، الأصلُ فيه دنار ، وكذا قيراط الأصل فيه قراط . فأما الفَرَّاء فيزعم أنك إذا سميتَ رجلاً بديوان وأنت تريد كلام الأعاجم لم تصرفه، وهذا عندى غلط ؛ لأنك إذا سميت رجلاً ديواناً على أنه أعجميٌّ لم يَجزْ إلا صرفه لأن الألف واللام لا يدخلان فيه ، فقد صار بمنزلة طاووس وراقود وما أشبههما ، وإنْ جعلته عربياً صرفته أيضاً لأنه فعال ، الدليل على ذلك قولهم: دواوين ، وديوان بالفتح غلط ، ولو كان بالفتح لم يجز قلب الواو ياء . فإن قيل : الياء أصل ،قيل: هذا خطأ ، ولو كان كذا لقيل فى الجمع: دياوين ، فدَيوان لا يقال كما لا يقال: دَينار ولا قَيراط . وزعم الأصمعىُّ أنَّ أصله أعجمى ، وروى أنَّ كسرى أمرَ الكُتَّاب أنْ يجتمعوا فى دار فيعلموا حساب السواد فى ثلاثة أيام، فاجتمعوا فى الدار واجتهدوا ، فأشرفَ عليهم وبعضُهم يعقد [1] وبعضهم يكتبُ ، فقال : « إيشان ديواشد» أى : هؤلاء مجانين ، فلزم موضع الكتابة هذا الاسم من ذلك الدهر ، ثم عَرَّبَتْهُ العربُ فقالت : ديوان . انتهى ما ذكره أبو جعفر .

قال : والدفتر اسم عربى لا نعلم له اشتقاقاً ، وكان أبو إسحاق يذهب إلى أنَّ كُلَّ اسمٍ عربى ، فهو مشتق إلا أنه ربما غاب عن العالم شىءٌ وعرفه غيره ، يقال له : دَفتر ودِفتر وتفتر ثلاث لغات . وقال الجوهرىُّ : الدفتر واحدُ الدفاتر وهى الكراريس [2] ، قال أبو جعفر : والكُرَّاسة معناها : الكتبُ المضمومةُ بعضُها إلى بعضٍ والورقُ الذى أُلصقَ بعضُه إلى بعضٍ مشتق من قولهم : رسم مكرس : إذا ألصقت الريح التراب به ،وقال الخليل : الكراسة مأخوذة من كراس الغنم وهو أن يبولَ فى الموضع شيئاً بعد شىء ، فيتلبد . انتهى كلامه .

وقال الماوردى : أصلُ الكُراس والكَراريس العلم ، ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب : كُراسة .

وقال الجوهرى : والكراسة واحدة الكراس [3]. والصحيفة : الكتاب ، والجمع : صحف وصحائف ، قال أبو جعفر : وقيل : مصحف لأنه مجمعُ الورقِ الذى يُصحف فيه ، من أصحف كمُكرم ، ومن قال : مَصحف بفتح الميم ، جعله من صحفَت مصحفاً مثل : جَلستُ مَجلساً ، ومن كسر الميم شبهه بمِنقَل .

وأما السفر : فمشتق من أسْفَرَ الشىءُ إذا تَبَيَّنَ ، فهو الذى فيه البيانُ ، ومنه أسفر الصبحُ إذا تبين ، وأسفر وجه المرأة إذا أضاء .

وسُمِّىَ القلمُ قلماً ؛ لأنه يُقلَم أى يُقْطَعُ منه ، ومنه قَلمتُ أظفارى ، وقبلَ قطعه ليس بقلم ولكنه أنبوب . وقيل: القلم مشتق من القُلاَّم ، وهو نبت ضعيف واهى الأصل ، فقيل :

(١) فى المخطوطة : « يقعد » والمثبت من ر ، ط .

(٢) انظر : اللسان ، مادة « دفتر » .

(٣) انظر : اللسان ، مادة « كرس » .

قلم ، لأنه خُفِّفَ وأُضْعِفَ بما أخذ منه ، ورجلٌ مُقَلَّمُ الأظفارِ من هذا ، أى : ضعيفٌ فى الحرب ناقص، ويقال : رَعَفَ القلمُ : إذا قطر، وأَرْعَفَ الرجل القلم : إذا أخذ فيه مداداً كثيراً حتى يقطر ، ويقال : استمدد ولا تُرعف : أى : لا تُكْثِرِ المِدادَ حتى يقطر . ويقال : ذَنَبْتُ القلمَ فهو مُذْنَب ، فأما الرطب فيقال فيه مُذَنِّب من ذَنَّبَ هو ، ويقال : حفى القلم يحفى حُفْوَةً وحِفْوَةً وحِفيةً وحِفايةً وحفى مقصور ، فأما الحفاء ممدوداً ، فمشىُ الرجل بلا نعل.

ويقال للقطعة التى تُقطع من الأنبوبة: شظية ، مشتق من شظى القوم تَفَرَّقُوا ، ويقال : قَلَمٌ ذَنُوبٌ : إذا كان طويلَ الذنب ، كما يقال : فَرَسٌ ذَنُوبٌ ، وللقلم سِنَّانِ فإذا كان الأيمن أرفع قيل : محرَّف ، وإن استويا قيل : قلمٌ مستوى السِّنَّيْن .

وأشحمتُ القلم : تركتُ شحمه فلم آخذه ، فإن أخذت شحمه قلت : بطنته تبطيناً .

يقال : بريتُ القلم برياً ، وما سقط منه بُراية ، وقد يقال للقلمِ نفسه : بُراية ؛ لأن العربَ تجعل فُعالة لكل ما نقصَ منه ، فيقولون : قُطاعة وقُوارة ، ذكره أبو جعفر . وقال الجوهرى : قَوَرَهُ واقْتَوَره واقتاره ، بمعنى قطعه مُدوراً [1] ، ومنه : قُوَارَة القميص والبِطيخ ، وقال : والقُطاعة بالضم : ما سقط عن القطعِ ، قال أبو جعفر : يقال : قَطَطتُ القلمَ ، أى : قطعتُ منه، والقلم مَقْطوط وقَطَطٌ وقَطيط، والمِقَطُّ : الذى يُقط القلم عليه ، والمَقط بفتح الميم: الموضع الذى يُقط من رأس القلم ، وهو مشتق من قططت ، أى : قطعت ، وما رأيته قط ، أى : انقطعت الرؤية بينى وبينه . والقط الكتاب بالجائزة ؛ لأنه يقطع ، ومنه يعطى القطوط وثائق ، وقط بمعنى حَسْب .

والدَّوَاةُ جمعها : دويات فى العدد القليل كذا قال أبو جعفر ، وفى الكثير دُوى بضم الدال ويقال بكسرها ودوى ودوايا ، ويقال : أدويت دواة : إذا اتخذتها ، وقد دوى الدواة ، أى : عملها ، فهو مدو مثل مقن للذى يعمل القنا . ويقال لمن يبيعها : دوَّاء مثل تَبَّان للذى يبيعُ التبن ، والذى يحملها ويمسكها داوٍ ، ومثله رامح : للذى يحمل الرمح . واشتقاق المداد من المدد للكاتب وهى جمع مدادة يذكر ويؤنث .

قال الفَرَّاءُ ــ واسمه يحيى بن زياد الكوفى توفى سنة تسع ومائتين: إن جعلت المداد مصدراً لم تثنه ولم تجمعه ، ويقال : أمْددتُ الدواة إذا جعلت فيها المداد ، فإن زدت على مدادها قلت : مددتها . واستمددت منها ، أى : أخذت ، فإن أخذت مدادها كله قلت : قَعَرْتُ الدواةَ أقعَرها قعراً، واشتقاقه أنك بلغت إلى قعرها ، وقد سمع أقعرت الإناء إقعاراً : إذا جعلت له قعراً . وإذا ألصق القطن يعنى أو غيره بالدواة فهو ليقة ، مشتق من قولهم : ما يليق فلانٌ بقلبى ، أى : ما يلصق به . ويقال : أَلَقْتُ الدَّواة إلاَقَةً ولُقْتُها لَيقاً ولُيوقاً ولَيَقَاناً إذا

---

(١) انظر : اللسان ، مادة « قور » .

ألصقتُ مِدَادَها ، وقد أنعمت لِيقَةَ الدَّوَاة إنعاماً أى زدت فى لِيقها ، وأنعم الشىء : إذا زاد، ومنه الحديث : « وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما » (١) ، أى : زاد على ذلك ، ومنه سحقتُ المِدادَ سحقاً نعماً ، قيل للفراء : لم سُمِّىَ المدادُ حبراً ؟ قال : يقال للعالم حبر وحَبر، وإنما أرادوا مداد حبر ، فحذفوا مداداً ، ثم جعلوا مكانه حبراً كقوله تعالى : ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف : ٨٢] .

وقال الأصمعىُّ : ليس هذا بشىء ، وإنما هو لتأثيره يقال : على أسنانه حِبْرةٌ يقال : إذا كثرت فيها الصفرة حتى تضرب إلى السواد ، قال محمد بن يزيد : وأنا أحسب أنه إنما سُمِّىَ حبراً ؛ لأنه تُحَبَّرُ (٢) به الكتب .

قال أبو جعفر النحاس : من حُسْنِ تقديرِ الكاتبِ ألاَّ يُفَرِّقَ بين المُضاف والمضافِ إليه فى سطر ، كذا أعزه اللّه ، وكذا أحدَ عَشَر ، لأنه كاسمٍ واحد .

ويُستحسنُ المَشْقُ فى الشين والسين إلا فى أواخر الكلم نحو « الناس » ، وأصلُ المَشْقُ فى اللغة : الخفَّة ، يقال : مَشَقَ بالرمح ، ومَشَقَ الرجل الرغيف : إذا أكله أكلاً خفيفاً ، فمعنى مَشَقَ الكاتب : إذا خفف يده ، وهذا اختيار محدث . وأما رؤساء الكتاب المتقدمين ، فكانوا يكرهون المشقَ كله وإرسال اليد ، ويقول بعضهم : هو للمُبْتدئ مفسدةٌ لخطِّه ودليلٌ على تَهاونِه بما يكتبه . وقد ذكره الفقهاء أن يكتب بسم الله بغير سين .

ويستحسنون إذا توالتِ السينُ والشينُ فى كلمةٍ أن يقدر الكاتب فصلاً بمدة . ويستحسنون فى كتابة نحو « بين » أن يرفع الوسطى من الثلاث فرقاً بين ذلك وبين السين والشين . ويستحبون أنْ تكونَ الكافُ غير مشقوقة إذا كانت طرفاً عندهم ويحبون تعليمها إذا كانت متوسطة ، ولا تعلم إذا كانت طَرَفاً ، ويستحبون أن تكون الألفاظُ سهلةً سمحةً غير بشعة .

ومما يستحسنون لإبراهيم بن مهدى تَوقيعه إلى كاتبه : إياك والتتبع لِحَوْشىّ الكلام طمعاً فى نيلِ البلاغةِ ، فإنَّ ذلك العىّ الأكبر ، وعليك بما يسهلُ مع تَجَنُّبكَ للألفاظ السفل . وكذا ما روى من صفة يحيى بن زياد الكاتب ، فإنه قال : أخذ بزمام الكلام ، فقاده أسهلَ مَقاد ، وساقه أحسن مَساق ، فاسترجع به القلوبَ النافرة ، واستصرف به الأبصار الطامحة .

وقال الجاحظ : لم أر قوماً أمثل طبقةً فى البلاغةِ من الكتاب ، وذلك لأنهم التمسوا ما لم يكن متوعِّراً من الألفاظ حوشياً ، ولا ساقطاً عامياً .

---

(١) أحمد ٣/ ٢٦ ، وأبو داود فى الحروف والقراءات ، ب الحروف والقراءات (٣٩٨٧) ، وابن ماجه فى المقدمة ، ب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (٩٦) ، كلهم عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) تحبَّر: تزين .

وقال محمد بن الفضل صاحب كتاب « الديباج » : يجب للكاتب أن يعدل بكلامه عن الغريب الحوشى ، والعامى السوقى ، والرذل السليقى ، ويجانب التقعير ، ويجب أن يعمل نفسه فى تنزيل الألفاظ . وسئل أعرابىٌّ مَنْ أبلغُ الناس ؟ قال : أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة. وقد سبق فى فصولِ رَدِّ السلامِ رَدُّ جوابِ الكتاب وما يتعلق بذلك .

وروى أبو داود فى الخراج : عن عمرو بن عثمان ، عن محمد بن حرب ، عن أبى مسلمة سليمان بن سليم، عن يحيى بن جابر ، عن صالح بن يحيى بن المقدام ، عن جده ــ وفى نسخة عن أبيه عن جده ــ أن النبى ﷺ ضرب على منكبه ثم قال له : « أفلحتَ يا قُدَيْمُ إنْ مت ولم تكن أميراً ولا كاتباً ولا عريفاً » (١) ورواه أحمد عن أحمد بن عبد الملك الحَرَّانى، عن محمد بن حرب الأبرش ، عن سليمان ، عن صالح ، عن جده صالح(٢) ، قال البخارى: فيه نظر ، وقال ابن حبان فى « الثقات » : يخطئ .

فصل فى نظر الرجل فى كتاب غيره بإذنه أو رضاه

قال الخلاَّل : (كراهية النظر فى كتاب الرجل إلا بإذنه)، قال أبو بكر بن عسكر: كنتُ عند أبى عبد اللّه وعنده الهيثم بن خارجة ، فذهبت أنظر فى كتاب أبى عبد اللّه فكره أبو عبد اللّه أن أنظر فى كتابه .

واطَّلع عبد الرحمن بن مهدى فى كتاب أبى عوانة بغير أمره فاستغفرَ اللّه مرتين .

وقال أحمد فى رواية مهنا فى رجلٍ رهنَ مصحفاً : هل يقرأ فيه ؟ قال : أكرهُ أنْ ينتفعَ من الرَّهنِ بشىءٍ .

وقال فى رواية عبد اللّه فى الرجلِ يكونُ عنده مصحف رهن : لا يقرأ إلا بإذنه .

وقال فى رواية إسحاق بن إبراهيم فى الرجل يرهن عنده المصحف يستأذنه فى القراءة فيه، فإنْ أَذِن له قرأ فيه .

قال القاضى فى « الجامع الكبير » : أما منعه من القراءة إلا بإذن صاحبه مع قولنا : إنه يلزمه بَذْلُه إذا طلبه الغيرُ للقراءة ، فهو محمولٌ على أنه كان يجدُ مصحفاً غيره ، وإنما يلزمه بذله عند الحاجة . وقال فى « الرعاية » عند مسألة رهن المصحف : ولا يقرأ أحدٌ فى المصحف بلا إذن ربِّه ، وقيل : بلى إنْ لم يضر ماليته . وإنْ طلبه أحدٌ ليقرأ فيه لم يَجِبْ بذله ، وقيل : يجب ، وقيل : عند الحاجة إليه . وذكر بعضُ الشافعية ما هو ظاهرٌ فى أَنَّ النظرَ فى كتابِ الغيرِ من كتبِ العلم لا يَحْرُمَ ، وفى الحديث عن النبى ﷺ : « مَنْ نظر فى كتابِ أخيه بغير

(١) أبو داود فى الخراج والإمارة ، ب فى العرافة (٢٩٣٣) .
(٢) أحمد ٤/ ١٣٣ .

إذنه فكأنما ينظرُ فى النار » [1] .

قال ابن الأثير فى « النهاية » : وهذا محمولٌ على الكتاب الذى فيه سِرٌّ وأمانةٌ يكره صاحبه أنْ يطلع عليه ، قال : وقيل : هو عام فى كُلِّ كتاب [2] .

وقال البخارىُّ : (باب مَنْ نظر فى كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره) [3] وذكر كتابَ حاطب بن أبى بلتعة وقصته ، وهذا متوجهٌ فى العلم ومع الظنِّ فيه نظرٌ ، ويحرم مع الشَّكِّ . والقصة قضية عين .

قال فى « شرح مسلم » : فيه هتكُ سِتْرِ المفسد إذا كان فيه مصلحةٌ [أو كان فى السترِ مفسدة ، وإنما يندب الستر إذا لم يَكُنْ فيه مفسدةٌ ولا تفوتُ به مصلحة] [4] .

فصل فى بذل العلم ومنه إعارة الكتب

قال الخلال : (كراهية حبس الكتاب) قال المروذى : قلت لأبى عبد اللّه : رجلٌ سقطت منه ورقةٌ فيها أحاديث فوائد فأخذتها ، ترى أنْ أنسخَها وأسمعها ؟ قال : لا ، إلا بإذن صاحبها . وقال يونس بن يزيد : قال لى الزهرى : إياكَ وغلولَ الكتبِ ، قال : حَبْسها عن أهلها . انتهى ما ذكره الخلال .

وقال الطحاوى : كان الشافعىُّ قد طلب من محمد بن الحسن كتابَ « السِّيَر » فلم يُجِبْهُ إلى الإعارةِ ، فكتب إليه :

قُلْ للذى لم ... تَرَ عين مَنْ رآه مثله
حتى كأن مَنْ رآ ... ه قد رأى من قبله
العلمُ ينهى أهله ... أنْ يمنعوه أهله
لعله يبذله ... لأهله لعله

فوجه إليه به فى الحال هديةً لا عارية .

وقال ابن الجوزى : ينبغى لمن مَلَكَ كتاباً ألا يبخلَ بإعارته لمن هو أهله . وكذلك ينبغى إفادة الطالبين بالدلالةِ على الأشياخِ وتفهيم المُشْكل ، فإنَّ الطلبةَ قليلٌ وقد عَمَّهُمُ الفقرُ فإذا بخل عليهم بالكتاب والإفادة كان سبباً لمنع العلم .

---

(١) فتح البارى ١١/١٤٣ ، وأبو داود فى الصلاة ، ب الدعاء (١٤٨٥) عن ابن عباس .
(٢) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٤/١٤٨ .
(٣) البخارى فى الاستئذان ، ب من نظر فى كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره (٦٢٥٩) عن على بن أبى طالب .
(٤) سقط فى المخطوطة ، وهو فى أ ، ر ، ط .

قال سفيان: تَعَجَّلُوا بركةَ العلم، ليفد بعضكم بعضاً، فإنكم لعلكم لا تبلغون ما تؤمِّلون. وقال وكيع: أولُ بركةِ الحديث إعارة الكتب . وقال ابن المبارك : من بخل بالعلم ابتلى بثلاث : إما أن يموت فيذهب علمه ، أو ينساه ، أو يتبع السلطان .

فصل فى قيام أهل الحديث الليل وخشوعهم

باتَ عند الإمام أحمد رجلٌ ، فوضع عنده ماء ، قال الرجل : فلم أَقُمْ بالليلِ ولم أستعمل الماء ، فلما أصبحتُ قال لى : لِمَ لا تستعمل الماء ؟ فاستحييتُ وسكت ، فقال : سبحان اللّه ! سبحان اللّه ! ما سمعتُ بصاحبِ حديث لا يقومُ بالليل . وجرت هذه القصة معه لرجلٍ آخر ، فقال له : أنا مسافر ، قال : وإنْ كنتَ مسافراً ، حَجَّ مسروقٌ فما نامَ إلا ساجداً ! قال الشيخ تقى الدين : فيه أنه يُكْرَهُ لأهلِ العلم تركُ قيامِ الليل وإن كانوا مسافرين.

وقال بشر بن الحارث : ينبغى لأصحابِ الحديث أنْ يُنْزِلوه بمنزلةِ الدراهم يعلّمون من كل مائتين خمسة .

وقال سفيان : فى الإنجيل : لا تطلبوا عِلْمَ ما لم تَعْلَمُوا حتى تعملوا بما قد عَلِمْتُمْ .

وصَحَّ عن الحسن قال : كان الرجلُ يسمع البابَ من أبواب العلم فيعلمه ، فيعمل به فيكون خيراً له من الدنيا وما فيها لو كانت له فوضعها فى الآخرة .

وقال أبو جعفر أحمد بن بديل : لقد رأيتنا ونحن نكتبُ الحديثَ فما يسمع إلا صوت قلمٍ أو باكٍ .

وقال عبد اللّه : كان أبى ساعةَ يُصلى عشاء الآخرة ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم إلى الصباح يصلى ويدعو .

وقال إبراهيم بن شماس : كنت أعرفُ أحمدَ بن حنبل وهو غلامٌ وهو يُحْيِى الليلَ .

فصل فى الأدب مع المحدث ومنه التجاهل والإقبال والاستماع

قال الخلال : أخبرنا الدورى قال : سمعتُ أبا عبيد القاسم بن سَلاَّم يقول : إنَّ من شُكْرِ العلْمِ أنْ يجلسَ مع رجلٍ فيذاكره بشىءٍ لا يعرفه ، فيذكر له الحرف عند ذلك فيذكر ذلك الحَرفَ الذى سمعه من ذلك الرجل ، فيقول : ما كان عندى من هذا شىءٌ حتى سمعتُ فلاناً يقولُ فيه كذا وكذا ؛ فإذا فعلتَ ذلك فقد شكرتَ العلم ، ولا تُوهمهم أنَّك قلت هذا من نفسك .

وقال ابنُ الجوزىِّ : وإذا روى المُحَدَّثُ حديثاً قد عَرَفَهُ السامعُ ، فلا ينبغى أنْ يُداخِلَهُ فيه ، قال عطاء بن أبى رباح : إنَّ الشاب ليحدثنى بحديث فأستمع له كأنى لم أسمعه ولقد سمعتهُ قبل أنْ يولد ، ثم روى بإسناده عن خالد بن صفوان قال : إذا رأيتَ مُحَدِّثاً يُحَدِّثُ حديثاً قد

سمعتَهُ أو يُخبرُ بخبرٍ قد علمته، فلا تشاركه فيه حرصاً على أنْ يعلم مَنْ حَضَرَكَ أنك قد علمته؛ فإن ذلك خِفَّةٌ فيكَ وسوءُ أدب .

وروى أبو حفص العُكْبَرِىُّ فى « الأدب » له : عن ابن وهب قال : إنى لأسمعُ من الرجل الحديثَ قد سمعته قبل أنْ يجتمع أبواه ، فأُنصت له كأنى لم أسمعه ، ثم روى ما تَقَدَّمَ عن عطاء ، ثم قال : سمعت أبا على الحسن بن عبد اللّه جليس أبى أحمد الفقيه البغدادى يقول : يروى عن سفيان الثورى أنه قال ، وتراه يعجب من حديثه ولعله أدرى به . وروى ما تقدم عن خالد بن صفوان ، وروى ذلك ابن بطة .

قال ابنُ الجوزىِّ : ومتى أشكل شىءٌ من الحديثِ على الطالب صبرَ حتى ينتهى الحديث ، ثم يستفهم الشيخ بأدبٍ ولطف ، ولا يقطع عليه فى وسط الحديث . قال : وفى أصحاب الحديثِ مَنْ يُنزلُ جزءاً فى جزء ويُوهم الشيخ أنه جزءٌ واحد ، ومثلُ هذه الأفعال لا يجوزُ اعتمادها .

وروى ابن بطة عن إبراهيم بن الجنيد : قال حكيم لابنه : تَعَلَّمْ حُسْنَ الاستماع كما تعلم حسن الكلام ؛ فإنَّ حُسْنَ الاستماع إمهالكَ للمتكلم حتى يُفضى إليك بحديثِه والإقبال بالوجه والنظر وترك المشاركةِ له فى حديثٍ أنتَ تعرفهُ ، وأنشد :

ولا تشارك فى الحديث أهْلَهُ وإنْ عرفتَ فَرعهَ وأصلَهُ

وروى أيضاً عن الهيثم بن عدى (١) قال : قالت الحكماء : إن من الأخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجلِ على كلامه ، والاعتراض فيه لقطع حديثه .

وروى أيضاً عن مجاهد قال لقمان لابنه : إياك إذا سُئِلَ غيرك أنْ تكون أنتَ المجيب كأنك أصبتَ غنيمةً أو ظفرتَ بعطيّةٍ ، فإنك إنْ فعلتَ ذلك أزريتَ بالمسؤول وعَنَّفتَ السائل ، ودللتَ السُّفهاء على سفاهة حلمكَ وسوءِ أدبك ، يا بنىَّ ليشتدَّ حِرْصُكَ على الثناء من الأكفاء ، والأدب النافع ، والإخوان الصالحين .

قال ابن بطة : كنتُ عند أبى عمر الزاهد فسئل عن مسألة ، فبادرتُ أنا فأجبتُ السائلَ ، فالتفتَ إلىَّ فقال لى : تعرف الفضوليات المنتقبات ؟ يعنى أنت فضولى ، فأخجلنى . وذكر ذلك أيضاً أبو جعفر العكبرى فى « الأدب » له .

---

(١) هو الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن بن زيد بن أسيد بن جابر الأخبارى العلامة أبو عبد الرحمن الطائى الكوفى المؤرخ ، حدث عن هشام بن عروة ، ومجالد ، وابن أبى ليلى وغيرهم ، وروى عنه محمد بن سعد وأبو الجهم الباهلى وغيرهما ، اختلف فى توثيقه ، توفى سنة سبع ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٠/١٠٣ ، ١٠٤] .

فصل

فى طبقات القاضى أبى الحسين زهير بن أبى زهير : نقل عن إمامنا أشياء منها قال : قلتُ لأحمد : إنَّ فلاناً ــ يعنى أبا يوسف ــ ربما سعى فى الأمورِ مثل المصانع والمساجدِ والآبار ، فقال لى أحمد : لا لا ، نَفْسُه أوْلى به . وكره أن يبذل الرجلِ وجهه ونفسه لهذا . وذكره أيضاً الخَلاَّل ، وأبو يوسف هو الغسولى .

وقال مهنا : سمعتُ بشر بن الحارث وذكر له رجل يسألُ الناسَ فقال بشر : مَنْ يقتدى به فى هذا ؟ فقال: مالكُ بن دينار ، فقال له بشر : أريدُ أرفع من مالك بن دينار ، فسمعتُ بشراً يقول له : لا تفعلْ ، ولا تطلبْ من صاحبِ دنيا حاجةً ، دعْهُ حتى يكونَ هو يطلب إليك .

وكان المتوكل على اللّه يبعثُ يحيى بن خاقان إلى الإمام أحمد كثيراً ويسأله عن أشياء . قال المروذى : وقال لى أبو عبد الله : قد جاءنى يحيى بن خاقان ومعه شوى ، فجعل يقلله أبو عبد اللّه ، فقلتُ له : قالوا : إنها ألف دينار ، قال : هكذا ، فرددتها عليه ، فبلغ الباب ثم رجع فقال : إن جاءك لأحد من أصحابك شىء تقبله ؟ قلت : لا ، قال : إنما أريد أن أخبر الخليفة بهذا. قلتُ لأبى عبد اللّه : أى شىء كان عليكَ لو أخذتَها فقسمتها ؟ فكلحَ فى وجهه، وقال : إذا أنا قسمتها ، أى شىء كنت أريد أن أكون له قهرماناً ؟!

وقال أبو طالب لأبى عبد اللّه : رجلٌ جاءنى ومعه دراهم ، فقال لى : خُذْ هذه الدراهم، فَتصدَّقْ بها فى جيرانك ، فأبيتُ فلم يَزَلْ يطلبُ إلىَّ ، فأبيتُ ، فقال : لا يحلُّ لك ولا يسعك أن تمنعَ المساكينَ والفقراء ، فلم آخذها ؟ أكون قد أثمتُ إذا رددتها ؟ قال : لم تأثم، مَنْ يَسْلَمُ من هذا ؟ قد أحسنتَ ، لو أخذتها لم تسلم . وروى يعقوب عنه : إن لم يتعرض له كان أسلم له .

وروى الخلال عن أبى الدرداء قال : ما أحبُّ أنَّ معاويةَ بعث إلىَّ ثلاثةَ آلاف دينار فأتصدق بها ، فقيل له : أولم تؤجر ؟ ولا تَرُدُّ شيئاً ، فقال : إنى أخاف وساوس نفسى وعواذلَ قومى ، فَيُحبط ذلك أجرى ، والسلامةُ أحبُّ إلى .

وقال الخلال فى « الأخلاق » : حدثنا إبراهيم بن جعفر بن حاتم ، حدثنى محمد بن الحسين بن الجنيد ، عن هارون بن سفيان المستملى قال : جئتُ إلى أحمد بن حنبل حين أرادَ أنْ يُفَرِّقَ الدراهم التى جاءته من المتوكل ، قال : فأعطانى مائتى درهم ، فقلتُ : لا تكفينى ، قال: ليس هاهنا غيرها ، ولكن هو ذا أعمل بك شيئاً ، أعطيك ثلاثمائة تفرقها ، قال : فلما أخذتها قلت : يا أبا عبد اللّه ، ليس واللّه أُعطى أحداً منها شيئاً فتبسم .

وقال صالح لأبيه : ما تقول فى امرأة مسكينة تكونُ معى فى دارى فربما أتونى بشىءٍ للمساكين ، فأعطيها منه إذا قسمتُ ، فقال : لا تُحابِهَا وأعطها كما تعطى غيرها .

فصل فى الاشتغال بالمذاكرة عن النوافل وفضل أهل السنة والأصدقاء

قال عبد اللّه بن أحمد : لما قدم أبو زرعة نزلَ عند أبى فكان كثيرَ المذاكرة له ، فسمعتُ أبى يوماً يقول : ما صليتُ غيرَ الفرائض ، استأثرتُ بمذاكرةِ أبى زرعة على نوافلى .

وروى الخلال فى أخلاق أحمد أنَّ إسحاق قال : كنا عند عبد الرزاق أنا وأحمد بن حنبل، قال : فمضينا معه إلى المصلَى يوم عيد ، قال : فلم يكبر عبد الرزاق ولا أنا ولا أحمد بن حنبل قال : فقال لنا : رأيت مَعْمَراً والثورى فى هذا اليوم كَبَّرا فكبرتُ ورأيتكما لا تُكبران فلم أُكَبِّرْ ، أو قال : ورأيتكما لا تكبران فَهبتُ ، قال عبد الرزاق : فَلِمَ لم تكبرا ؟ قال فقلنا : نحنُ نرى التكبيرَ ، ولكن شُغِلْنا بأىِّ شىءٍ نَبتدئ من الكتب ؟

وقال صالح بن موسى أبو الوجيه : سمعتُ أبا عبد اللّه يقول : ومَنْ يفلتُ من التصحيف؟ لا يفلت أحدٌ منه .

وقال الخلال : أخبرنا طالبُ بن حرة الأذنى قال : حضرتُ أحمدَ بن حنبل فقال : علامةُ المريد ، قطيعةُ كُلِّ خليطٍ لا يريدُ ما تريد .

وفى « طبقات القاضى أبى الحسين » : أخبرنا محمد بن أبى الصقر ، حدثنا هبة اللّه الشيرازى [1] ، حدثنا على بن محمد بن طلحة ، أنبأنا سليمان الطبرانى ، حدثنا عبد اللّه بن أحمد ، حدثنا أبى ، قال : قبورُ أهلِ السنة من أهلِ الكبائر روضةٌ ، وقبورُ أهل البدع من الزنادقة حفرةٌ ، فُسَّاقُ أهل السنة أولياء اللّه ، وزُهَّادُ أهلِ البدعة أعداء اللّه . وقال عبد اللّه بن أحمد : سئل أبى : لِمَ لا تَصحب الناسَ ؟ قال : لوحشة الفراق . وروى ابن بطة عن محمد ابن الحنفية قال : وحشةُ الانفراد أبقَى للعزِّ من مؤانسة اللقاء .

وقال عبد اللّه بن جعفر : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول ، وسئل عن الرجل يكتبُ الحديثَ فيكثُر ، قال : ينبغى أنْ يكثر العملَ به على قَدْرِ زيادته فى الطلب ، ثم قال : سبيلُ العلم مثل سبيلِ المال ، إنَّ المال إذا زادَ زادتْ زكاته .

وفى «طبقات القاضى أبى الحسين»: وأنبأنا يوسف بن محمد المهروانى، حدثنا عبد الواحد ابن عبد العزيز ، سمعت المطيع الخليفة على المنبر يقول فى يوم عيد : سمعتُ شيخى عبد اللّه البغوى يقول : سمعتُ الإمامَ أحمد بن حنبل يقول : إذا مات أصدقاءُ الرجل ذلَّ .

وقال عبد اللّه : حدثنى أبى : حدثنا سفيان بن عيينة قال : قال لى أيوب : إنه ليبلغنى موتُ الرجل من إخوانى ، فكأنما سقط عضوٌ من أعضائى .

---

(١) هو هبة الله بن عبد الوارث بن على الإمام الحافظ المحدث أبو القاسم الشيرازى ، حدث عن أحمد بن طوق الموصلى ، وأبى جعفر بن المسلمة وغيرهما ، وروى عنه عمر بن أحمد الصفار ، وأحمد بن ياسر المقرئ وغيرهما ، كان ثقة خيراً ، كثير العبادة ، مات سنة ست وثمانين وأربعمائة . [سير أعلام النبلاء ١٧/١٩ ــ ١٩] .

فصل فى قضاء الحوائج والشفاعة فيها لدى الأئمة والسلاطين

قد سبق فى الاستئذان كلام يتعلق بقضاء الحوائج والمساعدة عليها ، وجاء رجلٌ إلى أبى الحسن بن سهل يستشفعُ به فى حاجة فقضاها ، فأقبل الرجلُ يشكره فقال له الحسنُ بن سهل : عَلامَ تشكرنا ونحن نرى أنَّ للجاهِ زكاةً كما أنَّ للمالِ زكاةً ؟ وفى لفظ : ونحن نرى أن كَتْبَ الشفاعات زكاة مروءاتنا ، ثم أنشأ يقول :

فرِضَتْ علىَّ زكاةُ ما مَلكتْ يدي ... وزكاةُ جاهي أنْ أُعينَ وأشفعا
فإذا ملكتَ فَجُدْ فإنْ لم تستطع ... فاجهدْ بوسعكَ كُلِّه أنْ تنفعا

وقال القاضى المعافى بن زكريا : ولله در القائل :

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعة ... من جاهه ، فكأنما من ماله

وروى ابنُ أبى شيبة فى « مصنفه » ، وابنُ ماجه من حديث موسى بن عبيدة الرَّبَذى ــ وهو ضعيف ــ عن جُمْهان ، عن أبى هريرة مرفوعاً : « لكلِّ شىءٍ زكاةٌ ، وزكاةُ الجسدِ الصومُ» (١) ، وقال بعضهم :

وإذا السعادة أحرستك عيونُها ... نَمْ فالمخاوف كُلُّهُنَّ أمان (٢)
واصْطَدْ بها العَنْقَاءَ فى حبائل ... واقْتَدْ بها الجوزاءَ فهى عَنَان

وعن أبى موسى رضى اللّه عنه : عن النبىِّ ﷺ أنه كان إذا أتاه السائلُ أو صاحبُ الحاجة قال: « اشفعوا فلتؤجروا ، ويَقضى اللّهُ على لسانِ رسوله ما شاء ».رواه البخارى ومسلم (٣). وفى لفظة : « تؤجروا » ، رواه أحمد (٤) ، ولأبى داود : « اشفعوا إلىَّ لتؤجروا ، وليقض اللّهُ على لسان رسوله ما شاء » (٥) .

وعن معاوية ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنَّ الرجلَ ليسألنى عن الشىءِ ، فأمنعه كى تَشْفَعُوا له فَتُؤْجَرُوا » (٦) .

---

(١) ابن أبى شيبة فى مصنفه فى الصوم ، ب من كان يكثر الصوم ويأمر بذلك ٣/ ٧ ، وابن ماجه فى الصوم، ب فى الصوم زكاة الجسد (١٧٤٥) . وقال فى الزوائد : « إسناد الحديث عن الطريقين معا ضعيف فيه موسى بن عبيدة الزيرى ومدار الطريقين عليه ، وهو متفق على تضعيفه » .

(٢) المحفوظ : وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم . . . . . .

(٣) البخارى فى الأدب ، ب قوله تعالى : ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ (٦٠٢٨) ، ومسلم فى البر والصلة ، ب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام (٢٦٢٧/ ١٤٥) .

(٤) أحمد ٤/ ٤٠٠ .

(٥) أبو داود فى الأدب ، ب فى الشفاعة (٥١٣١) .

(٦) النسائى فى الزكاة ، ب الشفاعة فى الصدقة (٢٥٥٧) .

وقال رسول الله ﷺ : « اشفعوا تؤجروا » . رواه النسائى عن هارون بن سعيد الأيلى ، عن سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن وهب بن منبه ، عن أخيه همام ، عن معاوية . إسناد جيد (١) .

وقال ابنُ عبد البر عن رسولِ اللّه ﷺ قال : « استعينوا على حوائجكم بالكتمان ؛ فإنَّ كَلَّ ذى نعمةٍ محسود » (٢) .

وقال محمد بن واسع لقتيبةَ بن مسلم : إنى أتيتك فى حاجة رفعتها إلى اللّه قَبلكَ ، فإنْ يأذنِ اللهُ فيها قضيتَها وحمدنَاك ، وإنْ لم يأذن اللّه فيها لم تَقْضِهَا وعَذَرْنَاكَ . وقال يونس :

أنزلتُ بالحُرِّ إبراهيم مسألةً ... أَنْزَلْتها قبل إبراهيم باللّهِ
فإنْ قضى حاجتى فاللّه يَسَّرَها ... هو المُقدِّرُها والآمرُ الناهى
إذا أبى اللّهُ شيئاً ضاق مذهَبُهُ ... عن الكبيرِ العريضِ القَدْرِ والجاهِ

قال أبو العتاهية (٣) :

خيرُ المذاهبِ فى الحاجاتِ أَنْجَحُهَا ... وأضيق الأمر أدناهُ إلى الفَرَجِ

وكتب سَوَّار بن عبد اللّه بن سَوَّار القاضى إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر :

لنا حاجةٌ والعُذْرُ فيها مُقَدَّمٌ ... خفيفٌ ومعناها مضاعفةُ الأجر
فإنْ تَقْضِهَا فالحمدُ للّهِ ربِّنَا ... وإن تَكُنِ الأخرى ففى واسعِ العذر
على أنه الرحمن مُعْطٍ ومانع ... وللرزقِ أسبابٌ إلى قدر يجرى

فأجابه محمد بن طاهر :

فَسَلْها تَجِدْنى مُوجباً لقضائها ... سريعاً إليها لا يُخَاطِبُنى فكر
شَكُورٌ بإفضالى عليكَ بمثلها ... وإنْ لم يكن فيما حوته يدى شكرُ
فهذا قليلٌ للذى قد رأيته ... لحقِّكَ لا منٌّ لدىَّ ولا ذخرُ

---

(١) انظر التخريج السابق .

(٢) أبو نعيم فى حلية الأولياء ٥/ ٢١٥ ، وقال : « غريب من حديث خالد تفرد به عنه ثور حدث به عمرو بن يحيى البصرى عن شعبة عن ثور » .

(٣) هو رأس الشعراء ، الأديب الصالح الأوحد ، أبو إسحاق ، إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزى مولاهم الكوفى ، نزيل بغداد ، لقب بأبى العتاهية لاضطراب فيه ، سار شعره لجودته وحسنه وعدم تقعره ، قال فى المواعظ والزهد فأجاد ، توفى فى جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٥ ــ ١٩٨] .

وقال جعفر بن محمد : حاجةُ الرجل إلى أخيه فتنةٌ لهما ، إنْ أعطاه شكر مَنْ لم يُعْطِه ، وإنْ منعه ذَمَّ مَنْ لم يمنعه . وقال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج عند غير أهلها ، ولا تطلبوها فى غير حينها ، ولا تطلبوا ما لا تستحقون منها ، فإنَ مَنْ طلب ما لا يستحق ، استوجب الحرمان .

وقال رجلٌ للعباس بن محمد أو لعبد اللّه بن العباس : أتيتُكَ فى حاجةٍ صغيرة ، قال : فاطلبْ لها رجلاً صغيراً .

وقيل لآخر : أتيتك فى حاجة صغيرة ، قال : اذْكُرْها فإنَّ الحُرَّ يقومُ بصغيرِ الحاجات وكبيرها . كان يقال : لا تستعن على حاجةٍ بمن هى طُعْمتُه ، ولا تستعنْ بكذابٍ فإنه يُقرِّبُ البعيدَ ويُباعدُ القريبَ ، ولا تستعنْ على رجلٍ بمن له إليه حاجة .

وقال بعضهم : أصلُ العبادة ألا تسألَ سوى اللّه حاجةً ؛ فلكلِّ أحدٍ فى اللّه عِوضٌ من كلِّ أحدٍ ، وليس لأحدٍ من اللّه عوضٌ بأحد . وقال أبو الأسود :

وإذا طلبتَ إلى كريمٍ حاجةً ... فلقاؤهُ يكفيكَ والتسليمُ
وإذا طلبتَ إلى لئيمٍ حاجة ... فألحَّ فى رفق وأنتَ مُديمُ

وقال آخر :

لا تَطْلُبَنَّ إلى لئيمٍ حاجةً ... واقعدْ فإنك قائمٌ كالقاعدِ
يا خادعَ البخلاء عن أموالهم ... هيهاتَ ، تضربُ فى حديدٍ باردِ

وقال أبو العتاهية :

اقضِ الحوائجَ ما استطعـ ... ـتَ وكُنْ لهمٍّ أخيك فارجْ
فَلَخَيْرُ أيامِ الفتى ... يومٌ قَضَى فيه الحوائجْ

وقال بعضهم : قالوا : مَنْ صبرَ على حاجته ظفرَ بها ، ومَنْ أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له . وقال على بن أبى طالب :

اصبرْ على مَضض الإدلاج فى السَّحَرِ ... وفى الرَّواح إلى الحاجات والبُكْرِ
لا تَضْجَرَنَّ ولا يُعْجزْك مَطْلَبُها ... فالنُّجْحُ يُتْلِفُ بين العَجْزِ والقصر
إنى رأيتُ وفى الأيام تَجْربةٌ ... للصبر عاقبةً محمودةَ الأثرِ
وقَلَّ مَنْ جَدَّ فى شىء تَطَلَّبَهُ ... واستشعرَ الصبرَ إلاَّ فاز بالظفرِ

وقال سفيان : الإلحاحُ لا يصلحُ ولا يَجْمُلُ إلا على اللّه عز وجل . وقال مُورّق العجلى: سألتُ ربى حاجةً عشرين سنة فما انقضتْ لى ولا يَئِسْتُ منها . وقال أبو العتاهية :

فى الناس مَنْ تَسْهُلُ المطالبُ أحـ ـياناً عليه وربما صعبتْ
ما كل ذى حاجةٍ بِمُدْرِكِهَا كم من يدٍ لا تنالُ ما طلبتْ
مَنْ لم يَسَعْهُ الكفافُ معتدلاً ضاقتْ عليه الدُّنَا بما رَحُبَتْ

وقال بعضهم : استعينوا على الناس فى حوائجكم بالتثقيل فذلك نُجْحٌ لكم .

وقال آخر :

منْ عَفَّ خَفَّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملولُ

وكتب أبو العتاهية إلى بعض أصحابه يعاتبه فقال :

لئن عدتُ بعد اليوم إني لظالم سأصرفُ نفسى حين تُبْغَي المكارمُ
متى يُنْجِحُ الغادى إليك بحاجةٍ ونِصْفُكَ محجوبٌ ونِصْفُكَ نائمُ

وسئل بعض الحكماء حاجة فامتنع ، فَعُوتِبَ فى ذلك فقال : لأَنْ يَحْمَرَّ وجهى مرة خير من أنْ يَصْفَرَّ مراراً . وقال منصور الفقيه :

مَنْ قال لا فى حاجة مطلوبة فما ظَلَمْ
وإنما الظالم مَنْ يقول لا بعد نعم

وقال آخر :

إنَّ لا بَعْدَ نَعَمْ فاحشَةٌ فبلا فابدأْ إذا خِفْتَ النَّدَمْ
وإذا قلتَ : نَعم فاصبرْ لها بنَجَازِ الوعدِ إنَّ الخُلْفَ ذَمْ

وسبق ما يتعلق بهذا فى الاستئذان ، وقبله فى فصول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الإنكار على ولاة الأمور .

وفى ترجمة عبد اللّه بن عثمان عبدان ، شيخ البخارىِّ ، أنه قال : ما سألنى أحدٌ حاجةً إلا قمتُ له بنفسى ، فإنْ تَمَّ وإلا قمتُ له بمالى ، فإنْ تم وإلا استعنا له بالإخوان ، فإن تم وإلا استعنتُ له بالسلطان .

وينبغى ألا يندمَ مَنْ رُدَّتْ شفاعتهُ ولا يُنادى على مَنْ لم يقبلها ، ويفتح باب العذر . وسيدُ الخلائقِ رسول اللّه ﷺ وهو أعظمُ حقاً وأوْلى بكلِّ مؤمنٍ من نفسه بإجماع العلماء .

وقد روى البخارى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : كان زوج بريرة عبداً يقال له : مُغيث كأنى أنظرُ إليه يطوفُ خلفها يبكى ودموعه تسيلُ على لحيته ، فقال النبى ﷺ للعباس : « ألا تَعْجَب من حُبِّ مُغيث بريرةَ ، ومن بُغْضِ بريرةَ مغيثاً ؟ » فقال لها النبى ﷺ : « لو راَجَعْتِيه ، فإنه أبو ولدك » قالت : يا رسولَ اللّه ، تأمرنى ؟ قال : « لا ، إنما أشفع » ، قالت : فلا حاجةَ لى فيه [1] . والناسُ فى هذا الأمر ورد شفاعتهم وعدم قبولها متفاوتون جداً كما هو معلوم من أحوالهم ، واللّه أعلم .

قال ابنُ الجوزىِّ رحمه اللّه : كان هارون الرَّقِّىُّ قد عاهدَ اللّهَ ألا يسأله أحدٌ كتابَ شفاعة إلا فعل ،فجاءه رجلٌ فأخبره أنَّ ابنه قد أُسِرَ بالروم وسأله أنْ يكتبَ إلى ملك الروم فى إطلاقه، فقال له : وَيْحَكَ ومن أين يعرفنى ، وإذا سأل عنى قيل : هو مسلم ؛ فكيف يقضى حَقِّى ؟ فقال له السائلُ : اذكر العهدَ مع اللّه تعالى ، فكتبَ له إلى ملك الروم ، فلما قرأ الكتاب قال: مَنْ هذا الذى قد شفعَ إلينا ؟ قيل : هذا قد عاهد اللّه لا يُسألُ كتابَ شفاعة إلا كتبه إلى أىّ منْ كان ، فقال ملكُ الروم:هذا حَقيقٌ بالإسعاف ، أطلقوا أسيره واكتبوا جوابَ كتابِه ، وقولوا له: اكتبْ بكلِّ حاجةٍ تَعْرِضُ فإنا نُشَفِّعُك فيها . ويأتى الكلام فى الكرم والبخل .

وقال الإمام أحمد : حدثنى الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى ، عن عبدة بن أبى لبابة ، عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن للّه تعالى أقواماً اخْتَصَّهُمْ بالنعم لمنافعِ العباد ما بذلوها ، فإذا منعوها ، نزعها منهم وحَوَّلها إلى غيرهم » [2] . ذكره الحافظ بن الأخضر فيمن روى عن أحمد فى ترجمة أحمد بن محمد بن نصر اللباد أبى نصر ، رواه عن أحمد .

فصل

قال أبو بكر محمد بن عبيد اللّه الخلال : المذكور عن أحمد : إذا سألتم اللّه حاجة فقولوا: فى عافية .

قال سليمان القصير : قلتُ لأحمدَ بن حنبل : يا أبا عبد اللّه ، أيش تقول فى رجلٍ ليس عنده شىءٌ وله قرابةٌ ولهم وليمةٌ ، ترى أنْ يستقرضَ ويهدى لهم ؟ قال : نعم . رواه الخلال.

---

(١) أبو داود فى الطلاق ، ب فى المملوكة تعتق وهى تحت حر أو عبد (٢٢٣١) ، والنسائى فى القضاة ، ب شفاعة الحاكم للخصوم قبل فصل الحكم (٥٤١٧) ، وابن ماجه فى الطلاق ، ب خيار الأمة إذا أعتقت (٢٠٧٥) ، واللفظ لهما .

(٢) ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج ٢/ ١٥ ، وكنز العمال (١٦٠٠٨) ، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ١٩٥، وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفيه محمد بن حسان السمتى وثقه ابن معين وغيره وفيه لين. . . إلخ » ولم يعزه لأحمد .

فصل فى كراهة الشكوى من المرض والضير واستحباب حَمْد اللّه قبل ذكرهما

قال القاضى أبو الحسين فى « الطبقات » فى ترجمة أبى الفضل عبد الرحمن المتطبب : وقال أبو العباس محمد بن أحمد بن الصلت : سمعتُ عبد الرحمن المُتَطَبِّب ، يعرف بطبيب السنة يقول : دخلتُ على أحمد بن حنبل أعودُه فقلتُ : كيف تَجدُكَ ؟ فقال : أنا بعين اللّه ، ثم دخلتُ على بِشْرِ بن الحارث فقلت : كيف تجدك ؟ قال : أَحمدُ اللّه إليك ، أَجدُ كذا ، أَجدُ كذا ، فقلت : أما تخشى أنْ يكونَ هذا شكوى ؟ فقال : حدثنا المعافى بن عمران ، عن سفيان بن سعيد ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن علقمة والأسود قالا : سمعنا عبدَ اللّه بن مسعود يقول : قال رسولُ اللّه ﷺ : « إذا كان الشكرُ قبل الشكوى فليس بشاك » ، فدخلتُ على أحمد بن حنبل فحدثته فكان إذا سألته قال : أحمد اللّه إليك ، أجدُ كذا ، أَجد كذا .

قال الخلال فى عبد الرحمن هذا : كان يَأْنَسُ به أحمد وبشر بن الحارث ويختلفُ إليهما ، وأظنُّ أنَّ أبا الحسين نقل هذا من كتاب الخلال ، وهذا الخبرُ السابقُ متفقٌ عليه .

وقال الشيخ مجد الدين فى « شرح الهداية » : ولا بأس أنْ يُخبرَ بما يَجدُه من ألمٍ ووجعٍ لغرضٍ صحيح لا لقصد الشكوى . واحتج أحمد بقول النبىِّ ﷺ لعائشة لما قالت : وارأساه . قال : « بل أنا وارأساه » (١) .

واحتج ابن المبارك بقول ابن مسعود للنبىِّ ﷺ : إنك لَتُوعَكُ وعكاً شديداً فقال : « أجل إنى أُوعَكُ كما يوعكُ رجلان منكم » . متفق عليه (٢) .

وقال ابن عقيل فى « الفنون » قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**﴾ [الكهف : ٦٢] : يدلُّ على جوازِ الاستراحة إلى نوع من الشكوى عند مساس البلوى ، ونظيره ﴿ **يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ [يوسف : ٨٤] ، ﴿ **مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، « ما زالتْ أكلةُ خيبر تعاودنى » (٣) . انتهى كلام ابن عقيل .

وقال رجلٌ للإمام أحمد : كيف تجدك يا أبا عبد اللّه ؟ قال : بخير فى عافية ، فقال : حُمِمْتَ البارحة ؟ قال : إذا قلتُ لكَ : أنا فى عافية فَحَسْبُكَ لا تُخرجنى إلى ما أكره . قال

---

(١) أحمد ٦/ ١٤٤ ،وابن ماجه فى الجنائز ،ب ما جاء فى غسل الرجل امرأته (١٤٦٥) ، وفى الزوائد: «رجال إسناده ثقات » .

(٢) البخارى فى المرضى ، ب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل (٥٦٤٨) ، ومسلم فى البر والصلة ، ب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك ، حتى الشوكة يشاكها (٤٥/٢٥٧١) .

(٣) أحمد ٦ / ١٨ ، و البخارى فى المغازى ، ب مرض النبى ﷺ ووفاته (٤٤٢٨) ، والدارمى فى المقدمة ، ب ما أكرم النبى ﷺ من كلام الموتى ١/ ٣٢ ، ٣٣ . كلهم عن عائشة رضى الله عنها .

ابن الجوزى : إذا كانت المصيبةُ مما يمكن كتمانها فكتمانُها من أعمال اللّه الخفية .

وقال ابنُ الجوزىّ فى موضع آخر : شكوى المريض مُخْرِجَةٌ من التوكل . وقد كانوا يكرهون أنينَ المريض ؛ لأنه يترجمُ عن الشكوى ، وذكر هذا النص عن أحمد وقال : فأما وصفُ المريضِ للطبيبِ ما يجدُه فإنه لا يضره . انتهى كلامه .

وقال عبد اللّه : إنَّ أُختَ بشر بن الحارث قالت للإمام أحمد : يا أبا عبد الله ، أنينُ المريض شكوى ؟ قال : أرجو أنه لا يكونُ شكوى ، ولكنه اشتكى إلى اللّه . وذكر غير واحد فى كراهة الأنينِ للمريض روايتين ، ورُوِيت الكراهةُ عن طاووس .

وذكر الشيخ تقى الدين بن تيمية ما ذكر غيره من أنَّ الصبرَ واجبٌ قال : والصبر لا تنافيه الشكوى ، وقال فى مسألة العبودية : والصبرُ الجميلُ صبرٌ بغير شكوى إلى المخلوق ، ثم حكى عن أحمد تركه الأنينَ لما حُكِىَ له عن طاووس كراهته ، ثم قال : وأما الشكوى إلى الخالق فلا تُنافى الصبرَ الجميل . وقال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ** ﴾ [يوسف : ٨٤] فإن قيل : هذا لفظ الشكوى ، فأين الصبر ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما : أنه شكا إلى اللّه لا منه .

والثانى : أنه أراد به الدعاء ، فالمعنى : يا رب ارحمْ أسفى على يوسفَ ،وقال : قال ابنُ الأنبارىِّ : والحزن ونفور النفوس من المكروه ، والبلاء لا عيبَ فيه ولا مأثم إذا لم ينطق اللسانُ بكلام مُؤَثَّم ولم يشك من ربه ، فلما كان قولُه : يا أسفا شكوى إلى ربِّه ، كان غيرَ مَلُومٍ .

فصل فى شكر النعم والصبر على البلاء

وفوائده فى الالتجاء إلى اللّه

قال ابن عقيل فى « الفنون »: النعم أضيافٌ وقِراها الشكرُ، والبلايا أضياف وقِراها الصبر، فاجتهدْ أنْ ترحلَ الأضيافُ شاكرةً حُسْنَ القِرى ، شاهدة بما تسمع وترى . وقال : مِنْ حسن ظنى به أنه بلغ من لُطْفِه أنْ وصى ولدى إذا كبرت فقال : ﴿ **فَلا** (١) **تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ** ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، فأرجو إذا صرتُ عنده رميماً ألا يعسفَ ، لأنَّ أفعاله تشاكل أقواله .

وقال الشيخ تقى الدين : من تمام نعمة اللّه على عباده المؤمنين أنْ يُنْزِلَ بهم من الشدة والضُّرِّ ما يُلْجِئهم إلى توحيده فيدعونه مخلصينَ له الدين ، ويرجونه لا يرجون أحداً سواه ، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره ، فيحصلُ لهم من التوكل عليه والإنابة إليه وحلاوة الإيمان وذَوْقِ طعمه والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف ، أو الجدب أو الضر ، وما يحصلُ لأهلِ التوحيد المخصلين للّه الدين فأعظم من أنْ يُعبِّرَ عنه مقال ، ولكل

(١) فى المخطوطة : « ولا » وهو خطأ .

مؤمن من ذلك نصيبٌ بقدرِ إيمانه ، ولهذا قيل : يا بن آدم ، لقد بورك لك فى حاجة أكثرتَ فيها من قرعِ بابِ سيدك . وقال بعض الشيوخ : إنه ليكونُ لى إلى اللّه حاجةٌ فأدعوه فيفتح لى من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحبُّ معه أن يعجل قضاء حاجتى أن ينصرف عنى ذلك؛ لأن النفس لا تريدُ إلا حظها ، وقد قال ﷺ : « ذاق طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً » (١).

وقال أيضاً : « وجد طعم الإيمان » (٢) فوجود المؤمن حلاوةَ الإيمان فى قلبه وذوق طعمه أمرٌ يعرفه مَنْ حصل له هذا الوجد وهذا الذوق . فالذى يحصل لأهل الإيمان عند تجريد التوحيد يجذب قلوبهم إلى الله وإقبالهم عليه دون ما سواه ، بحيث يكونون حنفاء لله مخلصين له الدين ـ إلى أن قال ــ وهذا هو حقيقة الإسلام الذى بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه ، والله أعلم .

فصل فى الصبر والصابرين وفوائد المصائب والشدائد

قال الله تعالى :

﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة :١٥٥ ــ ١٥٧] .

وقال تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] إلى غير ذلك من الآيات .

وَصحَّ عنه عليه السلام الأمر بالصبر فى أحاديث . وروى أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أم سلمة : « ما منْ عبدٍ تُصيبه مصيبة فيقول : ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ اللهم أجْرِنى فى مصيبتى واخلفْ لى خيراً منها ، إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها»(٣).

وفى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد : « ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ ، وما أعطىَ أحدٌ من عطاءٍ خَيْرٌ وأوسع من الصبر »(٤) وخير مرفوع خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو خير .

---

(١) أحمد ١ / ٢٠٨ ، ومسلم فى الإيمان ، ب الدليل على أن من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ، فهو مؤمن ، وإن ارتكب المعاصى والكبائر (٣٤/٥٦) كلاهما عن العباس بن عبد المطلب.

(٢) أحمد ٢ / ٤٢٠ عن أبى هريرة .

(٣) أحمد ٦ / ٣٠٩ ، ومسلم فى الجنائز ، ب ما يقال عند المصيبة (٩١٨ / ٣ ، ٤) ، وابن ماجه فى الجنائز، ب ما جاء فى الصبر على المصيبة (١٥٩٨) .

(٤) البخارى فى الزكاة ، ب الاستعفاف عن المسألة (١٤٦٩) ، ومسلم فى الزكاة ، ب فضل التعفف والصبر (١٠٥٣ / ١٢٤) .

وروى « خيراً » .

وقال عليه السلام : « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسراً » (١).

فإذا عَلِمَ العبدُ أنه وما يملكه لله سبحانه حقيقةً ، لأنه أوجده من عَدَم ويعدمه أيضاً ويحفظه فى حال وجوده ،ولا يتصرف فيه العبد إلا بما يتاح له،وأن مرجعه إلى الله ــ ولابد ــ فرداً ، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَأْتِينَا فَرْدًا** ﴾ [مريم: ٨٠] . وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ [الأنعام :٩٤] .

وأنَّ ما أصابَهُ لم يكن لِيُخْطِئَهُ ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما قال عليه السلام (٢)، وكما قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد:٢٢، ٢٣] .

وأن الله لو شاء جعل مصيبته أعظم مما هى ، وأنه إن صبر أخلف الله عليه أعظم من فوات مصيبته ، و أن المصيبة لا تختص به فيتأسى بأهل المصائب ، ومصيبة بعضها أعظم ، وأن سرور الدنيا مع قلته وانقطاعه منغص .

وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لكل فرحة ترحة (٣)، وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً .

وقال ابن سيرين رحمه الله : ما كان ضحك قط إلا كان بعده بكاء ، وقد شاهد الناس من تغير الدنيا بأهلها فى أسرع ما يكون العجائب .

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر : لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكاً ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن من أقل الناس ، وإنه حق على الله ألا يملأ داراً حِبرة إلا ملأها عبرة .

وبكت أختها حرقة بنت النعمان يوماً وهى فى عزها فقيل : ما يبكيك ، لعل أحداً آذاك ؟ قالت : لا ، ولكن رأيت غَضارة فى أهلى وقلّما امتلأت دار سروراً إلا امتلأت حزناً . والغضارة : طيب العيش تقول : بنو فلان مغضورون ، وقد غضرهم الله ، وإنهم لفى غضارة

---

(١) أحمد ١ / ٣٠٧ ، ٣٠٨ عن ابن عباس .

(٢) أحمد ٥ / ١٨٢ ، ١٨٣ عن ابن الديلمى ، وابن ماجه فى المقدمة ،ب القدر (٧٧) .

(٣) التَّرح : نقيض الفرح ، وقد تَرِحَ تَرَحا وتَتَرَّح وتَرَّحه الأمر تتريحاً أى : أحزنه . انظر : اللسان ، مادة «ترح».

من العيش ، وفى غضراء من العيش أى : فى خصب وخير . قال الأصمعى : لا يقال : أباد الله خضراءهم ، ولكن : أباد الله غضراءهم أى : هلك خيرهم وغضارتهم .

وقالت حرقة أيضاً : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس ، إنا نجد فى الكتب : إنه ليس من أهل بيت يعيشون فى حبرة إلا سيعقبون بعدها عبرة ، وإن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه ، ثم قالت :

فبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرنا ... إذا نحن فيهم سُوقة نَتنصَّفُ
فأفٍّ لدنيا لا يدومُ نعيمُها ... تقلِّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرَّفُ

تنصَّف ، أى: خدم .

وعلم العبد أن الجزع لا يرد المصيبة بل هو مرض يزيدها ، وأنه يسر عدوه ويسىء محبه ، وإن فوات ثوابها بالجزع أعظم منها ومنه بيت الحمد الذى يبنى له فى الجنة على حمده واسترجاعه .

وفى البخارى عن أبى هريرة مرفوعاً : « يقول الله تعالى: ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صَفِيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » (١).

وفى الترمذى ــ وقال : غريب ــ عن جابر مرفوعاً : « يود ناسٌ يوم القيامة أن جلودهم كانت تُقرض بالمقاريض فى الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء »(٢) .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة مرفوعاً : « ما يصيبُ المسلمَ من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ، ولا هَمٍّ ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غَمٍّ حتى الشوكة يشاكها إلا كَفَّرَ الله من خطاياه »(٣) .

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، أىُّ الناس أشَدُّ بلاءً ؟ قال : « الأنبياءُ ثم الصالحون ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ من الناس ، يُبْتَلى الرجلُ على حسب دينه ، فإنْ كان فى دينه صلابةٌ زِيدَ فى بلائه ، وإن كان فى دينه رِقَّة خُفِفَ عنه ، وما يزالُ البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهر الأرض وليس عليه خطيئة » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً :« لا يزال البلاءُ بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يَلْقَى اللهَ وما عليه خطيئةٌ »(٤) صححهما الترمذى ، وروى الثانى مالك وأحمد (٥)، ورويا أيضًا والبخارى عن أبى هريرة مرفوعاً : « مَنْ يُرِدْ الله به خيراً يُصِبْ

---

(١) البخارى فى الرقاق ، ب العمل الذى يبتغى به وجه الله (٦٤٢٤) .
(٢) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى ذهاب البصر (٢٤٠٢) .
(٣) البخارى فى المرضى ، ب ما جاء فى كفارة المرض (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ، ومسلم فى البر والصلة ، ب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك (٢٥٧٣ / ٥٢) .
(٤) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الصبر على البلاء (٢٣٩٨ ، ٢٣٩٩) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .
(٥) أحمد ٢ / ٢٨٧ ، ٤٥٠ ، ومالك فى موطئه فى الجنائز ، ب الحسبة فى المصيبة ١ / ٢٣٦ (٤٠) .

منه »[1] .

وعن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « عَجَباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كله له خيرٌ : إنْ أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراءُ صَبَرَ فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » رواه مسلم [2].

ولأحمد عن أنس مرفوعاً : « عجبتُ للمؤمن ، إن الله تبارك وتعالى لم يَقْضِ له قضاءً إلا كان خيراً له » [3].

وعن أبى سعيد مرفوعاً : « أشَدُّ الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، إنْ كان أحدهم ليفرحُ بالبلاء ، كما يَفرحُ أحدكم بالرخاء » مختصر من ابن ماجه [4].

وعن شداد مرفوعاً : « يقول الله عز وجل : إذا ابتليتُ عبداً من عبادى مؤمناً ، فحمدنى على ما ابتليتُه ، فإنه يقومُ من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا » رواه أحمد [5].

وعن محمد بن إسحاق ، عن رجل من أهل الشام يقال له : منظور ، عن عمه عامر مرفوعاً: « إن المؤمن إذا أصابه سقمٌ ثم أعفاه الله منه كان كفارةً لما مضى من ذنوبه وموعظةً له فيما يستقبل ، وإن المنافقَ إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عَقَلَهُ أهله ثم أرسلوه فلم يَدْرِ لِمَ عَقَلُوهُ ولِمَ أرسلوه » رواه أبو داود [6].

ولمسلم من حديث عائشة : « ما من مسلم يُشَاكُ شوكةً فما فوقَها إلا رفعه الله بها درجة وحَطَّ عنه بها خطيئة »[7]، وما كفى أنْ فات حتى عصى بذلك ؛ لأنه أسخط ربه ، وفوات لذة عاقبة الصبر واحتسابه أعظم مما أصيب به لو بقى ، وعلم أن فى الله خلفاً ودركاً ؛ فرجا الخلف منه .

وقد روى الشافعىُّ : أنَّ النبىَّ ﷺ لما توفى سمعوا قائلاً يقول : « إنَّ فى الله عزاءً من كلِّ مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كُلِّ ما فات ، فبالله فَثِقُوا ، وإياه فارْجُوا ، فإنَّ المُصَاب مَنْ حُرِمَ الثواب ، وعلم العبد أنَّ حظه من المصيبة ما يُحدِثُه من خيرٍ وشر »[8].

---

(١) أحمد ٢ / ٢٣٧ ، والبخارى فى المرضى ، ب ما جاء فى كفارة المرضى (٥٦٤٥) ، ومالك فى موطئه فى العين ، ب ما جاء فى أجر المريض ٢ / ٩٤١ (٧).

(٢) مسلم فى الزهد ، ب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩ / ٦٤) .

(٣) أحمد ٣ / ١٨٤ .

(٤) ابن ماجه فى الفتن ب الصبر على البلاء (٤٠٢٤) ،قال فى الزوائد : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

(٥) أحمد ٤ / ١٢٣ .

(٦) أبو داود فى الجنائز ، ب الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٨٩) .

(٧) مسلم فى البر والصلة ،ب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك (٢٥٧٢ / ٤٦) .

(٨) الشافعى فى الأم فى الجنائز ، ب القول عند دفن الميت ١/٢٧٨ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده.

وعن محمود بن لبيد مرفوعاً : « إنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ، فمن رضىَ فله الرضا ، ومَنْ سخط فله السخط »[1] إسناده جيد ، وهو إسناد حديث : « إذا أحبَّ اللهُ عبداً حَماهُ الدنيا »[2] ولذاك إسناد آخر . قال البخارى وغيره فى محمود : له صحبة ، وقال أبو حاتم وغيره : لا صحبةَ له ، رواه الترمذى وأحمد وزاد : « ومَنْ جزع فله الجزع »[3] .

وعن أنس مرفوعاً : « إنَّ عظم الجزاءِ مع عِظَمِ البلاء ، وإنَّ الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » .

وعنه أيضاً : « إذا أراد الله بعبد خيراً عَجَّلَ له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه حتى يوافى به[4] يومَ القيامة » رواهما الترمذى[5] ، وقال : حسن غريب ، وروى ابن ماجه الأول[6] ، وروى أحمد الثانى من حديث عبد الله بن مغفل [7]. وعلم أنَّ آخرَ أمده الصبر وهو مثاب .

وفى « الصحيحين » من حديث أنس : « إنما الصبرُ عند الصدمة الأولى »[8] .

وقال الأشعث بن قيس : إنك إنْ صبرتَ إيماناً واحتساباً وإلا سلوت سُلُو البهائم ، وعلم أنَّ الذى ابتلاهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الراحمين ليمتحنَ صَبْرَهُ ويسمعَ تَضَرُّعَهُ ويخوفه ، قال تعالى :

﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٧٦] .

وقال تعالى : ﴿**وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الزخرف : ٤٨] .

قال الشيخ عبد القادر : يا بنى ، المصيبةُ ما جاءت لتهلك ، وإنما جاءت لتمتحنَ صبركَ وإيمانك ، يا بنى ، القَدَرُ سَبُعٌ ، والسَّبُعُ لا يأكل المَيْتَةَ ؛ فالمصيبةُ كِيرُ العبد ، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً ، كما قيل :

سَبَكْنَاهُ ونَحْسَبُهُ لُجَيْناً ... فأبدى الكيرُ عن خَبَثِ الحَدِيدِ

---

(١) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الصبر على البلاء (٢٣٩٦) ، وابن ماجه فى الفتن ، ب الصبر على البلاء (٤٠٣١) كلاهما عن أنس .

(٢) الترمذى فى الطب ، ب ما جاء فى الحمية (٢٠٣٦) .

(٣) أحمد ٥ / ٤٢٨ ، والترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الصبر على البلاء (٢٣٩٦) .

(٤) فى أ ، ر ، ط : « ربه » ، والمثبت من الترمذى .

(٥) الترمذى فى الزهد ، ب فى الصبر على البلاء (٢٣٩٦) .

(٦) ابن ماجه فى الفتن ، ب الصبر على البلاء (٤٠٣١) .

(٧) أحمد ٤ / ٨٧ .

(٨) البخارى فى الجنائز ، ب الصبر عند الصدمة الأولى (١٣٠٢) ، ومسلم فى الجنائز ، ب فى الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٦٢٦ / ١٤) .

اللجين : الفضة جاء مُصَغَّراً مثل الثُريَّا وكُمَيْت .

وعلم أنه لولا المصائبُ لبطرَ العبدُ وعجب ، وبَغَى وطغى ، فيحميه بها من ذلك ، ويُطَهّره مما فيه ، فسبحانَ مَنْ يَرْحم ببلائه ، ويبتلى بنعمائه كما قيل :

قد ينعمُ اللّه بالبلوى وإنْ عَظُمَتْ ويبتلى اللّه بعضَ القومِ بالنعمِ

وعَلِمَ أنَّ مرارةَ الدنيا حلاوة الآخرة والعكس بالعكس ، ولهذا قال عليه السلام : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » (١) .

وقال : « حُفَّتْ الجنةُ بالمكاره وحُفَّت النارُ بالشهوات » (٢) . ومعلوم أنَّ العاقلَ مَن احتمل مرارةَ ساعة لحلاوة الأبد ، وذُلَّ ساعَة لعزِّ الأبد ، هذا منْ لُطْف اللّه به حتى نظر فى العواقب والغايات ، والناس ــ إلا مَنْ عصم اللّه ــ آثروا العاجلَ لمشاهدته وضعف الإيمان .

وعلم أنه يُحبُّ ربه وأن المحب إن أسخطه فهو كاذب فى محبته ، ولهذا كان عمران بن حصين رضى اللّه عنه يقول فى مرضه: أحَبُّهُ إلىَّ أحَبُّهُ إليه. وكذا أبو العالية ، وقال أبو الدرداء رضى اللّه عنه : إن اللّه إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وعلم أنَّ مراتبَ الكمال مَنُوطَةٌ بالصبر والعكس بالعكس ، وأقل الأحوال ألا يتّهم رَبَّهُ فى قضائه له كما روى أحمد ، حدثنا حسن ، حدثنا ابنُ لَهيعَة ، عن الحارث بن يزيدَ ، عن على ابن رباح أنه سمع جُنَادَةَ بن أبى أمية يقول : سمعتُ عبادة بن الصامت يقول : إن رجلاً أتى النبىَّ ﷺ فقال : يا نبىَّ اللّه ، أىُّ العملِ أفضلُ ؟ قال : « الإيمانُ باللّه وتصديقٌ به وجهادٌ فى سبيله» ، قال : أريدُ أهونَ من ذلك يا رسولَ الله ، قال : « السماحة والصبر » قال : أريد أهون من ذلك يا رسول الله ، قال : « لا تَتَّهم اللّهَ فى شىءٍ قُضىَ لك»(٣)، ابن لهيعة فيه كلام مشهور .

وعن محمد بن خالد السلمى، عن أبيه عن جده مرفوعاً: « إنَّ العبدَ إذا سَبَقَتْ له من اللّه منزلةٌ لم يبلغها ، ابتلاه اللّه تعالى فى جسده أو فى ماله أو فى ولده ثم صَبَّرَهُ على ذلك حتى يُبلِّغَهُ المنزلةَ التى سَبَقَتْ له من اللّه عز وجل » رواه أحمد وأبو داود (٤) .

---

(١) أحمد ٢/ ٣٢٣ ، ومسلم فى الزهد ، ب فى الزهد والرقائق (٢٩٥٦/١) ، والترمذى فى الزهد ، ب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٣٢٤) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه فى الزهد ، باب مثل الدنيا (٤١١٣) كلهم عن أبى هريرة .

(٢) البخارى فى الرقاق ، ب حجبت النار بالشهوات (٦٤٨٧) ، وأبو داود فى السنة ، ب فى خلق الجنة والنار (٤٧٤٤) ، والنسائى فى الأيمان ، ب الحلف بعزة الله تعالى (٣٧٦٣) كلهم عن أبى هريرة ، ومسلم فى صفة الجنة ، باب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٢/١) ، والترمذى فى صفة الجنة ، باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات (٢٥٥٩) كلاهما عن أنس ، واللفظ لهما .

(٣) أحمد ٥/ ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٤) أحمد ٥/ ٢٧٢ ، وأبو داود فى الجنائز ، ب الأمراض المكفرة للذنوب (٣٠٩٠) .

وعن شيخ من بنى مرة ، عن بلال بن أبى بردة ، عن أبيه ، عن أبى موسى مرفوعاً : «لا يصيبُ المؤمنَ نكبةٌ فما فوقَها أو دونَها إلا بذنبٍ ، وما يعفو اللّهُ عنه أكثرُ » رواه الترمذى وقال: غريب (١) .

فإذا علم العبدُ هذه الأمور ونظرَ فيها وتأمَّلَها ، صبر واحتسبَ ، وحصلَ له من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا اللّه سبحانه . والناسُ فى هذا متفاوتون كغيره من الأمور . وسيأتى آخرُ فصولِ التداوى (فصل فى داء العشق) له مناسبةٌ وتَعَلُّقٌ بهذا واللّه أعلم ، وليس بجيدٍ ما أنشده محمد بن داود الظاهرى لنفسه :

يقولــون لــى فــى الصبــر رَوحٌ وراحــةٌ ... ولا عهــدَ لــى بالصبر مُـذْ خُلِقَ الحُبُّ
ولاشك أنَّ الصبرَ كالصبر [طَعْمُهُ](٢) ... وأنَّ ســبيلَ الصبــر مُمْتَنِــعٌ صَعبُ

وقد قال أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه « السر المصون » : اعلم أن من طلب أفعاله من حيث العقل المُجَرَّد فلم يجد ، يعترض . وهذه حالةٌ قد شملت خَلْقاً كثيراً من العلماء والجُهَّال، أولهم إبليس ، فإنه نظر بمجرد عقله ، فقال : كيف يفضل الطين على جوهر النار ؟ وفى ضمن اعتراضه أنَّ حكْمتَكَ قاصرةٌ وأنَّ رأيى أجود ، فلو لقيتُ أنا إبليس كنتُ أقولُ له : حَدِّثنى عن فَهْمكَ هذا الذى رفعتَ به أمرَ النار على الطين : أهو وَهَبَهُ لكَ أم حصل لك من غير موهبته ؟ فإنه سيقول : وَهَبه لى ، فأقول : أفيهب لك الفهم الذى لا تدركه حكمته ، فترى أنتَ الصوابَ ويرى هو الخطأ ؟ وتَبعَ إبليسَ فى تغفيله واعتراضه خَلْقٌ كثير مثل : ابن الرَّاوَنْدِىِّ والمَعَرِّى ، ومن قوله :

إذا كانَ لا يَحْظَى برزقك عاقلٌ ... وترزق مجنوناً وترزق أحمقــا
فلا ذَنْبَ يا رب السَّماء على امرئ ... رأى منكَ مـا لا يَشْتهى فتزندقا

وكان أبو على بن مقلة (٣) يقول :

أيا رب تخلق أقمــارَ ليــلٍ ... وأغصــانَ بــان وكثبــانَ رمــل
وتُبْــدعُ فى كـل طَرْفٍ بســحر ... وفى كـل قَـدٍّ رشيقٍ (٤) بشـكل

---

(١) الترمذى فى تفسير القرآن ، ب ومن سورة ﴿ حمٓ . عٓسٓقٓ ﴾ (٣٢٥٢) .
(٢) ساقطة من المخطوطة ، وهى فى أ ، ر ، ط .
(٣) هو أبو على محمد بن على بن حسن بن مقلة ، الوزير الكبير ، ولد بعد سنة سبعين ومائتين ، روى عن أبى العباس ثعلب ، وأبى بكر بن دريد ، وروى عنه عمر بن محمد بن سيف ، وأبو الفضل محمد بن الحسن بن المأمون وغيرهما ، له علم بالإعراب وحفظ للغة ، توفى فى ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة . [سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٢٤ ــ ٢٣٠] .
(٤) فى المخطوطة : « فى كل قدر سبق » ، والمثبت من ر .

وتَنْهى عبادكَ أنْ يعشقوا أيا حاكمَ العَدْلِ،ذا حكم عدل؟

وكان أبو طالب المكى يقول : ليس على المخلوقِ أضَرُّ من الخالق . قال ابن الجوزى : دخلت على صدقة بن الحسين الحداد وكان فقيهاً غير أنه كان كثير الاعتراض ، وكان عليه جَرَبٌ، فقال : هذا ينبغى أن يكون على جملٍ لا علىَّ .

وكان يتفقده بعض الأكابر بمأكولٍ فيقول : بَعَثَ لى هذا على الكبر وقتَ لا أقدرُ آكله . وكان رجلٌ يصحبنى قد قاربَ ثمانين سنة كثير الصلاة والصوم فمرض واشتد به المرض ، فقال لى : إنْ كان يريدُ أنْ أموتَ فيميتنى ، فأما هذا التعذيب فما له معنى . واللّه لو أعطانى الفردوس كان مكفوراً .

ورأيتُ آخر يَتزيَّا بالعلم إذا ضاق عليه رِزْقُه يقول : أَيشٍ هذا التدبير ؟ وعلى هذا كثيرٌ من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا ، وربما قالوا : ما نريد نصلى . وإذا رأوا رجلاً صالحاً يؤذى قالوا : ما يستحق ، قَدْ جافى القَدَرَ ! وكان قد جرى فى زماننا تَسَلُّطٌ من الظَّلَمَةِ ، فقال بعضُ مَنْ يتزيَّا بالدين : هذا حكم بارد . وما فهمَ ذاكَ الأحمقُ أن اللّه يملى للظالم .

وفى الحمقى مَنْ يقول : أىُّ فائدة فى خَلْقِ الحيات والعقارب ؟ وما علم أن ذلك أنموذجٌ لعقوبة المخالف . وبلغنى عن بعض مَنْ يتزيَّا بالعلم أنه قال : اشتهيتُ أنْ يجعلنى وزيراً فأدبر، وهذا أمرٌ قد شاع ، فلهذا مددتُ النَّفَسَ فيه .

واعلم أن المعترض قد ارتفع أن يكون شريكاً ، وعلا على الخالق بالتَّحكُّم عليه ، وهؤلاء كلهم كَفَرَةٌ ؛ لأنهم رأوا حِكْمةَ الخالقِ قاصرةً . وإذا كانَ تَوَقُّفُ القلَبِ عن الرضا بحكم الرسول ﷺ يخرجُ عن الإيمان. قال تعالى : ﴿ **فلا وربّك لا يؤمنون حتّىٰ يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا ممّا قضيت ويسلّموا تسليمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] ، فكيف يَصحُّ الإيمانُ مع الاعتراض على اللّه تعالى ؟!

وكان فى زمن ابن عقيل رجلٌ رأى بهيمةً على غاية من السقم فقال : وا رحمتى لك ، وا قلَّةَ حيلتى فى إقامة التأويلِ لمُعَذِّبك . فقال له ابنُ عقيل : إن لم تقدر على حملِ هذا الأمرِ لأجلِ رِقَّتكَ الحيوانية ، ومناسبتك الجنسية ، فعندكَ عقلٌ تعرف به تَحكُّمَ الصانع ، وحكمتُه تُوجبُ عليكَ التأويل ، فإنْ لم تجد استطرحتَ لفاطرِ العقلِ ، حيث خانكَ العقلُ عن معرفة الحِكْمة فى ذلك . واعلم أنَّ رضا العقلِ بأفعالِ الخالقِ سبحانه وتعالى أوفى العبادات وأشدها وأصعبها . ثم ذكر كلام ابن عقيل وفيه : وقد نبهنا على العجز عن ملاحظة العواقب فقال تعالى : ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾ [البقرة : ٢١٦] .

ففى عقولنا قُوةُ التسليم وليس فيها قدرةُ الاعتراض عليه . وقد يدعو الإنسانُ فلا يُجاب فيندم ، وهو يُدعى إلى الطاعة فيتوقف . فالعجب من عبيدٍ يقتضون الموالىَ اقتضاء الغريم ، ولا يقتضون أنفسهم بحقوقِ الموالى .

قال ابن الجوزى : وَمَنْ تأمل دقائقَ حكمته ومحاسنَ صفاته أخرجه حُبُّهُ إلى الهيمان فيه ، فإنَّ المعانىَ المُستَحْسَنَة تُحَبُّ أكثر من الصور ؛ ولهذا نحب أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضى اللّه عنهم لمعانيهم لا لصورهم ، فكيف لا تقع المحبة المختصة بالكامل المُنَزَّه عن نقص ؟ فوا أسفا للغافلين عنه ، وواحسرتا للجاهلين به . وقال ابنُ الجوزى قبل ذلك : مَنْ نظر إلى أفعاله بمجرد العقل أنكر ، فأما مَنْ علم أنه مالكٌ وحكيم وأن حكمته قد تخفى ، سَلَّمَ لِمَا لم يعلمْ عِلَّتَهُ ، فأفعالُه مسلمةٌ إلى حكمته .

وقد قال بعضُ الحكماء : مَنْ لم يحترز بعقله منْ عقله ، هَلَكَ بعقله . وهذا كلامٌ فى غاية الحسن ، فإنَّا إذا قلنا للعقل : هو حكيم قال : لا شَكَّ فى ذلك لأنى قد رأيتُ عجائبَ أفعاله المحكمة فعلمتُ أنه حكيم ، فإذا رأيتُ فيما يصدر ما ظاهرُهُ ينافى الحكمةَ نسبتُ العجزَ إلىَّ ولو لم يكن فى ذلك إلا أنَّ المرادَ تسليم العقول لما ينافيها ، وذلك عبادة العقول . قال : وصار هذا كما خَفِىَ عن موسى حكمةُ فِعْلِ الخضرِ ، وقد يخفى على العامى ما يفعله الملك ، فقد قال المتنبى :

يَدِقُّ عن الأفكارِ ما أنتَ فاعلُ

وقال ابن عقيل فى « الفنون » : الواحد من العوام إذا رأى مراكبَ مُقَلَّدة بالذهبِ والفضة، ودوراً مُشَيَّدة مملوءة بالخدم والزينة ، قال : انظر إلى ما أعطاهم مع سوءِ فعالهم ، ولا يزال يلعنهم ويذم مُعْطيهم ، ويُشفق حتى يقول : فلان يصلى الجماعاتِ والجمَعَ ولا يذوقُ قطرةَ خمرٍ ، ولا يؤذى الذَّرَّ ، ولا يأخذ ما ليسَ له ، ويؤدى الزكاةَ إذا كان له مال ، ويحج ويجاهد، ولا ينال خلة بقلة . ويظهر الإعجاب كأنه ينطقُ عن تَخَايله أنه لو كانت الشرائع حقاً لكان بخلاف ما نرى ، وكان الصالح غنياً والفاسق فقيراً ، ما ذاك إلا لأنه لَحظَ أنَّ اللّه أعطى هذا أموالَ الأيتامِ والوُقوفَ ، بأنْ يأكل الربا وبفَاسد العقود ، وهذا افتئاتٌ وتجوز وتسخط فى غير موضعه . فإنَّ للّه كتاباً قد مَلأَه بالنهى وحرمانَ أخذ المالِ الحرام وأكله بغيرِ حق . فلو كان منصفاً لقال له : تَدَبَّرْ ، هذا كتابُ اللّه مملوءٌ بالنهى والوعيد فصار الفريقان ملعونين : هذا بكفره وهذا بارتكاب النهى .

ومن الفساد فى هذا الاعتقاد أنه لا يبقى فى العقل ثقةٌ إلى دلالَة قامتْ على شريعة أو حكم ، فإنَّ ينبوع الثقة ومصدرها إنما هو من قبيل أنه سبحانه لا يؤيد غير الصادق ولا يلبس الحق بالباطل . فإذا لم تستقر هذه القاعدة فلا ثقة .

وقال أيضاً : إذا تأمل المتدينُ أفعالَ الخَلْقِ فى مقابلة إنعام الحَقِّ استكثر لهم شَمَّ الهواء ، واستقلَّ لهم من اللّه سبحانه أكثر البلاء ، إذا رأى هذه الدار المزخرفة بأنواع الزخاريف ، المعدة لجميع التصاريف واصطباغاً وأشربةً وأدوية ، وأقواتاً وإداماً وفاكهةً ، إلى غيرِ ذلك من العقاقير، ثم إرخاء السحاب بالغيوث فى زمنِ الحاجات ، ثم تطييب الأمزجةِ وإحياء النبات ، وخلق هذه الأبنيةِ على أحسن إتقان ، وتسخير الرياح والنسيم المُعَدّ للأنفاس ، إلى غير ذلك من النعم ، ثم نعمة العقل والذهن ثم سائر الآيات الدالة على الصانع ، ثم إنزال الكتب التى تحثُّ على الطاعاتِ وتردعُ عن المخالفة ، ثم اللطف بالمكلّف ، وإباحة الشرك مع الإكراه ، وأمر بالجمعة فضايقوه فى ساعة السعى بنفس ما نهى عنه من البيع فى أبواب العبادات، وعَظَّمُوا كل ما هَوَّنَهُ، وارتكبوا كل ما هَوَّلَهُ حتى اسْتَخَفُّوا بحرمةِ كتابه ، فأنا استقلُّ لهم كل محنة .

وقال أيضاً : لا تتم الرَّجْلَةُ فى العبدِ حتى يكونَ فى مقامِ اختلال أحواله ، واشتطاط أخلاطه وأفراحه، وتسلط أعدائه، ثابتاً بثبوت المتلقى والمتوقى ؛ فيتلقى النِّعَمَ بالشكرِ لا بالبطر، متماسكاً عن تحرك الرعن ، وعند المصائب مستسلماً ناظراً إلى المبتلى بعينِ الكمال ، وعند اشتطاط الغضب متلقياً بالحكم ، وعند الشهوات مستحضراً للوعد والوعيد ، فسبحان مَنْ كمَّن جواهرَ الرجال فى هذه الأجساد ، ثم أظهرها بابتلائه ليعطىَ عليها جزيلَ ثوابه ، ويجعلها حجة على بقية عباده .

وقال : زنوا أنفسكم : من المبادى ماء وطين ، وفى الثوانى ماء مهين ، وفى الوسط عَبيدٌ محاويج ، لو حبسَ عنكم نسيم الهواء لأصبحتم جِيَفاً ، ولو مُكِّنَتْ منكم البقوق فضلا عن السباع لأكلتكم ، كونوا مُتَعَرِّفينَ لا عارفين .

وقال : لنا عندكَ ذخائرُ وودائع ، باللّه لا تَضَعْهَا فى الترهات ، ودموعٌ ودماء ونفوس ، باللّه لا تُجْرِى الدموعَ إلا على ما فاتَ ويفوت ، ولا تُرِق الدماءَ ، إلا فى مكافحة الأعداء ، وإعلاء كلمتنا ، وأنفاسٌ من نفائس الذخائر ، فَبِحَقِّنَا لا تتنفس الصعداء إلا فى الشوقِ إلينا ، والتأسف علينا ، كم نَخْلَعُ عليكَ خلعةً نفيسةً تبذلها فى الأقذار ، وتُخْلِقُهَا فى خدمة الأغيار ، اشتغلتَ بالصور ، شُغْلَ الأطفال باللعب ، فاتتك أوقاتٌ لا تُتَلافى ــ إلى أن قال ــ فإنْ كسرنا عليك لعبةً مثل أنْ نسلبك ولداً منحناه ، أخذتَ تُضيعُ الدموعَ وتخرقُ الجيوب ، وا أسفاً على أوقات فاتت ، أما رأيتَ المتداركين : هذا يقول : هلكتُ وأهلكتُ ، وهذا يقول : زنيتُ فطهرنى ، زاهداً فى مصاحبة نفس خائنة فيما عاهدتْ ، وصاحبُ الشرع يقيم لها التأويل ، ويقول : « لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ» (١) وذاك مُصِرٌّ على التَّشَفِّى من النفسِ المخالفة للحق ؛ أَتُرَاهُ سَلَّطَ هذه البلاوى إلا لِيُظْهِرَ هذه الجواهرَ فى الصبرِ عليه والغيرة ؟ تُرى لو دامَ الخليلُ والذبيحُ فى كتم

(١) أحمد ١/٢٣٨ ،والبخارى فى الحدود ، ب هل يقول الإمام للمقر : لعلك لمست أو غمزت ؟ (٦٨٢٤).

العزم ، كان وُجِدَ لأحد قَدَمٌ ــ إلى أن قال ــ فصار الولدُ كالشاة المعدَّة للذبح ، أخجلَ واللّه هذا الجوهرُ الذى أظهره الامتحانُ ملائكةَ الرحمن : ﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

أين التسبيح من عزم الذابح وبذل الذبيح ؟ لقد تركتْ هذه المكارمُ رؤوسَ الكُلِّ مُنكَّسَةً خجلاً ببخلهم شاةً من أربعين ، ونصفَ دينارٍ من عشرين . وتعجبُ من قول الدبوسى الحنفى: إن الدنيا دار جزاء لحق الآدمى ، فأما لِحَقِّهِ فيتأخر إلى الآخرة وإن هذا خلاف العقل والشرع . انتهى كلامه .

قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ** ﴾ [النحل : ٦١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠] .

وقيل لأبى سليمان الدارانى : ما بالُ العقلاء أزالوا اللوم عمن أساءهم ؟ قال : إنهم علموا أن اللّه إنما ابتلاهم بذنوبهم ، وقرأ هذه الآية .

ولابن ماجة والترمذى من حديث أنس: «كُلُّ بنى آدم خَطَّاءٌ وخيرُ الخطائين التوابون»(١).

ولأحمد عن ابن عباس مرفوعاً : « ما مِنْ أحدٍ إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئةٍ ليس يحيى ابن زكريا » (٢) .

وللترمذى وقال : حسن صحيح، عن ابن عباس، ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ** ﴾ [النجم : ٣٢] ، قال : قال النبى ﷺ :

«إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وأى عبدٍ لكَ لا ألما»(٣)

فصل فى عيادة المريض

تُستَحَبُّ عيادةُ المريض . قال بعض الأصحاب : وتُكْرَهُ وسطَ النهار ، نص عليه . وقال الأثرم : قيل لأبى عبد اللّه : فلانٌ مريض وكان عند ارتفاع النهار فى الصيف ، فقال : ليس هذا وقت عيادة . قال القاضى : وظاهرُ هذا كراهيةُ العيادة فى ذلك الوقت . انتهى كلام [الأصحاب] (٤) .

والأوْلى أن يقال : تُستحبُّ العيادة بكرةً أو عشية لما فيه من تكثيرِ صلاةِ الملائكة . وقال

---

(١) الترمذى فى صفة القيامة ، ب ٤٩ (٢٤٩٩) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب ذكر التوبة (٣٢٥١) .
(٢) أحمد ١ / ٢٩٢ .
(٣) الترمذى فى تفسير القرآن ، ب من سورة النجم (٣٢٨٤) ، وقال « هذا حديث حسن صحيح غريب » .
(٤) ساقطة من المخطوطة ، وهى فى أ ، ر ، ط .

المروذى : عُدتُ مع أبى عبد اللّه مريضاً بالليلِ وكان فى شهر رمضان ، ثم قال لى : فى شهرِ رمضانَ يُعَادُ بالليلِ .

وروى أبو داود عن سهل بن بكار ، عن أبى عوانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أم العلاء عمة حزام بن حكيم الأنصارى قالت : عادنى رسولُ اللّه ﷺ وأنا مريضة فقالَ : «أبشرى يا أمَّ العلاء فإنَّ مَرَضَ المسلمِ يُذْهِبُ اللّهُ به خطاياه كما تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الحديدِ »(١) حديث حسن . وأنشد الشافعى رضى اللّه عنه :

مَرِضَ الحبيبُ فَعُدْتُهُ ... فمرضتُ من حَذَرِى عليه
فأتى الحبيبُ يعودُنى ... فَشُفِيتُ من نظرى إليه

فصل فى التقاط ما يقع على الأرض

قال الحسن بن عبد الوهاب الوَرَّاقُ : كان أبى إذا وقعتْ منه قطعةٌ فأكثر لا يأخذُها ولا يأمرُ أحداً أنْ يأخذَها ، فقلت له يوماً : يا أبتِ ، الساعةَ سقطتْ منكَ هذه القطعةُ فَلمَ لا تأخذها ؟ فقال : رأيتها ، ولكنى لا أُعَوِّدُ نفسى أخْذَ شىءٍ من الأرضِ كانَ لى أو لغيرى . وهذا رأىٌ من عبد الوهَّاب رحمه اللّه والأوْلى أخذ ما يجب التقاطه لما فيه من حصول النفع له أو لغيره من غير ضرورة ، وكذا أخذ ما وقع منه ، بل يُنْهَى عن تَرْكِه لما فيه من إضاعة المال .

فصل فى أدبِ الصُّحبةِ واتقاء أسباب الملل والقطيعة

قال على بن المدينى : قال لى أحمد بن حنبل : إنى لأُحبُّ أنْ أصْحَبَكَ إلى مكة فما يمنعنى من ذلك إلا أنى أخافُ أملّك أو تملّنى ، فلما ودعته قلتُ : يا أبا عبد اللّه ، تُوصينى بشىءٍ ؟ قال : نعم ، أَلْزِمِ التقوى قلبك ، واجعل الآخرةَ أمامكَ .

وروى الخلال فى « الأدب » : عن مكحول قال : قلت للحسن : إنى أريدُ أن أخرج إلى مكة ، قال : فلا تصحب رجلاً يكرم عليك ، فينقطع الذى بينك وبينه .

وعن مجاهد قال : قلت لصديق لى من قريش : تعالَ أواضعكَ الرأىَ ؛ فانظر أين رأيى من رأيكَ ؟ فقال لى : دَعِ المودةَ على حالها ، قال : فغلبنى القرشىُّ بعقله ، وعن طاووس أنه أقام على صاحبٍ له مرض حتى فاته الحج .

وقال المروذى : سمعت أبا عبد الله يقول : قد كنت وافقت يحيى ونحن بالكوفة فمرض، قال : فتركتُ سماعى ورجعت معه إلى بغداد ، قال : فكان يحيى يَشْكُرُ لى ذاك .

---

(١) أبو داود فى الجنائز ، ب عيادة النساء (٣٠٩٢) .

فصل فى حسن الخلق

قال ابنُ منصور : سألت أبا عبد الله عن حُسْنِ الخُلُقِ قال : ألا تغضب ولا تَحْتَدَّ . قيل له : المعاملة بين الناس فى الشراء والبيع ؟ فلم يَرَ ذلك . قال إسحاق بن راهويه : هو بَسْطُ الوجه وألا تغضبَ ونحو ذلك ، ذكره الخلال .

وروى البيهقى فى « مناقب الإمام أحمد » عن إسحاق بن منصور أنه سأل أحمدَ بن حنبل عن حُسْنِ الخلق فقال : هو أن يحتملَ من الناس ما يكون إليه . وروى الخلال ، عن سلام بن أبى مطيع فى تفسير حُسْنِ الخُلق ، فأنشد هذا البيت :

تَـرَاهُ إذا ما جِـئْـتَـه مُتَـهـللاً كأنك مُعْطِيـه الذى أنتَ سـائلُـهْ

وروى أيضاً عن الفضيل أنه قال : مَنْ ساءَ خُلُقه ساء دِينُه ، وحَسَبُهُ ومَوَدَّتُه . وقال مهنا: سألتُ أحمدَ عن رجلٍ ظلمنى وتَعَدَّى علىَّ ، ووقع فى شىء عند السلطان : أعينُ عليه عند السلطانِ ؟ قال : لا ، بل اشفع فيه إن قدرتَ . قلتُ : سرقنى فى المكيال والميزان أدسُّ إليه من يوقفه على السرقة ؟ قال : إن وقع فى شىء فقدرتَ أن تشفعَ له فاشفعْ له . انتهى كلامه .

وروى غير واحد ، وإسناده ضعيف ، عن أبى هريرة مرفوعاً : « إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بَسْطُ الوجه وحُسْنُ الخُلُق » (١).

وروى أبو حفص العكبرى فى « الأدب » له بإسناده عن عائشة مرفوعاً : « إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم فَلْيَسَعْهُمْ منكم طلاقةُ الوجه وحسن البِشْرِ ». وفى حُسْنِ الخُلقِ أحاديث كثيرة.

ففى « الصحيحين » أو أحدهما عن النبىِّ ﷺ أنه قال : « إن من خياركم أحاسنكم أخلاقاً » (٢)، وفى بعض طرقٍ للبخارى: « إنَّ خياركم أحسنكم أخلاقاً »(٣) بإسقاط «من».

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن عثمان الدمشقى أبو الجماهر ، حدثنا أبو كعب أيوب بن محمد السعدى ، حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى، عن أبى أمامة قال: قال رسول اللّهﷺ: « أنا زعيم ببيتٍ فى رَبَضِ الجنة لِمَنْ تركَ المِراءَ وإنْ كان محقًّا ، وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذبَ وإن كانَ مازحاً ، وبيت فى أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقه»(٤)، أيوب تفرد عنه أبو الجماهر

---

(١) فتح البارى ١٠/٤٥٩ ، والبزار فى كشف الأستار (١٩٧٧) ،وقال:« لم يتابع عبد الله بن سعيد على هذا وتفرد به » ، وأبو يعلى فى مسنده (٦٥٥٠) ، وابن حجر فى المطالب العالية (٢٥٣٩) .

(٢) البخارى فى فضائل الصحابة ، ب مناقب عبد الله بن مسعود (٣٧٥٩) ، ومسلم فى الفضائل ، ب كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢١ /٦٨) .

(٣) البخارى فى الأدب ، ب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٥) عن عبد الله بن عمرو .

(٤) أبو داود فى الأدب ، ب فى حسن الخلق (٤٨٠٠) .

لكنه ثقة .

وعن سلمة بن وردان ، عن أنس مرفوعاً : « مَنْ ترك الكذب وهو باطل بُنِىَ له فى ربض الجنة ، ومَنْ ترك المراء وهو مُحِقٌّ بنى له فى وسطها ، ومَنْ حَسُنَ خلقه بُنِىَ له فى أعلاها»(١). سلمة ضعيف عندهم ، رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه .

وعن ابن مسعود أن رسول اللّه ﷺ كان يقول : « اللهم أحسنتَ خَلْقِى فأحْسِنْ خُلُقِى ». وعن عائشة مرفوعاً مثله ، رواهما أحمد ومسلم (٢) .

وصحح ابنُ حبان خبرَ ابنِ مسعود (٣) ، ورواه البيهقى فى كتاب « الدعوات » وقال فيه : كان رسولُ اللّه ﷺ إذا نظر إلى وجهه فى المرآة ، وذكره . ورواه أبو بكر بن مردويه فى كتاب «الأدعية » من حديث أبى هريرة وعائشة وفى آخره : « وحَرِّمْ وجهى على النار » .

وقال الحسن والقُرَظىُّ فى قوله تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤]. أى: وخُلُقَكَ فَحَسِّن.

وعن عائشة مرفوعاً : « الشؤمُ سوءُ الخُلُق » رواه أحمد (٤) . والشؤم ضد اليُمْنِ يقال : تشاءمتُ بالشىء وتيمنت به .

وعن ابن مسعود مرفوعاً : « حُرِّمَ على النار كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قريبٍ من الناس » رواه أحمد والترمذى (٥) .

وقال البراء رضى اللّه عنه : كان رسول اللّه ﷺ أحسنَ الناس وجهاً ، وأحسنهم خلقا . رواه البخارى وغيره (٦) . قال تعالى : ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم : ٤] . قيل : دين الإسلام . وقيل : أدب القرآن . وقال الماوردى : الطبع الكريم ، فسمى خلقاً لأنه يصير كالخِلْقَة فى صاحبه . فأما ما طُبِعَ عليه فيسمى الخِيم فيكون الخِيمُ : الطبعُ الغريزى ، والخُلُق : الطبعُ المتكلف . انتهى كلامه. قال الجوهرى : الخَلق والخلق السَّجِيَّة ، وفلانٌ يتخلَّقُ بغير خلقه أى يتكلفه . وقال الشاعر :

يا أيها المُتَحَلِّى غيرَ شِيمتِهِ ... إنَّ التَّخَلُّقَ يأتى دُونَهُ الخُلُقُ

---

(١) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المراء (١٩٩٣) ، وقال : « هذا حديث حسن » ، وابن ماجه فى المقدمة ، ب اجتناب البدع والجدل (٥١) .

(٢) أحمد ١/ ٤٠٣ ، ٦/ ٦٨ ، والحديث ليس فى صحيح مسلم .

(٣) ابن حبان فى صحيحه (٩٥٥) .

(٤) أحمد ٦/ ٨٥ .

(٥) أحمد ١/ ٤١٥ ، والترمذى فى صفة القيامة ، ب ٤٥ (٢٤٨٨) ،وقال : « هذا حديث حسن غريب » .

(٦) البخارى فى المناقب ، ب صفة النبى ﷺ (٣٥٤٩)، ومسلم فى الفضائل ،ب فى صفة النبى ﷺ وأنه كان أحسن الناس وجها (٢٣٣٧/ ٩٣)، والبيهقى فى دلائل النبوة، ب صفة قامة رسول الله ﷺ ١/ ٢٥٠.

قال : والخيم بالكسر : السجيةُ والطبيعةُ ، لا واحدَ له من لفظه ، فدل على الترادف ، خلاف ما قاله الماوردى .

وقال فى « النهاية » : الخُلُقُ بضم اللام وسكونها : الدين والطبع والسجية [1] . وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولها أوصاف حسنة وقبيحة . والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة ؛ ولهذا تكررت الأحاديث فى حسن الخلق ، وذم سوء الخلق .

ولمسلم عن عائشة أنها سئلت عن خلق رسول اللّه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن»[2]. أى كان متمسكاً بآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتملُ عليه من المكارم والمحاسن والألطاف.

وفى حديث أبى قتادة فى قصة نومهم عن صلاة الفجر لما لحقهم وقد عطشوا فقال : « لا هُلْكَ عليكم » بضم الهاء وهو الهلاك ، ثم قال : « اطلقوا إلىَّ غُمَرى » بضم الغين المعجمة وفتح الميم وبالراء وهو القدح الصغير ، ودعا بالميضأة فجعل رسول اللّه ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم ، فلم يَعْدُ أنْ رأى الناس ماء فى الميضأة تكابُّوا عليها ، فقال رسول اللّه ﷺ : «أحسنوا المَلأَ كُلُكُمْ سَيَرْوَى » قال : ففعلوا ، فجعل رسول اللّه ﷺ يصب وأسقيهم ، حتى ما بقىَ غيرى وغير رسول اللّه ﷺ فقال لى : « اشرب » فقلت : لا أشربُ حتى تشربَ يا رسولَ اللّه، قال : « إن ساقى القوم آخرهم شرباً » قال : فشربتُ وشرب رسول اللّه ﷺ . رواه مسلم [3] .

الملأ بفتح الميم واللام وآخره همزة منصوب مفعول أحْسِنُوا ، والملأ : الخُلُقُ والعِشْرَةُ ، يقال : ما أحسنَ ملأ فلان ! أى : خلقه وعشرته ، وما أحسن ملأ بنى فلان ! أى : عشرتهم وأخلاقهم . كان يقال : مَنْ ساء خلقه قَلَّ صديقه ، قال محمد بن حازم :

وما اكتسبَ المحامدَ طالبُوها ... بمثلِ البِشْرِ والوجهِ الطليقِ

وقال آخر :

وخَالِق الناسَ بِخُلْقٍ حَسَنٍ ... لا تكُنْ كلباً على الناس تَهِرْ

وقال آخر :

وما حَسَنٌ أن يمدحَ المرءُ نفسَهُ ... ولكنَّ أخلاقاً تَذُمُّ وتَمْدَحُ

---

(١) انظر : النهاية فى غريب الحديث ٢/ ٧٠ .

(٢) مسلم فى المسافرين ، ب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦/ ١٣٩) .

(٣) مسلم فى المساجد ، ب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (٦٨١/ ٣١١) .

ولأبى داود عن قتيبة ، عن يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب بن عبد اللّه بن حنطب ، عن عائشة مرفوعاً : « إنَّ الرجلَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصائم القائم »[1] كلهم ثقات ، والمطلب حسن الحديث ووثقه الأكثر ، وقال أبو زرعة : أرجو أنْ يكون سمع من عائشة . وقال أبو حاتم : لم يدركها .

وعن أبى الدرداء مرفوعاً : « ما من شىء أثقلُ فى الميزان من خُلُقٍ حسن » إسناد جيد ، رواه أبو داود والترمذى وصححه [2] . وللترمذى فى رواية ، بإسناد حسن معنى حديث عائشة وقال : غريب من هذا الوجه [3] .

وعن أبى هريرة مرفوعاً : أنه سئل عن أكثر ما يدخل الناسَ الجنة ، قال : « تقوى اللّه وحُسْنُ الخُلُق » ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، قال : « الفم والفرج » [4] رواه جماعة ، منهم الترمذى وصححه .

وعن أم سلمة أنها قالت : يا رسول اللّه ، المرأة تتزوج الاثنين والثلاثة والأربعة ثم تدخل الجنة ويدخلون معها ، مَنْ يكون زوجها ؟ قال : « إنها تُخَيَّرُ فتختار أحسنهم خُلُقاً ــ ثم قال ــ يا أُمَّ سلمة ، ذهب حُسْنُ الخُلُقِ بخيرِ الدنيا والآخرة » [5] فى إسناده سليمان بن أبى كريمة وهو ضعيف .

وعن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ وأبى ذر مرفوعاً : « اتَّقِ اللّه حيثما كنتَ ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا ، وخالقِ الناسَ بخلُقٍ حسن » [6] سنده جيد إلى ميمون ، وميمون حسن الحديث ، وضَعَّفَهُ ابنُ معين ، ولم يسمع منهما ، رواه الترمذى وحسنه ، ورواه أحمد من حديث ميمون عن معاذ [7] .

وفى الصحيحين من حديث عدى بن حاتم : « اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة ، فإنْ لم تجدوا فبكلمةٍ طيبة » [8] .

---

(١) أبو داود فى الأدب ، ب حسن الخلق (٤٧٩٨) .

(٢) أبو داود فى الأدب ، ب حسن الخلق (٤٧٩٩) ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى حسن الخلق (٢٠٠٢) .

(٣) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى حسن الخلق (٢٠٠٣) .

(٤) أحمد ٢/ ٢٩١ ، والترمذى فى البر والصلة ، ب فى حسن الخلق (٢٠٠٤) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب ذكر الذنوب (٤٢٤٦) .

(٥) السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ١٥١ والطبرانى فى الكبير ٢٣ / ٣٦٧ ، ٣٦٨ (٨٧٠) ، والهيثمى فى المجمع ٧ / ١٢٢ وقال : « فيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى » .

(٦) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى معاشرة الناس (١٩٨٧) .

(٧) أحمد ٥/ ٢٣٦ .

(٨) البخارى فى الأدب ، ب طيب الكلام (٦٠٢٣) ، ومسلم فى الزكاة ، ب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة (٦٨/١٠١٦) .

ولمسلم من حديث أبى ذر : « لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئاً ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوجه طَلْقٍ»(١) ، روى بسكون اللام وكسرها ، وبزيادة ياء : طليق .

ولابن ماجه من حديث ابن عمر : إن رجلاً قال : يا رسول اللّه ، أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خُلُقاً » (٢) .

وعن أسامة بن شريك قال : أتيت النبى ﷺ وأصحابه عنده فكأن على رؤوسهم الطير ، الحديث . وفى آخره : قالوا : ما خير ما أُعطىَ الناسُ يارسول اللّه ؟ قال : « خلق حسن »(٣) حديث صحيح ، رواه أحمد وابن ماجه .

ولابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث أبى ذر : « لا عقلَ كالتدبير ، ولا وَرَعَ كالكَفِّ ، ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُقِ » (٤) .

قال الحسن البصرى : حقيقةُ حُسْنِ الخُلُقِ بَذْلُ المعروف ، وكَفُّ الأذى وطلاقةُ الوجه . ورواه الترمذى عن عبد اللّه بن المبارك (٥) .

وحكى فى « شرح مسلم » فى باب كثرة حيائه ﷺ : إن القاضىَ عِيَاضاً قال : حكى الطبرى خلافاً للسلف : هل هو غريزة ، أم مكتسب ؟ وتقدم قول الماوردى ، فيكون هذا وهذا كما قيل : إن العقل غريزة ومنه ما يُستفادُ بالتجارب وغير ذلك وهذا متوجه .

وعن الزهرى ، عن أبى الدرداء مرفوعاً : « إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا ، وإذا سمعتم برجل زال عن خُلُقِه فلا تُصَدِّقُوا به ، فإنه سيصيرُ إلى ما جُبِلَ عليه » (٦) منقطع وهو ثابت إلى الزهرى ، رواه أحمد .

وروى هذا المعنى أبو حفص العكبرى فى « الأدب » له ، عن عبد اللّه بن مسعود وقال : فإنكم لا تستطيعون أن تغيروا خلقه .

وروى أبو حفص أيضاً عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : مكتوب فى الحكمة : ليكنْ وجهُك بَسْطاً ، وكلمتك طيبةً ، تَكُنْ أحَبَّ إلى الناس من الذى يُعطيهم العطاءَ .

وذكر ابن عبد البر قول سفيان بن عيينة : مَنْ حَسُنَ خُلُقُه ساء خُلُقُ خادمه . وكان بين سعيد بن العاص وقومٍ من أهلِ المدينة منازعةٌ ، فلما ولاه معاوية رضى الله عنهما المدينة ترك

---

(١) مسلم فى البر والصلة ، ب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦/ ١٤٤) .

(٢) ابن ماجه فى الزهد ، ب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٥٩) قال فى الزوائد : « فردة بن قيس مجهول ، وكذلك الراوى عنه وخبره باطل » .

(٣) أحمد ٤/ ٢٧٨ ، وابن ماجه فى الطب ، ب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (٣٤٣٦) .

(٤) ابن ماجه فى الزهد ، ب الورع والتقوى (٤٢١٨) .

(٥) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى حسن الخلق (٢٠٠٥) .

(٦) أحمد ٦/ ٤٤٣ .

المنازعة ، وقال : لا أنتصر لنفسى وأنا والٍ عليهم . قال ابن عقيل فى « الفنون » : هذه واللّه مكارم الأخلاق .

وروى الخلال عن سهل بن سعد مرفوعاً : « إنَّ اللّه كريمٌ يحب الكريم ومعالى الأخلاق ويكره سَفْسَافَها » (١) .

وروى أيضاً عن جابر مرفوعاً : « إن اللّه يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها » .

السفساف : الأمر الحقير ، والردىء من كل شىء ضد المعالى والمكارم ، وقد قيل :

إذا أنتَ جازيتَ المسيء بفعله ... فَفِعْلُكَ من فعل المسىء قريبُ

وقيل أيضاً :

وإذا أردَت منازلَ الأشراف ... فعليك بالإسعاف والإنصاف

وإذا بغى باغٍ عليكَ فخله ... والدهرَ ؛ فهو له مُكافٍ كافِ

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : « ما مِنْ ذَنْبٍ أجدر أنْ يُعَجِّلَ اللّه لصاحبه العقوبةَ فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وصححه من رواية عُيَيْنَةَ بن عبد الرحمن بن جَوْشن ، عن أبيه ، ولم يرو عنه غير ابنه عيينة ، ووثقه أبو زرعة عن أبى بكرة مرفوعاً (٢) .

ولمسلم وأبى داود وغيرهما ، عن عياض بن حمار ، عن النبى ﷺ : « إن اللّه تعالى أوحى إلىَّ أنْ تَواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ ولا يبغى أحدٌ على أحد » (٣) .

قال الشيخ تقى الدين فى « اقتضاء الصراط المستقيم » : فجمع النبىُّ ﷺ بين نوعى الاستطالة : لأنَّ المستطيلَ إن استطالَ بحقٍّ فهو المفتخر ، وإن استطال بغير حقٍّ فهو الباغى ؛ فلا يحل لا هذا ولا هذا .

ولمسلم من حديث أبى هريرة : « ما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه اللّه » (٤) ، ويأتى فى أحاديث اللباس أواخر الكتاب : « لا يدخل الجنة مَنْ فى قلبه مِثقالُ ذرة من كِبْرٍ ، ولا ينظر اللّه إلى مَنْ جَرَّ إزاره بطراً » .

---

(١) أبو نعيم فى حلية الأولياء ٨ / ١٣٣ ، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق ٧ / ٩٠ .

(٢) أحمد ٥ / ٣٦ ، وأبو داود فى الأدب ، ب فى النهى عن البغى (٤٩٠٢) ، والترمذى فى صفة القيامة ، ب ٥٧ (٢٥١١) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب البغى (٤٢١١) .

(٣) مسلم فى الجنة ، ب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥ / ٦٤) ، وأبو داود فى الأدب ، ب فى التواضع (٤٨٩٥) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٩) .

(٤) مسلم فى البر والصلة ، ب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨ / ٦٩) .

وقال محمد بن على بن حسين عليهم السلام : يا عجباً من المختال الفخور الذى خُلِقَ من نطفة ثم يصير جِيفةً لا يدرى بعد ذلك ما يُفْعَلُ به .

وقيل لعيسى عليه السلام : طوبى لبطنٍ حملكَ ، فقال : طوبى لمن علمه الله كتابه ولم يكن جباراً عنيداً .

وقال مالك بن دينار : كيف يَتِيْهُ مَنْ أوَّلُهُ نُطْفَةٌ مَذِرَة ، وآخره جِيفةٌ قَذِرَة ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة ؟! وقال منصور :

تَـتِـيْـهُ وجـسـمـكَ من نـطـفـة وأنـتَ وعـاءٌ لـمـا تَـعْـلَـم

وكان يقول : لولا ثلاثٌ سَلِمَ الناسُ : شُحٌّ مُطاع ، وهوىً مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرء بنفسه . وقال جعفر بن محمد رضى اللّه عنهما : عَلِمَ اللّهُ أنَّ الذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك لما ابتلى مؤمنٌ بذنب . وقال الشاعر :

وَمَنْ أمِنَ الآفات عجباً برأيه أحاطتْ بهْ الآفاتُ منْ حيثْ يجهلُ

وذكر ابن عبد البر الخبرَ عن رسول اللّه ﷺ : « لا حَسَبَ إلا فى التواضع ، ولا نَسَبَ إلا بالتقوى ، ولا عملَ إلا بالنية ، ولا عبادة إلا باليقين »(١) .

وعن رسول اللّه ﷺ قال : « مَنْ عَظُمَتْ نعمةُ اللّه عليه فليطلبْ بالتواضع شُكْرَهَا ، وإنه لا يكون شكوراً حتى يكون متواضعاً » .

وقال عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه : إن من التواضع الرضا بالدون من شرف المجلس، وأنْ تسلم على مَنْ لقيت .

وقال عبد اللّه بن المبارك : التعزز على الأغنياء تواضع . كان يقال : الغنى فى النفس ، والكرم فى التقوى ، والشرف فى التواضع .

وكان سليمان بن داود عليهما السلام يجىء إلى أوضع مجالس بنى إسرائيل ويقول : مسكينٌ بين ظهرانى مساكين .

وكان يقال : ثمرة القناعة الراحة ، وثمرة التواضع المحبة .

وقال لقمان لابنه : يا بنى تواضع للحق تكن أعقل الناس .

وقال أبو الدرداء : ليس [الذى](٢) يقول الحق ويفعله بأفضل من الذى يسمعه فيقبله.

وقال بعض الحكماء : إذا نسك الشريفُ تَواضعَ ، وإذا نسك الوضيعُ تَكَبَّرَ .

---

(١) الديلمى فى الفردوس بمأثور الخطاب (٧٩٢٥) ، والعجلونى فى كشف الخفاء ٢ / ٣٦١ كلاهما عن على ابن أبى طالب .

(٢) ساقطة من المخطوطة وهى فى أ ، ر ، ط .

وقال بعض الفلاسفة: أظلم الناس لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب فيمن يبعده.

وقال بزرجمهر: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء .

وقال ابنُ السماك للرشيد : تَواضُعُكَ فى شرفك أشرفُ من شرفك .

وقال ابن عبد البر : روى من حديث ابن عمر ، عن النبى ﷺ : « لا يعجبنكم إيمانُ الرجل حتى تعلموا ما عقدة عقله » (١) ، وهذا الخبر من رواية إسحاق بن أبى فروة مذكور فى ترجمته وهو متروك .

قال ابن عبد البر : وقد روى عن النبى ﷺ قال : « فى صحف موسى وحكمة داود عليهما السلام : حَقٌ على العاقل أنْ يكونَ له أربع ساعات : ساعةٌ يُحاسبُ فيها نفسه ، وساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه ويَصْدُقُونَهُ عن نفسه ، وساعة يخلى فيها بين نفسه ولذاتها فيما يَحلُّ ويَجْمُلُ ،فإن هذه الساعة عَوْنٌ له» (٢) .

قال : وعلى العاقلِ أنْ يكون عارفاً بزمانه ، مالكاً للسانه ، مقبلاً على شأنه .

وقال بعضهم : أوحى اللّه إلى موسى عليه السلام : أتدرى لِمَ رزقتُ الأحمق ؟ قال : لا، قال : ليعلم العاقلُ أنَّ الرزق ليس باحتيال .

وقال ﷺ : « ثلاثٌ مَنْ حُرِمَهُنَّ فقد حُرِمَ خيرَ الدنيا والآخرة : عقلٌ يدارى به الناسَ ، وحلم يرد به السفيه ، وورع يَحْجُزُهُ عن المحارم » (٣) .

افتخر رجلان عند على بن أبى طالب رضى اللّه عنه فقال : أتفتخران بأجساد بالية ، وأرواحٍ فى النار ؟ إنْ يَكُنْ لكما عَمَلٌ فلكما أصل ، وإنْ يَكُنْ لكما خُلُقٌ فلكما شرف ، وإن يكن لكما تقوى فلكما كرم ، وإلا فالحمارُ خيرٌ منكما ، ولستما خيراً من أحد .

وقال أيضاً رضى اللّه عنه : العاقلُ الذى لم يَحْرِمهُ نصيبهُ من الدنيا حظَّهُ من الآخرة .

وقال أيضاً فى وصيته لابنه : لا مالَ أعود من العقل ، ولا فقر أشد من الجهل ، ولا وحدة أوحش من العُجْب ، ولا مظاهرة كالمشاورة ، ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الخلق . وكان يقال : إذا كان علم الرجل أكثر من عقله كان قمناً أن يضره علمه . قال الشاعر :

ولا خيرَ فىْ حُسْنِ الجُسومِ وطُولِها إذا لم يَزِنْ حُسْنَ الجُسومِ عقولُ

(١) ابن عدى فى الكامل فى ضعفاء الرجال ١/ ٣٢٩ .
(٢) ابن أبى الدنيا فى العقل وفضله ص٣٨ .
(٣) السابق ص ٦٨ .

وقال مطرف بن الشِّخير [1] : عقولُ كُلِّ قومٍ على قَدْرِ زمانهم .

كان يقال : خِصالٌ ستٌّ تُعرف فى الجاهل : الغضب فى غير شىء ، والكلام فى غير نفع، والعطيةُ فى غير موضعها ، وإفشاءُ السر ، والثقةُ بكل أحد ، ولا يعرف صديقه من عدوه.

وقال يحيى بن خالد : ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : الكتابُ على مقدارِ عقل كاتبه، والرسولُ على مقدار عقل مُرْسِلِه ، والهديةُ على مقدار عقل مُهْدِيها .

وقيل لابن هبيرة : ما حَدُّ الحمق ؟ قال : لا حَدَّ له . وقال بعضهم : الحمقُ : الكسادُ يقال : انحمقتِ السُّوقُ : إذا كسدت ، ومنه الرجل الأحمق ؛ لأنه كاسدُ العقلِ لا يُنتفعُ برأيه ولا بعقله ؛ والحمق أيضاً : الغرور ، يقال : سرنا فى ليالٍ مُحمقات : إذا كان القمر فيهن يسيرُ بغيمٍ أبيض دقيق فيغترُّ الناسُ بذلك يظنون أنْ قد أصبحوا فيسيرون حتى يملوا ، قال : ومنه أخذ الاسم « الأحمق » لأنه يَغُرُّكَ فى أولِ مجلسه بتغافله ، فإذا انتهى إلى آخر كلامه تبين حُمْقُهُ .

وقال الجوهرى فى « الصحاح » : الحُمْق والحُمُق : قِلَّةُ العقل ، وقد حَمُقَ الرجلُ بالضم حماقة فهو أحمقُ ، وحَمِقَ أيضاً بالكسر يَحمَقُ حُمقاً مثل غَنِمَ غُنماً فهو حَمِق ، وامرأة حمقاء، وقوم ونسوة حُمُقٌ وحَمقى وحَماقى ، وحَمُقَت السوقُ بالضم ، أى : كسدت ، وأَحمقتِ المرأة ، أى : جاءت بولد أحمق فهى مُحمِقٌ ومُحمقة ، فإن كان من عادتها أنْ تَلِدَ الحمقى فهى مِحْمَاقٌ ، ويقال : أحمقتُ الرجل : إذا وجدْتَه أحمقَ ، وحمَّقته تحميقاً : نسبتَه إلى الحُمق ، وحامقتُه : إذا ساعدتَه على حمقه ، واستحمقته ، أى : عَدَدْتُه أحمق ، وتحامق فلان : إذا تَكَلَّفَ الحماقة ، ويقال : انحمَقت السوقُ ، أى : كسدت ، وانحمق الثوب ، أى: أخلق .

ذكر المغيرة بن شعبة يوماً عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فقال : كان واللّه أفضلَ من أنْ يَخْدَعَ ، وأعقلَ من أن يُخْدَعَ .

وقال الحجاج يوماً : العاقلُ مَنْ يعرفُ عيبَ نفسه ، فقال له عبد الملك : فما عَيْبُكَ ؟ قال: أنا حَسُودٌ حَقُود ، فقال له عبد الملك : ما فى إبليسَ شَرٌّ من هاتين .

---

(١) هو الإمام ، القدوة ، الحجة ، أبو عبد الله الحرشى العامرى البصرى ، حدث عن أبيه ، وعلى ، وعمار، وأبى ذر وغيرهم ، وحدث عنه الحسن البصرى ، وأبو التياح يزيد بن حميد ، وثابت البنانى وغيرهم ، كان ثقة له فضل وورع وعقل وأدب، مات سنة ست وثمانين. [سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨٧ ــ ١٩٥].

وقال الحسن البصرى : صِلَةُ العاقلِ إقامةُ دينِ الله ، وهجرانُ الأحمق قربةٌ إلى الله ، وإكرامُ المؤمن خدمةٌ لله وتواضعٌ له . كان يقال : إذا تَمَّ العقلُ نقص الكلام ، قال الشاعر :

ألا إنما الإنسانُ غِمْدٌ لعقله ... ولاخيرَ فى غِمْدٍ إذا لم يكن له نَصْلُ
فإن كان للإنسان عقلٌ فإنه ... هو النصل والإنسان من بعده فضل

وقال آخر :

وليس عتابُ المرء للمرء نافعاً ... إذا لم يكنْ للمرء عقلٌ يعاتبه

وقال آخر :

تحَامَقْ مع الحمقى إذا ما لَقِيْتَهُمْ ... ولا تَلْقَهُمْ بالعقلِ إن كنتَ ذا عقلِ
فإنى رأيتُ المرءَ يشقى بعقله ... كما كان قبلَ اليوم يَسْعَدُ بالعقلِ

وكان الحسن البصرى إذا أُخْبِرَ عن أحدٍ بصلاح قال : كيف عقله ؟ ما يتم دينُ امرئ حتى يتم عقله .

وقال الأوزاعى : قيل لعيسى عليه السلام : يا روح اللّه أنت تُبْرئُ الأكمه والأبرصَ وتحيى الموتى بإذن اللّه ، فما دواءُ الأحمق ؟ قال : ذلك أعيانى .

وقال زيد بن أسلم : قال لقمان لابنه : يا بنى ، لأنْ يَضربكَ الحليمُ خيرٌ من أن يدهنك الأحمق .

وقال عمر بن عبد العزيز : خصلتان لا تعدمك من الأحمق ، أو قال : من الجاهل : كثرة الالتفات ، وسرعة الجواب .

وقال سهل بن هارون : ثلاثة من المجانين وإنْ كانوا عقلاء : الغضبان ، والعريان، والسكران .

سمع الأحنف رجلاً يقول : ما أبالى أَمُدحْتُ أم هُجيتُ ، فقال : استرحتَ مِنْ حيثُ تَعِبَ الكِرامُ . وقالت العرب : استراح مَنْ لا عقلَ له . وقالت الفرس : مات مَنْ لا عقل له. قال الشاعر :

كم كافرٍ باللّه أموالُه ... تزدادُ أضعافاً على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ ... يزدادُ إيماناً على فقره
لا خيرَ فيمن لم يكن عاقلاً ... يمُدُّ رجليه على قَدْرِه

وروى الحاكم فى « تاريخه » عن ابن المبارك ، وقيل له : ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال: غريزةُ عقل ، قلت : فإن لم يكن ؟ قال : حسن أدب . قلت : فإن لم يكن ؟ قال : أخ

شفيق يستشيره فيشير عليه، قلت: فإن لم يكن ؟ قال : صَمْتٌ طويل ، قلت : فإن لم يكن ؟ قال : موتٌ عاجل .

ومن كلام الحمقى : استعمل معاويةُ رضى اللّه عنه رجلاً من كَلْبٍ فذكر المجوس يوماً فقال : لعن اللّهُ المجوسَ ينكحون أمهاتهم ، واللّه لو أعطيتُ عشرةَ آلاف درهم ما نكحتُ أمى، فبلغ ذلك معاوية ، فقال : قَبَّحَهُ اللّه ، أترونه لو زِيْدَ فعل ؟

قيل لبردعة المُوَسْوِس : أيما أفضلُ غيلانُ أم مُعَلَّى ؟ قال : معلى. قال: ومِنْ أين ؟ قال: لأنه لما مات غيلان ذهب معلى إلى جنازته ، فلما ماتَ مُعَلَّى لم يذهب غيلان إلى جنازته .

رفع رجل من العامة ببغداد إلى بعض ولاتها على جار له : أنه يتزندق ، فسأله الوالى عن قوله الذى نَسَبَهُ به إلى الزندقة ؟ فقال : هو مُرْجئٌ ناصبىٌّ رافضىٌّ من الخوارج يُبغضُ معاويةَ ابن الخطاب الذى قتل علىَّ بن العاص. فقال له ذلك الوالى: ما أدرى على أىِّ شىءٍ أحسدك ؟ أعلى علمك بالمقالاتِ ، أم على بَصَرِكَ بالأنساب ؟

دخل رجل من العامة الجَهَلَةِ الحمقى على شيخ من شيوخ أهل العلم ، فقال له : أصلح اللّه الشيخ ، قد سمعتُ فى السوق الساعةَ شيئاً منكراً ولا يُنْكِرُهُ أحدٌ ؟ قال : وما سمعتَ ؟ قال : سمعتهم يسبون الأنبياء . قال الشيخ : ومَنِ المشتومُ من الأنبياء ؟ قال : سمعتهم يشتمون معاوية . قال : يا أخى ليس معاويةُ بنبىٍّ . قال : فَهَبْهُ نِصْفَ نبى ، لِمَ يُشتم ؟

وقال عمرو بن بحر : ذكر لى بعض الإباضية أنه جرى عنده ذِكْرُ الشيعة يوماً ، فغضب وشتمهم ، وذكر ذلك كالمُنْكِر عليهم نِحْلَتَهُم إنكاراً شديداً ، قال : فسألته يوماً عن سببِ إنكاره على الشيعة ولَعْنِه لهم ؟ فقال : لمكانِ الشينِ فى أول كلمة لأنى لم أجد ذلك قط إلا فى مسخوطة مثل : شؤم وشر وشيطان وشيخ وشعث وشعب وشرك وشتم وشقاق وشِطْرَنْج وشَيْن وشَنٍّ وشانِئ وشوصة وشوك وشكوى وشنان ، فقلت له : إن هذا كثير ، ما أظن أن هذا لقوم يقيم اللّه لهم علماً أبداً .

سَلَّمَ فَزَارَةُ ــ صاحبُ المظالم بالبصرة ــ على يسارِه فى الصلاة ، فقيل له فى ذلك ، فقال: كان على يمينى إنسانٌ لا أُكلِّمُه .

قال فزارة يوماً فى مجلسه : لو غسلتُ يدى مائتى مرة ما تنظفت حتى أغليها [1] مرتين. وفيه يقول الشاعر :

ومن المظالمِ أنْ تكون على المظــالمِ يا فَزَارَهْ

(١) فى المخطوطة و ر : « أغسلها » ، والمثبت من ط وهو أوفق .

ولَىَ رجلٌ مُقِلٌّ قضاءَ الأهواز ، فأبطأ عليه رِزْقُه ، وحضر عيد الأضحى وليس عنده ما يُضَحِّى به ولا ما ينفق ، فشكا ذلك إلى زوجته ، فقالت : لا تغتم ، فإنَّ عندى ديكاً جليلاً قد سمنته فإذا كان عيد الأضحى ذبحناه .

فلما كان يوم الأضحى وأرادوا الديك للذبح طار على سقوف الجيران فطلبوه ، وفشا الخبرُ فى الجيران وكانوا مياسيرَ ، فَرقُّوا للقاضى ورَقُّوا لقلة ذات يده ، فأهدى إليه كل واحد كبشاً فاجتمعت فى داره أكبش كثيرة وهو فى المُصَلَّى لا يعلم ، فلما صار إلى منزله ورأى ما فيه من الأضاحى قال لامرأته : من أين هذا ؟ فقالت : أهدى إلينا فلان وفلان ــ حتى سَمَّتْ جماعتهم ــ ما ترى . قال : ويحك احتفظى بديكنا هذا فما فُدِىَ إسحاق بن إبراهيم إلا بكبش واحد ، وقد فُدِىَ ديكنا بهذا العدد .

قال الحسن رحمه اللّه : الأخلاقُ للمؤمن قُوَّةٌ فى لِين ، وحَزْمٌ فى دين ، وإيمانٌ فى يقين، وحِرْصٌ على العلم ، واقتصاد فى النفقة ، وبَذْلٌ فى السعة ، وقناعة فى الفاقة ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء فى كرم ، وبِرٌّ فى استقامة .

وقال الأشعث بن قيس يوماً لقومه : إنما أنا رجلٌ منكم ليس فىَّ فضلٌ عليكم ، ولكنى أبسطُ لكم وجهى ، وأبذلُ لكم مالى ، وأقضى حقوقكم ، وأَحُوطُ حريمكم ، فمن فعل مِثْلَ فِعلى ، فهو مِثلى ، ومن زاد علىَّ ، فهو خير منى ، ومن زدت عليه ، فأنا خير منه . قيل له: يا أبا محمد ، ما يدعوك إلى هذا الكلام ؟ قال : أَحُضُّهم على مكارمِ الأخلاق .

وسئل عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما عن السؤدد فقال : الحِلْمُ السُّؤدُد . وقال أيضاً : نحنُ معشر قريش نَعدُّ الحلم والجود السؤدد ، ونعد العفافَ وإصلاحَ المال المروءة .

وقال أبو عمرو بن العلاء : كان أهلُ الجاهلية لا يُسَوِّدونَ إلا مَنْ كانت فيه ست خصال وتمامها فى الإسلام سابعة : السخاء والنجدة والصبر والحلم والبيان والحسب ، وفى الإسلام زيادة العفاف .

ذُكِرَ لعبد اللّه بن عمر: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية رضى اللّه عنهم فقال : كان معاويةُ أسودَ منهم ، وكانوا خيراً منه .

وذكر ابن عبد البر عن النبى ﷺ قال : « مَنْ رزقه اللّه مالاً ، فبذل معروفه وكَفَّ أذاه فذلك السيدُ » .

وقال ﷺ يوماً للأنصار : « مَنْ سيِّدكم ؟ » قالوا : الجَدُّ بن قيس على بخل فيه ، فقال النبىُّ ﷺ : « أى داءٍ أدوأُ من البخل ؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح » [1] فقال

(١) فتح البارى ٥/ ١٧٨ ، ١٧٩ عن كعب بن مالك ، والحاكم فى المستدرك فى معرفة الصحابة ، ب مناقب بشر بن البراء بن معرور ٣/ ٢١٩ ، عن أبى هريرة ، وليس فيه عمرو بن الجموح .

شاعرهم فى ذلك :

وقال رسُول اللّه والحقُّ قولُه ... لمن قال منا : مَنْ تُسَمُّون سيداً ؟
فقالوا له الجد بن قيس على التى ... نُبَخِّلُه فيها وإنْ كان أسودا
فتىً ما تَخَطَّى خطوةً لِدَنِيَّةٍ ... ولا مَدَّ فى يوم إلى سوأة يدا
فسود عمرو بن الجموح بجوده ... وحق لعمرٍو بالندى أنْ يُسَوَّدا
إذا جاءه السُّوَّالُ أنهبَ مالَهُ ... وقال : خذوه إنه راجعٌ غداً
فلو كنتَ يا جدَّ بن قيسٍ على التى ... على مِثْلِها عمروٌ لكنتَ مُسَوَّداً

وقال بعضهم : السؤدد بالبخت ، كم من فقيرٍ ساد وليس له بالمال إلى غيره كعتبة بن ربيعة وغيره .

سب الشعبىَّ رجلٌ فقال له : إنْ كنتَ كاذباً يغفر اللّه لك ، وإن كنت صادقاً يغفر اللّه لى.

وقال خالد بن صفوان : شهدت عمرو بن عبيد ورجل يشتمه فقال له : آجَرَكَ اللّهُ على ما ذكرتَ من خطأ ، قال : فما حسدتُ أحداً حسدى عمرو بن عبيد على هاتين الكلمتين .

وقال الأحنف بن قيس : ما نازعنى أحدٌ إلا أخذتُ فى أمره بإحدى ثلاث خصال : إنْ كان فوقى عرفت له قَدْرَهُ ، وإنْ كان دونى كرمت نفسى عنه ، وإن كان مثلى تفضلتُ عليه . أخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال :

سأُلْزِمُ نفسى الصبرَ عن كُلِّ مذنبٍ ... وإنْ كَثُرَتْ منه علىَّ الجرائمُ
وما الناسُ إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومِثْلٌ مقاومُ
فأما الذى فوقى فأعرفُ فَضْلَهُ ... وألزم فيه الحَقَّ والحقُّ لازمُ
وأما الذى دونى فإنْ قال،صُنْتُ عن ... مقالته نفسى وإنْ لامَ لائمُ
وأما الذى مِثْلى فإنْ زَلَّ أو هفا ... تفضلتُ،إنَّ الفضلَ بالعز حاكمُ

وقال عَبِيدُ بن الأبرص [1] :

إذا أنتَ لم تعملْ برأيٍ ولم تُطِعْ ... أولى الرأي لم تَركَنْ إلى أمر مرشد

(١) هو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدى ، من مضر ، أبو زياد ، شاعر ، من دهاة الجاهلية وحكمائها ، وهو أحد أصحاب « المجمهرات » عاصر امرأ القيس ، وله معه مناظرات ومناقضات ، وعمَّر طويلا حتى النعمان بن المنذر ، له ديوان شعر ، مات نحو سنة خمس وعشرين . [الأعلام ٤/١٨٨].

ولم تجتنبْ ذَمَّ العشيرة كلها وتدفع عنها باللسان وباليد
وتحلم عن جهَّالها وتحوطها وتقمع عنها نخوة المتهدد
فلستَ ــ ولو عَلَّلْت نفسك بالمنى ــ بذى سؤددٍ بادٍ ولا قُرْبَ سُؤْدُدِ

وقال آخر :

إذا هلكت أُسْدُ العرين ولم يكنْ لها خلف فى الغِيل سادَ الثعالبُ
كذا القمرُ السارى إذا غابَ لم يكنْ له خلف فى الجو إلا الكواكبُ

وقال بعض الحكماء : من ابتغى المكارم ، فليتجنب المحارم .

قال رسول اللّه ﷺ لأشج عبد القيس : « فيك خلَّتانِ يحبهما اللّهُ ورسوله ــ أو قال يرضاهما اللّه ورسوله ــ الحِلْمُ والأَنَاةُ » قال : يا رسول الله ، أشىءٌ جَبَلنى اللّهُ عليه أم شىء اخترعته من نفسى ؟ قال : « بل شىء جَبَلَكَ اللّهُ عليه » فقال : الحمد للّه الذى جبلنى على شىء ــ أو على خلُقٍ ــ يَرْضَاهُ اللّهُ ورسوله (١) . والحديث صحيح فى « الصحيحين » أو فى الصحيح .

قال الشعبى : زَيْنُ العلم حِلْمُ أهله ، وقال رجاء بن أبى سلمة : الحلم أرفعُ من العقل لأنَّ اللّه تعالى تَسَمَّى به .

كان الأحنف إذا عجبوا من حلمه قال : إنى لأجد ما تجدون ولكنى صبور . وقال معاوية رضى اللّه عنه : إنى لأرفعُ نفسى أن يكون ذنْبٌ أرجحَ من حلمى .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما قُرِنَ شىءٌ إلى شىء أحسن من حِلْمٍ إلى علم ، ومن عفوٍ إلى قُدْرة . وقال أبو العتاهية :

فيا رب هَبْ لى منك حلماً فإننى أرى الحلم لم يندمْ عليه حليمُ
ويا رب هب لى منك عزماً على التقى أقيمُ به ما عشتُ حيثُ أقيم
ألا إنَّ تقوى اللّه أكرم نسبةٍ تسامى بها عند الفخارِ كريمُ

وقال آخر :

أرى الحِلْمَ فى بعض المواطن ذِلَّةً وفى بعضها عِزا يسوّد فاعله

---

(١) مسلم فى الإيمان ، ب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين (١٧/ ٢٥) ، والحديث ليس فى صحيح البخارى .

وقال آخر :

وإنك تلقى صاحبَ الجهل نادماً عليه،ولا يأسى على الحِلْم صَاحِبُهْ

كان عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما إذا سافر سافرَ معه بِسَفيهٍ ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنْ جاءنا سفيه ، لأنَّا ما ندرى ما نُقابل به السفهاء .

قال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

وقال بعضهم :

ولربما اعتَضَدَ الحليمُ بجاهلٍ لا خيرَ فى اليمنى بغير يسار

ومَرَّ قومٌ بدير راهبٍ وفيهم عالم كبير مشار إليه ، فأنزلهم الراهبُ فى صومعةٍ ورَحَّبَ بهم، وتلقَّاهم بالبِشْرِ والكرامة ، فأقاموا عنده كل النهار إلى الليل ، فقام رجلٌ منهم فى حالهم وإصلاح شأنهم ، فلما أن أراد أن يضىء لهم جاء بالقداح فقدح لهم ، فلما أضاء الضوء التفت إلى أحدهم فقال : أيكم الشيخ المُشَارُ إليه ؟ فأشار أحدهم إلى الشيخ ، فتكلم حينئذ الراهبُ بكلامٍ فصيح ، ثم قال للشيخ : ياسيدى هذه النار التى طلعت وأَشْعلتَ منها : أهىَ من الصوانة أم من الحراقة أم من الحديدة ؟ فسكت الشيخ فلم يتكلم ، وكان فى جمْع الشيخ رجلٌ سفيه فتكلم وأبلغ ، وقال : أيها الراهب ، لقد تهجمتَ على مقامٍ لم يكنْ لك ، ألا سألتنى عن هذا السؤال؟ فقال : لم أعرفْ أنَّ عندكَ عِلْماً من ذلك ، فقال : بلى ، فعند ذلك تكلم الراهب ، فلما فرغ من ذلك قال له السفيه وكانوا فى قبة : ما هذا الذى على صدركَ ؟ فطأطأ الراهبُ رأسهُ ينظر إلى ما أشار إليه السفيه ، فصفعه السفيهُ صفعة علا حسُّها علواً شديداً ، ثم قال للراهب : أهذا الحِسُّ من ساحلك أم من يدى أم من القبة ؟ قال : فأفحم الراهب فلم يستطع جواباً .

واعلم أن الحُلم بضم الحاء : ما يراه النائم ، تقول منه : حَلَمَ بالفتح واحْتَلَمَ ، وتقول : حَلُمْتُ بكذا وحلمته أيضاً ، والحِلْم بالكسر : الأناة ، تقول منه : حلم الرجل بالضم ، وتحلَّم: تكلّف الحلم ، قال الشاعر :

تحَلَّمْ عن الأَدْنَيْنَ واستبقِ وُدَّهُم ولن تستطيعَ الحِلْمَ حتى تَحَلَّمَا

وتحالم ، أى : رأى من نفسه ذلك وليس به . وحلَّمت الرجل تحليماً : جعلته حليماً . والمحلِّم : الذى يأمر بالحلم . والحَلَمُ بالتحريك : ديدان تفسد [1] الإهاب تقول منه : حَلِمَ الأديمُ بالكسر .

(١) فى المخطوطة : « أن تفسدان » ، والمثبت من ر ، ط .

وينبغى لمن استعان بسفيه أن يأخذ على يديه ، ولا يُطلق عنانه ويسلطه ؛ فإن ذلك فى الغالب يكون ضرره أكثر من نفعه لاسيما بالنسبة إلى الآخرة . وربما انتشر الفساد وعظم ، وتعِبَ الكبيرُ فى استدراكه ، وقد لا يمكنه ذلك ، فَقَطْعُ هذا من الابتداء هو الواجبُ ، وهذا أمر واضح معلوم لا يخفى على عاقل نظر فيه . وقد قال جرير الشاعر المشهور :

أبنى حنيفةَ أَحْكِموا سُفَهَاءكُمْ إنى أخافُ عليكمُ أنْ أغضبا

وسبق ما يتعلق بهذا بكراريس فى ذكر مناقب الإمام أحمد بعد ما يتعلق بطاعة الوالى وغيره ، وفى الأمر بالمعروف فى الإنكار على السلطان .

وذكر ابن عبد البر : عن النبى ﷺ قال : « حَسَبُ المرء دينه ، وكرمه تقواه ، ومروءته عقله » ويروى نحو هذا عن عمر .

وعن النبى ﷺ أنه قال لرجل من ثقيف : « ما المروءةُ ؟ » قال : الصلاحُ فى الدين ، وإصلاح المعيشة وسخاء النفس وصِلَةُ الرحم . فقال عليه السلام : « هكذا هى عندنا فى حكمة آل داود » .

تذاكروا المروءة عند رسولِ اللّه ﷺ فقال : « أما مروءتنا فأنْ نعفو عمن ظلمنا ، ونُعطى مَنْ حَرَمَنا ، ونَصِلَ من قطعنا » .

سئل عبد اللّه بن عمر عن المروءة فقال : العفافُ وإصلاح المال .

سأل معاوية الحسن بن على رضى اللّه عنهم عن المروءة والكرم والنجدة ، فقال : أما المروءة : فَحِفْظُ الرجل نَفْسَهُ ، وإحرازه دينه ، وحسن قيامه بصنعته ، وترك المنازعة ، وإفشاء السلام ، وأما الكرم : فالتبرع بالمعروف ، وإعطاؤك قبل السؤال ، والإطعام فى المحل ، وأما النجدة : فالذَّبُّ عن الجار ، والصبرُ فى المواطن ، والإقدام على الكريهة (١) .

قال طلحة بن عبيد اللّه : جلوسُ الرجل ببابه من المروءة ، وليس من المروءة حَمْلُ الكيس فى الكم .

وسئل الأحنف عن المروءة فقال : التفقه فى الدين ، وبِرُّ الوالدين ، والصبر على النوائب.

ويروى عن الأحنف قال : لا مروءةَ لِكَذُوبٍ ، ولا إخاءَ لِمَلُولٍ ، ولا سؤدد لسيئ الخلق.

(١) ذكر فى هوامش المطبوعات بأن الأثر المروى عن الحسن ساقط من المخطوطة المصرية . وهذا غير صحيح لأن الأثر موجود فى المخطوطة المصرية التى بين أيدينا بكامله .

سئل ابن شهاب الزهرى عن المروءة فقال : اجتناب الريب ، وإصلاح المال ، والقيام بحوائج الأهل . وقال الزهرى أيضاً : الفصاحة من المروءة.

وقال إبراهيم النخعى : ليس من المروءة كثرة الالتفات فى الطريق .

وقال غيره : من كمال المروءة أن تصونَ عِرْضَكَ ، وتكرم إخوانك ، وتَقِيلَ فى منزلك .

وذُكِرَت الفتوةُ عند سفيان الثورى فقال : ليست الفتوةُ بالفسق ولا الفجور ، ولكن الفتوة كما قال جعفر بن محمد : طعامٌ موضوع ، وحجاب مرفوع ، ونائل مبذول ، وبِشْرٌ مقبول ، وعفاف معروف ، وأذى مكفوف .

قال محمد بن داود : من كان ظريفاً فليكن عفيفا . قال منصور الفقيه : فضل التقى أفضل من فضل اللسان والحسب ، إذا هما لم يُجْمَعا إلى العفاف والأدب ، وقال آخر :

وليس فتى الفتيانِ مَنْ راح واغتدى ... لشرب صَبُوح أو لشرب غَبُوقِ
ولكنْ فتى الفتيان مَنْ راح واغتدى ... لِضُرِّ عدوٍ أو لنفع صديق

وروى الخلال عن أحمد وجماعة من السلف الممازحة فى بعض الأوقات ، وحديث ابن عمر مرفوعاً : « إنى لأمزح ولا أقول إلا حقاً » .

ولأحمد والترمذى وحَسَّنَهُ من حديث أبى هريرة : « إنى لا أقولُ إلا حقاً »[1] فقال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا قال : « إنى لا أقول إلا حقاً ». هو حديث ابن المبارك ، عن أسامة بن زيد الليثى ، عن سعيد المَقْبُرِىِّ ، عن أبى هريرة ، وأسامةُ وإن كان من رجال مسلم فقد ضعفه الأكثر .

وعن أنس أن رجلاً أتى النبى ﷺ فاستحمله فقال : « إنَّا حاملوكَ على ولد الناقة » فقال: يا رسول اللّه، ما أصنعُ بولد الناقة ؟ فقال: « وهل تَلِدُ الإبلَ إلا النُّوقُ » رواه أحمد وأبو داود والترمذى وقال : صحيح غريب [2] .

ولأبى داود والترمذى عن أنس أن النبى ﷺ قال له : « يا ذا الأذنين »[3] يعنى يُمازحه.

وكان رجل من أهل البادية اسمه زاهر يهدى للنبى ﷺ الهدية من البادية ، فيجهزه إذا أراد

---

(١) أحمد ٢/ ٣٤٠ ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المزاح (١٩٩٠) .

(٢) أحمد ٣/ ٢٦٧ ، وأبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى المزاح (٤٩٩٨) ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المزاح (١٩٩١) .

(٣) أبو داود فى الأدب ، ب ما جاء فى المزاح (٥٠٠٢) ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المزاح (١٩٩٢) وقال : « هذا حديث صحيح غريب » .

أن يخرج ، فقال : « إنَّ زاهراً بادينا ، ونحنُ حَاضِرَتُه »، وكان دميماً فأتاه النبى ﷺ وهو يبيعُ متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل فقال : أرسلنى ، مَنْ هذا ؟ فالتفت ، فعرف النبىَّ ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبى ﷺ حين عرفه وجعل النبىُّ ﷺ يقول : « مَنْ يشترى العبد » فقال : يا رسول الله إذا واللّه تجدنى كاسداً ؟ فقال : « لكن عند اللّه لست بكاسد ــ أو قال ــ لكن عند اللّه أنت غالٍ » رواه أحمد من حديث أنس (١) .

الدميم بالدال المهملة فى الخَلْق بفتح الخاء : القِصَرُ والقُبْحُ ، وبالذال المعجمة فى الخُلُق بضمها .

وقال محمود بن الربيع: إنى لأعقل مَجَّةً مَجَّها رسولُ اللّه ﷺ . رواه مسلم والبخارى(٢) وزاد : فى وجهى .

قال فى « شرح مسلم » : قال العلماء : المج طَرْحُ الماء من الفم بالتزريق ، وهذا فى ملاطفة الصبيان وتأنيسهم وإكرام آبائهم بذلك ، وجواز المزح .

وروى الترمذى عن زياد بن أيوب، عن عبد الرحمن المحاربى، عن ليث، عن عبد الملك، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً: «لا تمار أخاكَ، ولا تمازحه ولا تَعِدْهُ موعداً فَتُخلفَهُ »(٣). عبد الملك هو ابن جريج لم يسمع من عكرمة . قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلاَ من هذا الوجه ، وسبق ما يتعلق بهذا فى فصول الكذب .

وذكر ابن عبد البر قول ابن عباس رضى الله عنهما : المزاح بما يَحْسُنُ مباحٌ ، وقد مزح النبى ﷺ فلم يقل إلا حقاً .

قال غالب القطان : أتيت محمد بن سيرين وكان مزاحاً ، فسألته عن هشام بن حسان فقال : توفى البارحة أما شعرتَ ؟ ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٦]. وقال: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا**﴾ [الزمر : ٤٢] .

وفى الحديث المأثور : أنَّ عيسى عليه السلام كان يبكى ويضحك، وكان يحيى عليه السلام يبكى ولا يضحك ، فكان خيرهما المسيح .

وقال الخليل بن أحمد : الناسُ فى سجنٍ ما لم يتمازحوا .

مزح الشعبى يوماً ، فقيل له: يا أبا عمرو، أتمزح ؟ قال : إنْ لم يكن هذا مُتْنَا من الغَمِّ .

---

(١) أحمد ٣/ ١٦١ .

(٢) البخارى فى الدعوات ، ب الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رؤوسهم (٦٣٥٤) ، ومسلم فى المساجد ، ب الرخصة فى التخلف عن الجماعة بعذر (٣٣/ ٢٦٥) .

(٣) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى المراء (١٩٩٥) .

وكان محمد بن سيرين يداعب ويضحك حتى يسيلَ لعابهُ ، فإذا أَرَدتَه على شيءٍ من دينهِ كانت الثريا أقربَ إليكَ من ذلك .

قال ابن عبد البر : وقد كره جماعةٌ من العلماء الخوضَ فى المزاح لما فيه من ذميم العاقبة ، ومن التوصل إلى الأعراض ، واستجلاب الضغائن ، وإفساد الإخاء . كان يقال : لكل شيءٍ بدْءٌ ، وبَدْءُ العداوةِ المزاحُ . وكان يقال : لو كان المزاح فحلاً ما ألقح إلا الشر .

قال سعيد بن العاص : لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنىء فيجترئ عليك .

وقال ميمون بن مهران : إذا كان المزاح أمام الكلام ، فآخره الشتم واللطام .

وقال جعفر بن محمد : إياكم والمزاح ، فإنه يذهب بماء الوجه ، كان خالد بن صفوان يكره المزاح ويقول : يسعط أحدهم أخاهُ بأحرَّ من الخردل ، ويفرغ عليه أشَدَّ من غلى المِرْجَل ، ويقول : مازحته .

وقال إبراهيم النخعى : لا يكون المزاح إلا فى سخف أو بطر . السُّخْفُ بضم السين : رقة العقل ، وقد سَخُفَ الرجلُ بالضم سخافة فهو سخيف ، وساخفته مثل : حامقته . قال أبو هفان:

مَازح صديقكَ ما أحَبَّ مزاحا ... وتَوَقَّ منه فى المزاح جماعا
فلربما مزح الصديق بمزحةٍ ... كانتْ لِبَابِ عداوةٍ مفتاحاً

وقال آخر :

لا تَمزحن فإذا مزحت فلا يكن ... مزحاً تُضاف به إلى سوء الأدب
واحذر ممازحة تعودُ عداوةً ... إنَّ المزاح على مقدمة الغضب

وقد روى عن النبى ﷺ : « إياكم وكثرةَ الضحك ؛ فإنه يُميتُ القلبَ ، ويَذهبُ بنور الوجه » (١).

قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ استخف به وذهب بهاؤه .

وقال بعض الحكماء : إياك والمشى فى غير أربٍ ، والضحك من غير سبب . وقال بعض الشعراء :

الكِبْرُ ذُلٌّ ، والتواضع رِفْعةٌ ... والمزح والضحك الكثير سقوط
والحِرْصُ فَقْرٌ والقناعةُ عِزَّةٌ ... واليأسُ من صنع الإله قُنوطُ

(١) أحمد ٢/ ٣١٠ وليس فيه « ويذهب بنور الوجه » ، والترمذى فى الزهد ، ب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٢٣٠٥) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب الحزن والبكاء (٤١٩٣) وقال فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

وقال آخر :

فإياك إياك المزاحَ فإنه ... يُجَرِّى عليك الطفْلَ والدَّنِسَ النَّذْلا
ويُذْهِبُ ماءَ الوجهِ بعد بَهَائِهِ ... وَيُورِثُهُ مِنْ بعدِ عِزَّتِهِ ذُلاَّ

وقال محمود الوراق :

تلقَى الفتى يلقى أخاهُ وخِدْنَهُ ... فى لحنِ منطقه بما لا يغفر
ويقول : كنتُ مُمازحاً ومُلاعباً ... هيهاتَ نارُك فى الحشا تَتَسَعَّرُ
ألهبتها وطفقتَ تضحك لاهياً ... مما به ، وفؤاده يَتفطَّرُ
أوَمَا علمتَ ومثل جهلك غالب ... أَنَّ المزاح هو السباب الأكبر

قال الجوهرى : المَزْحُ : الدعابة ، وقد مزح يمزَح ، والاسم المُزاح والمُزاحة أيضاً ، وأما المِزاح بالكسر ، فهو مصدر مازحه . وهما يتمازحان (١) .

قال ابن عبد البر : قالوا : مَنْ أراد أن يدوم له وُدُّ أخيه فلا يمازحه ولا يعده موعداً فيخلفه .

وسَبَقَ الكلامُ فى ضحكه عليه السلام حتى بَدَتْ نَواجذُه فى فصول التوبة فى (أنَّ سيئةَ التائبِ هل تُبَدَّلُ حسنةً) . وقد ضحك المقدادُ بحضرة النبىِّ ﷺ حتى ألقى إلى الأرض ، رواه مسلم (٢) من حديث المقداد فى قصة طويلة فى آدابِ الأطعمة .

وروى ابن الأخضر فيمن روى عن أحمد بإسناده عن أبى مسعود الأصبهانى أحمد بن الفرات قال : كنا نتذاكرُ الأبوابَ ، فخاضوا فى بابٍ ، فجاؤوا فيه بخمسة أحاديث : قال : فجئتهم بسادس ، فنخس أبو عبد اللّه أحمد بن حنبل فى صدرى لإعجابه به .

وقد قال أبو الفرج فى أوائل « صيد الخاطر » : ما أعرفُ للعالمِ قط لذةً ولا عزاً ولا شرفاً ولا راحة وسلامة أفضل من العزلة ، فإنه ينالُ بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند اللّه عز وجل وعند الخَلْقِ ؛ لأنَّ الخَلْقَ يهونُ عليهم مَنْ يُخالطهم ولا يعظم عندهم قول المخالط لهم ، ولهذا عظم عليهم قَدْرُ الخلفاء لاحتجابهم . وإذا رأى العوام أحدَ العلماء مترخصاً فى أمرٍ مباح هان عندهم فالواجب عليه صيانةُ علمه وإقامةُ قدر العلم عندهم .

فقد قال بعض السلف : كنا نمزح ونضحك ، فإذا صرنا يُقْتَدى بنا فما أراه يسعنا .

وقال سفيان : تعلموا هذا العلم واكظموا عليه ولا تخلطوه بهزْلٍ فتمجَّه القلوبُ .

---

(١) انظر : اللسان ، مادة « مزح » .

(٢) مسلم فى الأشربة ، ب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٥/ ١٧٤) .

فمراعاةُ الناس لا ينبغى أنْ تُنْكَرَ ؛ فقد قال عليه السلام لعائشة : « لولا حدثان قومكِ بكفرٍ لنقضتُ الكعبةَ وجعلت لها بابين » (١) .

وقال أحمد فى الركعتين قبل المغرب : رأيتُ الناسَ يكرهونها فتركتها . فلا نسمع من جاهلٍ يرى مثل هذه الأشياء رياء ، إنما هذه صيانةٌ للعلم ، إلى أن قال : فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية ، فلا ينبغى للعالم أنْ يتبسطَ عند العوام حِفظاً لهم ، ومتى أراد مباحاً فليستترْ به عنهم . وهذا القَدْرُ الذى لاحظه أبو عبيدة حين رأى عمر بن الخطاب قد قدم الشام راكباً على حمار ورجلاه من جانب فقال : يا أميرَ المؤمنين يلقاكَ عُظماءُ الناس ، فما أحسنَ ما لاَحَظَ ، إلا أنَّ عمرَ رضى اللّه عنه أراد به تأديبَ أبى عبيدة بحفظ الأصل فقال : إنَّ اللّه أعزكم بالإسلام ؛ فمهما (٢) طلبتم العزَّ فى غيره أذلَّكم . والمعنى : ينبغى أنْ يكون طلبكم العزَّ بالدِّينِ لا بصور الأفعال وإنْ كانت الصُّورُ تُلاحظ . انتهى كلامه . وقد سبق هذا المعنى بنحو ثلاث كراريس فى فصول العلم .

فصل مدح الحياء وكونه خلق الإسلام

عن عمران مرفوعاً : « الحياء لا يأتى إلا بخير الحياءُ خيرٌ كله » (٣) .

وعن ابن عمر أن النبى ﷺ مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء يقول : إنك تستحيى ، حتى كأنه يقول : قد أَضَرَّ بكَ ، فقال رسول اللّه ﷺ : « دعه فإن الحياء من الإيمان » رواهما أحمد والبخارى ومسلم (٤) .

وفى « الصحيحين » أن عمران لما حدَّث ، قال له بشير ــ بفتح الباء الموحدة والشين المعجمة ــ ابن كعب : إنه مكتوبٌ فى الحكمة : إنَّ منه وقاراً ومنه سكينة ، فقال عمران : أحدثك عن رسول اللّه ﷺ وتحدثنى عن صحيفتك ؟(٥)

ولمسلم أن بشيراً قال : إنا لنجد فى بعض الكتب ــ أو الحكمة ــ إن منه سكينة ووقاراً للّه

---

(١) البخارى فى الحج ، ب فضل مكة وبنيانها (١٥٨٣) ، ومسلم فى الحج ، ب نقض الكعبة وبنائها (١٣٣٣/ ٣٩٩) .

(٢) فى المخطوطة : « فما » وهو خطأ ، والمثبت من ر ، ط .

(٣) أحمد ٤/ ٤٢٧ ، والبخارى فى الأدب ، ب الحياء (٦١١٧) ، ومسلم فى الإيمان ، ب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٧/ ٦٠) .

(٤) أحمد ٢/ ١٤٧ ، والبخارى فى الأدب ، ب الحياء (٦١١٨) ، ومسلم فى الإيمان ، ب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٦/ ٥٩) .

(٥) البخارى فى الأدب ، ب الحياء (٦١١٧) ، ومسلم فى الإيمان ، ب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٧/ ٦٠) .

ومنه ضَعْفٌ ، بفتح الضاد وضمها ، فغضب عمران حتى احْمَرَّتا عيناه [١] ، وفى بعض النسخ ورواه أبو داود وغيره : احمرت ، وقال : ألا أرانى أحدثك عن رسول اللّه ﷺ وتعارضنى فيه، فأعاد عمران الحديث ، فأعاد بشير ، فغضب عمران [٢] فما زلنا نقول: إنه منا يا أبا نجيد لا بأس به .

وفى « الصحيحين »: عن أبى سعيد قال : كان رسول اللّه ﷺ أشَدَّ حياءً من العذارء فى خِدْرِهَا ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه فى وجهه[٣] . وعن أنس مرفوعاً : « ما كان الفُحْشُ فى شىءٍ إلا شانه، وما كان الحياءُ فى شىء إلا زانه » رواه أحمد وابن ماجه والترمذى ، وقال: حسن غريب [٤] .

وعن أبى هريرة مرفوعاً : « الحياءُ من الإيمان ، والإيمانُ فى الجنة ، والبَذَاءُ من الجَفَاءِ ، والجفاءُ فى النار » رواه أحمد والترمذى وقال : حسن صحيح [٥] . ولابن ماجه من حديث أبى بكرة مثله [٦] .

وفى « الموطأ » مرسلاً : « إن لكل دين خلقاً وإنَّ خُلُقَ الإسلامِ الحياءُ » [٧] ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس ومن حديث أنس ، والحياء ممدود : الاستحياء .

وقال الواحدى : قال أهل اللغة : الاستحياء من الحياء ، واستحيا الرجل ، من قوة الحياء فيه ؛ لشدة علمه بمواقع العيب .

قال غير واحد : قد يكون الحياء تخلقاً واكتساباً كسائر أعمال البر وقد يكون غريزة ، واستعماله على مقتضى الشرع يحتاج إلى كسب ونية وعلم ، وإن حَمَل شىءٌ على ترك الأمر والنهى والإخلال بحق ، فهو عجز ومهانة ، وتسميته حياء مجاز . وحقيقة الحياء : خُلُقٌ يبعث على فعل الحسن وترك القبيح . واللّه أعلم .

وذكر ابن عبد البر عن سليمان عليه السلام : الحياءُ نظامُ الإيمان ، فإذا انحل النظام ،

---

(١) مسلم فى الإيمان ، ب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٧/ ٦١) .

(٢) أحمد ٤/ ٤٤٥ ، وأبو داود فى الأدب ، ب فى الحياء (٤٧٩٦) .

(٣) أحمد ٣/ ٧١ ، والبخارى فى الأدب ، ب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠٢) ، ومسلم فى الفضائل ، ب كثرة حيائه ﷺ (٦٧/٢٣٢٠) .

(٤) أحمد ٣/ ١٦٥ ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى الفحش والتفحش (١٩٧٤) وابن ماجه فى الزهد ، ب الحياء (٤١٨٥) .

(٥) أحمد ٢/ ٥٠١ ، والترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى الحياء (٢٠٠٩) .

(٦) ابن ماجه فى الزهد ، ب الحياء (٤١٨٤) .

(٧) مالك فى الموطأ فى حسن الخلق ، ب ما جاء فى الحياء ٢ / ٩٠٥ (٩) ، وابن ماجه فى الزهد ، ب الحياء (٤١٨١ ، ٤١٨٢) .

ذهب ما فيه .

وفى التفسير : ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف : ٢٦] قالوا : الحياء ، وقالوا : الوقار من اللّه ، فمن رزقه اللّه الوقار فقد وسمه بسيما الخير . وقالوا : من تكلم بالحكمة لاحظته العيون بالوقار .

وقال الحسن : أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلق بواحدةٍ منهن كان من صالحى قومه: دِينٌ يرشده ، وعقلٌ يسدده ، وحَسَبٌ يصونه ، وحياء يقوده .

وفى « الصحيحين » أو فى « الصحيح » : عن عائشة قالت : رحم اللّه نساء الأنصار لم يَمْنَعهنَّ الحياءُ أنْ يسألن عن أمر دينهن ، وأنْ يتفقهنَ فى الدين (١) .

وقالت أيضاً : رأس مكارم الأخلاق الحياء .

وفى « الصحيحين » عن أبى مسعود ، عن النبى ﷺ قال : « إنَّ مما أدرك الناسُ من كلامِ النبوة الأولى إذا لم تَسْتَحِى فاصنعْ ما شئتَ » (٢) . وقال حبيب :

إذا لم تَخْشَ عاقبةَ اللَّيالى ولم تَسْتَحِى فافعلْ ما تشاءُ
فلا واللّه ما فى العيشِ خيرٌ ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ويبقى العودُ ما بقى اللِّحاءُ

وقال أبو دُلَفَ العِجْلِىُّ (٣) :

إذا لم تَصُنْ عِرْضاً ولم تَخْشَ خالقاً ولم تَرْعَ مخلوقاً فما شئتَ فاصنعِ

وقال صالح بن جناح (٤) :

---

(١) البخارى معلقا (الفتح ١/ ٢٢٨) ، ومسلم فى الحيض ، ب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك فى موضع الدم (٣٣٢/ ٦١) .

(٢) البخارى فى الأدب ، ب إذا لم تستحى فاصنع ما شئت (٦١٢٠) ، ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف لمسلم (٩٩٨٢) .

(٣) هو أبو دلف صاحب الكرج وأميرها ، القاسم بن عيسى العجلى حدث عن هشيم وغيره ، وعنه محمد بن المغيرة الأصبهانى ، وكان فارساً شجاعاً مهيبا سائساً ، شاعراً ، مجوداً ، له أخبار فى الكرم والفروسية ، مات ببغداد سنة خمس وعشرين ومائتين . [سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٦٣ ، ٥٦٤] .

(٤) هو صالح بن جناح اللخمى ، شاعر دمشقى ، من الحكماء ، أدرك التابعين تنسب إليه مقطوعات لطيفة ، وله رسالة فى الأدب والمروءة . ومن مقطوعاته :

ألا رب ذى عينين لا تنفعانه وهل تنفع العينان من قلبه أعمى

[الأعلام ٣/ ١٩٠].

إذا قَلَّ ماءُ الوجه قَلَّ حياؤهُ ولا خيرَ فى وجه إذا قَلَّ ماؤهُ

وقال آخر :

إذا رُزِقَ الفتى وجهاً وَقَاحاً تَقَلَّبَ فى الوجوه كما يشاء

وقال آخر كأنه الفرزدق (١) :

يُغضى حياءً ويُغْضَى من مهابته فلا يُكَلَّم إلا حينَ يبتسم

وقال الأصمعى : سمعت أعرابياً يقول : من كساه الحياء ثوبه لم يَرَ الناسُ عيبه .

فصل فى البصيرة والنظر فى العواقب

كان ملوك فارس يعتبرون أحوال الحواشى بإيفاد التُّحف على أيدى مُسْتَحْسَنَات الجوارى ، ويأمرونهن بالتدريج حتى إذا أطالوا الجلوس فتدبَّ بَوادى الشهوة قتلوا أولئكَ . وإذا أرادوا مطالعةَ عقائد النُّسَّاك دَسُّوا مَنْ يتابعهم على ذَمِّ الدولة ، فإذا أظهروا ما فى نفوسهم استأصلوهم. قال ابن عقيل فى « الفنون » : فينبغى الحَذَرُ من هذه الأحوال ، ومَنْ مَخَضَ الرأىَ كانت زبدته الصواب .

وذكر ابن الجوزى هذا المعنى فى غير موضع ، وذكر من ذلك حكايات وقال : ليحذر الحازمُ من الاشتراك ، وقال : الرجلُ : مَنْ عمل بالحزم وحذِرَ الجائزات ، والأبله : الذى يعملُ على الظواهر ويثق بمن لم يجرب .

وقال أيضاً أبو الفرج فى كتابه « السر المصون » (فصل مهم) : إنما فضِّل العقل على الحس بالنظرِ فى العواقب ، فإنَّ الحسَّ لا يرى إلا الحاضر ، والعقل يلاحظ الآخرة ويعمل على ما يتصور أنْ يقع ، فلا ينبغى للعاقلِ أنْ يغفلَ عن تَلَمُّحِ العواقب .

فمن ذلك أنَّ التكاسلَ فى طلب العلم وإيثار عاجل الراحة يوجب حسرات دائمة لا تَفى لَذَّةُ البطالة بمعشارِ تلك الحسرة ، ولقد كان يجلس إلىَّ أخى وهو عامى فقيرٌ ، فأقول فى نفسى: قد تساوينا فى هذه اللحظة فأين تعبى فى طلب العلم ؟ وأين لذة بطالته ؟

ومن ذلك أنَّ الإنسانَ قد يجهلُ بعض العلم فيستحيى من السؤال والطلب لكبر سنه ولئلا يُرَى بعين الجهل ، فيلقى من الفضيحة إنْ سُئِلَ عن ذلك أضعاف ما آثرَ من الحياء .

ومن ذلك الطبع يُطالب بالعمل بمقتضى الحالة الحاضرة مثل جواب جاهل وقت الغضب ،

(١) البيت للفرزدق فعلا فى مدح على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم .

ثم يقع الندم فى ثانى الحال ، على أن لذة الحلم أوفى من الانتقام ، وربما آثر ذلك الحقد من الجاهل ، فتمكن ، فبالغ فى الأذى له .

ومن ذلك أن يُعادى الناس وما يأمنُ أن يرتفع المُعَادَى فيؤذيه ، وإنما ينبغى أن يضمر عداوة العدو .

ومن ذلك أن يحب شخصاً ، فيفشى إليه أسراره، ثم تقع بينهما عداوة فيظهر ذلك عليه.

ومن ذلك أن يرى المالَ الكثير فينفق ناسياً أنَّ ذلك يَفْنَى ، فيقع له فى ثانى الحال حوائج ، فَيلْقَى من الندمِ أضعاف ما التذَّ به فى النفقة ، فينبغى لمن رُزِقَ مالاً أنْ يَتَصوَّر السنَّ والعَجْزَ عن الكسب ، ويمثل ذهابَ الجاهِ فى الطلب من الناس ، ليحفظَ ما معه .

ومن ذلك أن ينبسط ذُو دولةٍ فى دولته ، فإذا عُزِلَ ندم على ما فعل ، وإنما ينبغى أنْ يتصور العزلَ ويعمل بمقتضاه .

ومن ذلك أنْ يُؤْثرَ لذةَ مَطعمٍ فيشبع ، فيفوته قيامُ الليل ، أو يؤثر لذةَ النوم فيفوته التهجد، أو يأكل أو يجامع بشَرَة فيمرض ، أو يشتهى جِماعَ سوداء وينسى أنها ربما حملت فجاءت ببنتٍ سوداء ، فكم مِنْ حسرةٍ تقعُ له على مدى الزمان كلما رأى تلك البنت . وقد كان فى زماننا مَنْ جامع سوداء فجاءت له بولدٍ فافْتُضِحَ به ، منهم صاحب المخزن ، وقاضى القضاة الدامغانى وكان تاجراً قد ولد له ابن أسود ، فلما رآه قال : لعن اللّه شهوتى .

ومن ذلك اشتغالُ العالم بصورة العلم، وإنما يُرادُ العمل به والإخلاص فى طلبه، فيذهب الزمان فى حُبِّ الصِّيتِ ، وطَلَبِ مدحِ الناس، فيقع الخسران إذا حُصِّلَ ما فى الصدور.

ومن ذلك اقتناعُ العالم بطرفٍ من العلم ، فأين مزاحمة الكاملين والنظر فى عواقب أحوالهم ؟ وقد يُؤْثِرُ الأسهلَ كإيثار علمِ الحديثِ على الفقه ، ومعاناة الدرج تسهل عند العلو .

ومن ذلك الإكثارُ من الجماع ناسياً مَغَبَّته ، وأنه يُضْعفُ البدنَ ويؤذى ، فالطبعُ يرى اللذةَ الحاضرة والعقل يتأمل ، وشرحُ هذا يطولُ لكن قد نبهت على أصوله . ولقد جِئْتُ يوماً من حَرٍّ شديد ، فتعجَّلتُ راحة البرودة فنزعتُ ثوبى فأصابنى زكام أشرفتُ منه على الموت ، ولو صبرتُ ساعةً ربحت ما لقيت ، فَقِسْ كُلَّ لذةٍ عاجلة ودَعِ العقلَ يتلمَّح عواقبها، واللّه أعلم.

وقال أيضاً : تأملت اللذات فرأيتها بين حِسِّىٍّ ومعنوى : فأما الحسياتُ فليست بشىءٍ عند النفوسِ الشريفة ، إنما تُرادُ لغيرها كالنكاح للولدِ ولزوالِ الفضول المؤذية ، والطعام للتغذى والتداوى ، والمال للإعداد وللحوائج والاستغناء عن الخلق ، وإنما جُعلت اللذاتُ فى تحصيلِ هذه الأشياء كالبرطيل حتى يحصلها وإنْ طُلِبَ منها شىءٌ لنفسِ الالتذاذ فإنَّ للطبع حظاً ، إلا

أنَّ كل لذة حسية تلازمها آفاتٌ لا تكاد تفى باللذة ؛ فإنَّ النكاحَ لذةُ ساعةٍ فيلازمه عاجلاً ذهابُ القوة وتَكلُّفُ الغُسْل ومداراةُ المرأة والنفقة عليها وعلى الأولاد ، فاللذة خطفت خطف البرق وما لازمها صواعق. وما يلازمُ المَطْعَمَ معلوم من الطهارة وغير ذلك. ومعلومٌ ما يلازمُ حُبَّ المال من معاناةِ الكسبِ والخوضِ فى الشبهات وصرفِ القلب عن الفكر فى الآخرة شغلاً بالاكتساب، وعلى هذا جميع اللذات الحسية فينبغى أنْ يتناول منها الضرورى ، فتقع معاناة ضرورية فتحصل قناعة بمقدار الكفاية والعفة عن فضول الشهوات .

وإنما اللذةُ الكاملةُ الأمور المعنوية ، وهى : العلمُ والإدراكُ لحقائقِ الأمور ، والارتفاع بالكمال على الناقصين ، والانتقام من الأعداء ، إلا أنه قد تكون لذةُ العفو أطيب ، لأنها لا تقع إلا فى حق ذليل قد قهر ، والصبر على نيل كل فضيلة وعن كل رذيلة ، والملاحظة لعواقب الأمور ، وعلو الهمة فلا تقصر عن بلوغِ غايةٍ تُرادُ بها فضيلةٌ ، ومَنْ علم أنَّ الدنيا تزول ، وأنَّ مراتبَ الناس فى الجنة على قَدْرِ أعمالهم فى الدنيا ، نافس أولئك قبلَ أنْ يصل إلى هناك ليقدم على مفضولين له ، ومَنْ تَفكرَ عَلِمَ أنَّ كثيراً من أهل الجنة فى نَقْصٍ بالإضافة إلى مَنْ هو أعلى منهم ، غير أنهم لا يعلمون بنقصهم قد رضوا بحالهم وإنما اليوم نعلم ذلك ؛ فالبِدار البِدار إلى تحصيل أفضل الفضائل ، واغتنامِ الزمنِ السريع مَرَّة قبل أنْ تجرع شراب الندم الفظيع مُرُّهَ ، وقُلْ لنفسك : أى شىء إلى فلان وفلان من الموتى ، فلهم فَنَافِسْ :

إذا أعجبتك خِصالُ امرىءٍ فَكُنْهُ تَكُنْ مِثْلَ ما يعجبك
فليس على الجود والمكرمات إذا جئتها حاجبٌ يحجبك

وقال أيضاً : لذات الحس شهوانية ، وكلها معجون بالكدر ، وأما اللذات النفسانية فلا كدر فيها كالأراييج الطيبة والصوت الحسن والعلم . وأعلاهُ معرفةُ الخالق سبحانه ، فمن غلب عليه شهواتُ الحسِّ شاركَ البهائمَ ، ومن غلب عليه شهوات النفس زاحم الملائكة .

وقال أيضاً : تفكرتُ يوماً فرأيتُ أننا فى دار المعاملة والأرباح والفضائل ، فمثلُها كَمَثَلِ مزرعةٍ مَنْ أحْسَنَ بَذْرَها والقيامَ عليها واتفقت الأرض زكية والشرب متوفراً ، كثر الريع ، ومتى اختل شىء من ذلك ، أثَّرَ يومَ الحصاد ، فالأعمال فى الدنيا منها فرض وقد وقع فيه تفريط كثير من الناس ، ومنها فضيلة وأكثرُ الناس متكاسلٌ عن طلب الفضائل .

والناس على ضربين : عالم يغلبه هواه فيتوانى عن العمل ، وجاهل يظن أنه على الصواب ، وهذا الأغلب على الخلق ؛ فالأميرُ يُراعى سلطنته ولا يبالى بمخالفة الشرع ، أو يرى بجهله جوازَ ما يفعله ، والفقيه همَّتُهُ ترتيبُ الأسئلة ليقهرَ الخصم ، والقاصُّ همته تزويقُ الكلام ليعجب السامعين ، والزاهدُ مقصودُه تزيينُ ظاهره بالخشوع لِتُقَبَّلَ يَدُهُ ويتبرك به ، والتاجرُ

يُمْضى عمره فى جَمْعِ المال كيف اتفق ففكره مصروفٌ إلى ذلك عن النظرِ إلى صحة العقود ، والمغرى بالشهوات منهمكٌ على تحصيلِ غرضه تارةً بالمطعم وتارة بالوطء وغير ذلك ، فإذا ذهب العمرُ فى هذه الأشياء ، وكان القلب مشغولاً بالفكر فى تحصيلها ، فمتى تتفرغ لإخراج زيفِ القصدِ من خالصه ، ومحاسبة النفس فى أفعالها ، ودفع الكدر عن باطن السر ، وجمع الزادِ للرحيلِ ، والبدار إلى تحصيل الفضائل والمعالى ؟

فالظاهرُ قدوم الأكثرين على حسرات ، إما فى التفريط للواجب أو للتأسف على فوات الفضائل ، فاللّه اللّهَ يا أهلَ الفهم ، اقطعوا القواطع عن المهم قبل أن يقع الاستلاب بغتةً على شتاتِ القلب وضياع الأمر .

فصل

لما صعد أبو الفرج ابن الجوزى رحمه اللّه من واسط إلى بغداد فى سنة خمس وتسعين خُلِعَ عليه ، وجلس للناسِ يومَ السبت ، وأحْسَنَ الكلامَ ، وكان مما أنشده قول الرضى الموسوى :

لا تُعْطِشِ الرَّوْضَ الذى نَبْتُه ... بِصَوْبِ إنعامكَ قد رُوِّضَا
لا تَبْرِ عوداً أنتَ قد رِشْتَهُ ... حاشا لبانى المجد أن يَنْقُضَا
إنْ كان لى ذَنْبٌ تَجَرَّمْتُهُ ... فاستأنفِ العفو وهَبْ ما مضى
قد كنتُ أرجوك لنيلِ المنى ... فاليوم لا أطلبُ إلا الرضا

ثم أنشد أيضاً

شقينا بالنوى زمناً فلما ... تلاقَيْنَا كأنَّا ما شقينا
سخطنا عندما جنت الليالى ... وما زالتْ بنا حتى رَضينَا
ومن لم يَحيَ بعد الموت يوماً ... فإنَّا بعدَ ما متنا حَيِينَا

فصل : إنكار أحمد للتبرك به ، وتواضعه وثناؤه على معروف الكرخى

روى الخلال فى « أخلاق أحمد » : عن على بن عبد [الصمد] (١) الطيالسى قال : مسحت يدى على أحمد بن حنبل ، ثم مسحت يدى على بدنى وهو ينظر ، فغضب غضباً شديداً وجعل ينفض يده ، ويقول : عَمَّنْ أخذتم هذا ؟ وأنكره إنكاراً شديداً .

وقال المروذى فى كتاب « الورع » : سمعت أبا عبد اللّه يقول : قد كان يحيى بن يحيى أوصى لى بِجُبَّتِه ، فجاءنى بها ابنه ، فقال لى ، فقلت : رجلٌ صالح قد أطاع اللّه فيها ،

(١) ساقطة من المخطوطة ، والمثبت من ر ، ط .

أتبرَّكُ بها ، قال : فذهب فجاءنى بمنديل ثياب فرددتها مع الثياب .

وقال محمد بن الحسن بن هارون : رأيت أبا عبد اللّه إذا مشى فى طريق يكره أن يتبعه أحد ، يعنى: الإمام أحمد. قال عبد الكريم بن الهيثم أبو يحيى القطان العاقولى : قال أبو بكر الخلال جليل القدر قال : وأخبرنى أنه قال : كنتُ مع أحمد جعلت أتأخر عنه فى الصف إجلالاً له ، فوضع يده على يدى ، فقدمنى إلى الصف .

وقال محمد بن داود المِصِّيصى [1]: كنا عند أحمد بن حنبل وهم يذكرونَ الحديثَ ، فذكر محمد بن يحيى النيسابورى حديثاً فيه ضَعْفٌ فقال له أحمد : لا تذكُرْ مثلَ هذا ، فكأنَّ محمد ابن يحيى دخله خجلة ، فقال له أحمد : إنما قلت هذا إجلالاً لك يا أبا عبد اللّه .

وعن أحمد أنه قال : كان معروف الكرخى من الأبدال ، مُجَابَ الدعوة ، وذكر فى مجلس أحمد ، فقال بعض مَنْ حَضَرَ : هو قصير العلم ، فقال له أحمد : أمْسِكَ عافاكَ اللّهُ، وهل يُرادُ من العلم إلا ما وصلَ إليه معروف .

وقال عبد اللّه : قلتُ لأبى : هل كان مع معروف شىءٌ من العلم ؟ فقال لى : يا بنى ، كان معه رأس العلم : خشية اللّه تعالى . وقد أثنى معروف على الإمام أحمد ، وقال : سمعتُ منه كلمتين أزعجتانى : مَنْ علم أنه إذا مات نسىَ ، فليحسن ولا يسىء .

فصل فى دعاء المظلوم على ظالمه وشىء من مناقب أحمد

قال هشام بن منصور : سمعتُ أحمد بن حنبل يقول : تدرى ما قالَ لى يحيى بن آدم ؟ قلتُ لا ، قال : يجيئنى الرجلُ ممن أبغضه وأكره مجيئه ، فأقرأ عليه كل شىء معه حتى أستريحَ منه ، ويجىء الرجل الذى أوَدُّهُ فأرده حتى يرجعَ إلىَّ .

وقال يحيى بن نعيم : لما خرج أبو عبد اللّه أحمد بن حنبل إلى المعتصم يوم ضُرِبَ ، قال له الملعون الموكلُ به : ادْعُ على ظالمك ، قال : ليس بصابرٍ مَنْ دعا على ظالمه ، يعنى الإمام أحمد أنَّ المظلومَ إذا دعا على مَنْ ظلمه فقد انتصرَ ، كما رواه الترمذى من رواية أبى حمزة عن إبراهيم ، عن الأسود عن عائشة مرفوعاً : « مَنْ دعا على مَنْ ظلمه فقد انتصر » [2] قال الترمذى : حديثٌ لا نعرفه إلا من حديث أبى حمزة [3] وهو ميمون الأعور ، ضَعَّفُوه لاسيما فيما رواه عن إبراهيم النخعى ، وإذا انتصر فقد استوفى حقه وفاته الدرجةُ العليا .

قال تعالى : ﴿ **وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [الشورى : ٤١ ــ ٤٣] .

---

(١) جاء فى أ ، ر ، ط : « أحمد بن داود المصيصى » ، وهو خطأ انظر : تهذيب التهذيب ٩ / ١٥٤ .

(٢) الترمذى فى الدعوات ، ب من دعاء النبى ﷺ (٣٥٥٢) .

(٣) فى المخطوطة : « حمزة » ، وفى الترمذى : « أبى حمزة » وهو الصحيح .

وقال ابن الزاغونى : رأيتُ فى المنام كأنى أمضى إلى قبر الإمام أحمد فإذا به جالسٌ على قبره وهو شيخٌ كبير السن ، فقال لى : يا فلان ، قَلَّ أنصارنا ، ومات أصحابنا ، ثم قال لى : إذا أردتَ أنْ تُنْصَرَ فإذا دعوتَ فقل : يا عظيم ، يا عظيمَ كُلِّ عظيمٍ ، وادْعُ بما شئتَ تُنْصر .

وقال يحيى بن أكثم : ذكرت لأحمد بن حنبل يوماً بعض إخواننا وتَغَيُّرَهُ علينا ، فأنشأ أبو عبد اللّه يقول :

وليس خليلى بالمَلُولِ ، ولا الذي ... إذا غِبْتُ عنه باعنى بخليلِ
ولكن خليلى مَنْ يدومُ وِصالُهُ ... ويحفظُ سِرِّي عند كل خليلِ

ونقل غيره عن أحمد أنه كان يقول :

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقب سوء فى مغبَّتها ... لا خيرَ فى لذةٍ مِنْ بعدها النارُ

وقد رأيت هذين البيتين لمسعر بن كدام [1] الإمام المشهور .

قال ابن عبد البر فى كتاب « بهجة المجالس » : كان المتمنى بالكوفة إذا تَمَنَّى يقول : أتمنى أنْ يكونَ لى فقهُ أبى حنيفة ، وحِفْظُ سفيان وورع مِسْعَر بن كدام ، وجواب شريك .

وقال أبو عبد اللّه بن أبى هشام يوماً عند أحمد فذكروا الكُتَّاب ودقة ذهنهم فقال : إنما هو التوفيق .

وقال عبد اللّه بن أحمد : ولد لأبى مولودٌ ، فأعطانى عبدُ الأعلى رقعةً إلى أبى يهنئه ، فرمى بالرقعة إلىَّ ، وقال : ليس هذا كتاب عالمٍ ولا مُحَدِّثٍ ، هذا كتابُ كاتب .

وقال أحمد : أقامت أمُّ صالح معى عشرينَ سنة ، فما اختلفتُ أنا وهى فى كلمة.

وقال المروذى : دخلت يوماً على أحمد فقلتُ : كيف أصبحتَ ؟ قال : كيف أصبح مَنْ رَبُّهُ يطالبه بأداء الفرائض ، ونَبِيُّهُ يطالبه بأداء السنة ، والمَلَكان يطالبانه بتصحيح العمل ، ونَفسُه تطالبه بهواها ، وإبليس يطالبه بالفحشاء ، ومَلَكُ الموت يطالبه بقَبضِ روحه ، وعياله يطالبونه بنفقتهم ؟!

---

(١) هو : مسعر بن كدام بن ظهير بن عبيد بن الحارث ، الإمام الثبت ، شيخ العراق ، أبو سلمة الهلالى الكوفى، الأحول ، الحافظ ، روى عن : عدى بن ثابت ، وعمرو بن مرة ، والحكم بن عتيبة وغيرهم ، وروى عنه : سفيان بن عيينة ، ويحيى القطان ، وسليمان التيمى وغيرهم ، قالوا عنه : ما رأيت أحداً أثبت من مسعر ، وقال أحمد بن حنبل : الثقة كشعبة ومسعر ، توفى فى رجب سنة خمس وخمسين ومائة . [سير أعلام النبلاء ٧/ ١٦٣ ــ ١٧٣] .

وقال رجل لبشر بن الحارث : يا أبا نصر ، إنى واللّه أُحبُّكَ ، فقال : وكيفَ لا تُحبنى ولستَ لى بجارٍ ولا قرابة .

وقال إبراهيم بن جعفر : قلتُ لأحمدَ بن حنبل : الرجل يبلغنى عنه صلاحٌ ، أفأذهبُ أصلى خلفه ؟ قال لى أحمد : انظر إلى ما هو أصلح لقلبك فافعله .

فصل فى الاستخارة وهل هى فيما يَخْفَى أو فى كلِّ شىء

قال جعفر بن الصانغ : سمعت أبا عبد اللّه أحمد بن حنبل يقول : كل شىء من الخير يُبَادَرُ به .

وقال محمد بن نصر العابد : سمعت أحمد بن حنبل يقول : كل شىء من الخير يبادر فيه. قال : وشاورته فى الخروج إلى الثغر ، فقال لى : بادر بادر . وهذا يحتمل أنه لا استخارةَ فيه كما قاله بعض الفقهاء لظهور المصلحةِ ، ويحتمل أن مراده بعد فعل ما ينبغى فِعلُهُ من صلاة الاستخارة وغيره .

وقول جابر : كان رسول اللّه ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها . حديث صحيح رواه البخارى وغيره (١) .

وقد استخارتْ زينب لما أراد النبىُّ ﷺ أن يتزوجها ، قال فى « شرح مسلم » : فيه استحبابٌ صلاةِ الاستخارةِ لمن هَمَّ بأمرٍ سواء كان الأمر ظاهر الخير أم لا . قال : ولعلها استخارت لخوفها من تقصيرها فى حقه ﷺ .

وقال شيخ الإسلام عبد اللّه بن محمد الأنصارى : أخبرنا أحمد بن على الأصبهانى أحفظُ مَنْ رأيتُ من البشر ، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم القطان، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن خالد الصنعانى ، حدثنى عمر بن عبد الرحمن ، سمعت وهب بن منبه يقول : قال داود : يارب ، أىُّ عبادكَ أبغضُ إليك ؟ قال : عَبْدٌ استخارنى فى أمر فَخِرْتُ له فلم يَرْضَ . الظاهر أنه إسناد حسن .

وقال الخلال فى الأدب (كراهة العجلة فى الأمور) : وروى عن عبد اللّه بن أحمد ، حدثنى أبى ، حدثنا إسحاق بن عيسى الطباع ، سمعت مالك بن أنس عابَ العَجَلَةَ فى الأمور، ثم قال : قرأ ابن عمر البقرة فى ثمان سنين . وظاهر هذا من الخلال مخالفته لما تقدم.

وقد قال أبو داود : حدثنا الحسن بن محمد الصبَّاح ، حدثنا عفَّان ، حدثنا عبد الواحد ،

---

(١) البخارى فى التوحيد ، ب قول الله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ** ﴾ (٧٣٩٠) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ، ب ما جاء فى صلاة الاستخارة (١٣٨٣) .

حدثنا سليمانُ الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، قال الأعمش : وقد سمعتهم يذكرون عن مصعب بن سعد ، عن أبيه . قال الأعمش : ولا أعلمه إلا عن النبيِّ ﷺ قال : « التؤدةُ فى كل شىء إلا فى عمل الآخرة » (١) كلهم ثقات .

واتَّأَدَ فى مشيه وتَوَأَدَ فى مشيه وهو افتعل وتفعل من التؤدة وأصل التاء فى « اتئد » واو ، يقال : اتَّئِدْ فى أمرك .

وقد سبق التثبت والتأنِّى فى الفتيا فى فصولِ العلم ، وقول مالك : إنه نوع من الجهل والخرق ، وما رواه البيهقى وغيره عن سعد بن سنان وهو ضعيف عندهم وحسن له الترمذى عن أنس مرفوعاً : « التأنى من اللّه ، والعجلة من الشيطان » (٢) . وذكرت فى مكان آخر ما فى الصحيح عن النبىِّ ﷺ : « إن اللّه رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ » (٣) وقوله : « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخيرَ » (٤) .

فصل فى حقيقة الزهد

قال الخلال : بلغنى أنَّ أحمدَ سُئِلَ عن الزاهد يكونُ زاهداً ومعه مائة دينار ؟ قال : نعم على شريطة إذا زادتْ لم يفرح ، وإذا نقصت لم يحزن . قال : وبلغنى أنَّ أحمد قال لسفيان : حُبُّ الرياسة أعجبُ إلى الرجل من الذهب والفضة ، ومَنْ أحَبَّ الرياسةَ طلب عيوبَ الناس [أو عابَ الناسَ] (٥) أو نحو هذا .

قال أبو طالب : سئل أحمد وأنا شاهد : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : قصر الأمل والإياس مما فى أيدى الناس . وفى « الصحيحين » عن النبىِّ ﷺ : « إن هذا المال حلوة خضرة ، فمن أخذه بسخاوة نَفْس بُورِكَ له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفسٍ لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع » (٦) .

وعن أبى ذر مرفوعاً : « ليس الزهادةُ فى الدنيا بتحريمِ الحلالِ ، ولا إضاعةِ المال ، ولكنَّ الزهد أن تكون بما فى يد اللّه أوثقَ منكَ بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبةِ إذا أُصبْتَ بها

(١) أبو داود فى الأدب ، ب فى الرفق (٤٨١٠) ، والحاكم فى الإيمان ١/ ٦٢ .

(٢) الترمذى فى البر والصلة ، ب ما جاء فى التأنى والعجلة (٢٠١٢) ، وقال : « هذا حديث غريب » ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤٣٦٧) .

(٣) البخارى فى الاستتابة ، ب إذا عرّض الذمى أو غيره بسب النبى ﷺ ولم يصرح (٦٩٢٧) ، ومسلم فى السلام ، ب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٥/ ١٠) كلاهما عن عائشة .

(٤) مسلم فى البر والصلة ، ب فضل الرفق (٢٥٩٢/ ٧٤) عن جرير بن عبد الله .

(٥) سقط من المخطوطة ، وهو فى أ ، ر ، ط .

(٦) البخارى فى الزكاة ، ب الاستعفاف عن المسألة (١٤٧٢) ، ومسلم فى الزكاة ، ب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (١٠٣٥/ ٩٦) .

أرغبَ منك فيها لو أنها نُفِيَتْ عنك » (١) ، لأن اللّه تعالى يقول : ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾ [الحديد : ٢٣] .

رواه الترمذى وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعمرو بن واقد مُنْكَرُ الحديث، يعنى الذى فى إسناده وكذا قال البخارى : مُنْكَرُ الحديث ، وقال النسائى والدارقطنى : متروك، وضعفه أيضاً غيرهم ، ورواه ابن ماجه من حديثه (٢) .

قال الشيخ تقى الدين : إذا سلم فيه القلب من الهلع ، واليد من العدوان ، كان صاحبه محموداً وإنْ كان معه مالٌ عظيم ، بل قد يكون مع هذا زاهداً أزهد من فقيرٍ هَلُوعٍ ، كما قيل للإمام أحمد وذكر ما سبق فى أول الفصل ، وذكر الخبرين السابقين وما رواه الترمذى وحَسَّنَهُ وإسناده جيد عن الحسن ، عن أبى سعيد مرفوعاً : « التاجرُ الصَّدُوقُ الأمينُ مع النبيين والصديقين والشهداء » (٣) .

وعن سفيان أنه قيل له : يكونُ الرجل زاهداً وله مالٌ ؟ قال : نعم ، إن ابْتُلِىَ صبر ، وإن أُعطىَ شكر .

وقال سفيان : إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحبُ سنة وبالمغرب صاحب سنة ، فابعث إليهما بالسلام وادْعُ اللّهَ لهما ، فما أقَلَّ أهلَ السنة والجماعة ! .

قال القاضى أبو يعلى : وذكر أبو القاسم القشيرىُّ فى كتاب « الرسالة » إلى الصوفية : وقال أحمد بن حنبل : الزهدُ على ثلاثة أوجه : تَرْكُ الحرام وهو زُهْدُ العوام ، والثانى : تركُ الفضول من الحلال وهو زهدُ الخواص ، والثالث : تركُ ما يشغل العبدَ عن اللّه عز وجل وهو زهدُ العارفين .

قال : وسمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت على بن عمر الحافظ : سمعت أبا سهل ابن زياد يقول : سمعت عبد اللّه بن أحمد يقول : سئل أبى ما الفتوة ؟ فقال : ترك ما تهوى لما تخشى . وقال أبو العتاهية : قد قلتُ عشرينَ ألف بيت فى الزهد ووددتُ أنَّ لى الأبيات الثلاثة التى لأبى نواس :

يا نُواسىُّ تَوَقَّـــرْ ... وتَعَـــزَّرْ وتَصَبَّرْ
إنْ يَكُنْ ساءك دَهْرٌ ... فَلَمَـا سَـرَّكَ أكثرْ
يا كثير الذنب عفــو ... اللهِ من ذنبك أكبرْ

---

(١) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا (٢٣٤٠) .
(٢) ابن ماجه فى الزهد ، ب الزهد فى الدنيا (٤١٠٠) .
(٣) الترمذى فى البيوع،ب ما جاء فى التجار وتسمية النبى ﷺ إياهم (١٢٠٩) وقال:«هذا حديث حسن » .

ورأى بعض إخوان أبى نواس له فى النوم بعد موته بأيام ، فقال له : ما فعلَ اللّهُ بك ؟ قال: غفر لى بأبيات قلتها وهى الآن تحتَ وسادتى . فنظروا فإذا برقعة تحت وسادته فى بيته مكتوبٌ فيها :

يا رب إنْ عَظُمَتْ ذُنوبى كَثْرَةً ... فلقد علمتُ بأنَّ عفوكَ أعظمُ
إنْ كان لا يرجوك إلا مُحْسنٌ ... فمن الذى يدعو إليه المجرم
أدعوك رَبِّ كما أمرتَ تَضَرُّعاً ... فإذا رَدَدْتَ يدى فَمَنْ ذا يرحمُ
ما لى إليك وسيلةٌ إلا الرجا ... وجميلُ ظَنِّىَ ، ثم أنِّىَ مسلمُ

وروى عن الإمام أحمد أنه سُئِلَ عن الزُّهْدِ ، قال : قِصرُ الأمل . ورواه فى موضع آخر عن سفيان ، عن الزهرى أنه قال ذلك .

وقال عبد اللّه بن أحمد : حدثنى أبى : سمعت سفيان يقول : ما ازدادَ رجلٌ عِلْماً فازدادَ من الدنيا قرباً إلا ازدادَ من اللّه بُعْداً .

وقال أحمد بن عبد اللّه بن خالد بن ماهان المعروف بابن أسد : سُئِلَ أحمد بن حنبل عن مسألة فى الورع ، فقال : أنا أستغفر اللّه ، لا يحلُّ لى أنْ أتكلَّمَ فى الورع ، وأنا آكلُ من غلَّةِ بغداد ، لو كان بِشْرُ بن الحارث صلحَ أنْ يُجيبكَ عنه ، لأنه كان لا يأكلُ من غلة بغداد ، ولا من طعامِ السوادِ . ذكره ابن الأخضر فى « من روى عن أحمد » .

وروى الترمذى عن زيد بن أخزم ، عن إبراهيم بن أبى الوزير ، عن عبد اللّه بن جعفر المخرمى ، عن محمد بن عبد الرحمن بن نبيه ، عن ابن المنكدر ، عن جابر قال : ذُكِرَ رجلٌ عند النبىِّ ﷺ بعبادة واجتهاد ، وذُكِرَ آخرُ بِرِعَة فقال النبىُّ ﷺ : « لا يعدلُ بالرِّعَةِ شىءٌ » (١) ابن نبيه تَفَرَّدَ عنه المخرمى وباقيه جيد ، قال الترمذى : غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وروى الخلال عن الفضيل قال : علامةُ الزُّهْد فى الناس إذا لم يحبَّ ثناءَ الناس عليه ، ولم يُبالِ بمذمَّتهم ، وإن قَدرتَ ألا تُعْرَفَ فافعل ، وما عليك ألاَّ يُثْنَى عليك ، وما عليك أنْ تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند اللّه عز وجل ، ومَنْ أحَبَّ أن يُذْكَرْ لم يُذْكَرْ ، ومن كَرِهَ أن يُذكرَ ذُكِر .

وقال إسحاق بن بنان : قال أحمد : سمعته يقول ــ يعنى بشراً ــ : قال إبراهيم بن أدهم: ما صَدَقَ اللّهَ عبدٌ أحَبَّ الشهرة .

---

(١) الترمذى فى صفة القيامة ، ب ٦٠ (٢٥١٩) ، والرعة : الورع .

وقال المروذى : سمعتُ أبا عبد اللّه يقول : مَنْ بُلِىَ بالشهرة لم يأمن أن يفتنوه ؛ إنى لأُفكِّر فى بدء أمرى ، طلبتُ الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة .

قال ابن عقيل فى « الفنون » : هجرانُ الدنيا فى عصرنا هذا ليس من الزهد فى شىءٍ وإنما المنقطعُ آنف من الذل ؛ فإنَّ مخالطةَ القُذراء قذارة ، والتخلى عنهم نزاهة ، ومَنْ طَلَّقَ عجوزاً مُنَاقرةً فلا عجب .

وقال : ما قَطَعَ عن اللّه وحَمَلَ النفسَ على محارمِ اللّه ، فهو الدنيا المذمومةُ ، وإنْ كان إملاقاً وفقراً ، وما أوْصَلَ إلى طاعةِ اللّه فذاك ليس بالدنيا المذمومةِ وإنْ كان إكثاراً .

وقال : الواجبُ شكرها من حيث هى نعمةُ اللّه وطريقٌ إلى الآخرة وذريعةٌ إلى طاعة اللّه، وكلُّ خيرٍ يعود بالإفراطِ فيه شَرًّا ، كالسخاء يعود إسرافاً ، والتواضع يعود ذلاً ، والشجاعة تعود تهوراً . وقال بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾ [النحل: ٩٧]. قال : القناعة.

قال ابن عقيل : لو علمتَ قَدْرَ الراحة فى القناعة والعز الذى فى مدارجها علمت أنها العيشةُ الطيبة ، لأنَّ القَنُوعَ قد كُفِىَ تَكَلُّبَ طِباعه ، والطَّبْعُ كالصبيان الرُّعْن ، ومَنْ بُلِىَ بذلك أذهب وقته فى أخَسِّ المطالب ، وفاتته الفضائل ، فأصبح كمربى طفلٍ ، يتصابى له ويجتهد فى تسكينِ طباعه تارةً بلعبةٍ تُلهيه ، وتارة بشهوة ، وتارةً بكلامِ الأطفال ، ومَنْ كان دأبه التصابى متى يذوقُ طعم المرجلة ، ومَنْ كان فى طبعه كذا فمتى يستعملُ عقله ؟! قال ابن عقيل: والحياة الطيبة التفويضُ إلى اللّه ، كالصبى حال التربية يفوض أمره إلى والديه ويثق بهما مستريحاً من كَدِّ التخير ، فلا يتخير لنفسه مع تفويضه إلى مَنْ يختار له ، المُفَوِّضُ وَثِقَ بالمُفَوَّضِ إليه . قال ابن عقيل: وعندى أنها فى الجنة، أعنى الحياة الطيبة؛ لأن الطيب الصافى والصفاء فى الجنة.

وقال أيضاً : مِنْ عجيبِ ما نقدت أحوال الناس كثرة ما ناحوا على خرابِ الديار ، وموتِ الأقارب والأسلافِ ، والتحسر على الأرزاق بذم الزمان (١) وأهله ، وذكر نكد العيش فيه ، وقد رَأَوْا من انهدام الإسلام ، وشعث الأديان ، وموت السنن ، وظهور البدع ، وارتكاب المعاصى ، وتقضى [العمر] (٢) فى الفارغ الذى لا يُجْدى ، فلا أحد منهم نَاحَ على دينه ، ولا بكى على فارط عمره ، ولا تأسَّى على فائتِ دهره ، ولا أرى لذلك سبباً إلا قِلَّةَ مبالاتهم بالأديان ، وعِظَمَ الدنيا فى عيونهم ، ضد ما كان عليه السلف الصالح : يرضون بالبلاغ ، وينوحون على الدين . انتهى كلامه .

---

(١) فى المخطوطة : « الدنيا » .

(٢) ساقطة من المخطوطة ، وهى فى أ ، ر ، ط .

وقد تقدم فى أول فصول طلب العلم حديث : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها » (١) .

ولمسلم من حديث أبى هريرة : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » (٢) .

وعن عائشة مرفوعاً : « الدنيا دارُ مَنْ لا دارَ له ، ولها يَجْمَعُ مَنْ لا عقلَ له »(٣) .

وأخذ ابنٌ لعمر خاتماً فأدخله فى فيه فانتزعه عمرُ منه ثم بكى عمر وعنده نفرٌ من المهاجرين الأولين ، فقالوا له : لِمَ تبكى وقد فتحَ اللّهُ لكَ وأظهركَ على عدوك وأقَرَّ عينك ؟ فقال عمر : إنى سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول : « لا تُفْتَحُ الدنيا على أحدٍ إلا ألقى اللّهُ عَزَّ وجلَّ بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة » (٤) وأنا مشفقٌ من ذلك .

وعن الضحاك بن سفيان أنَّ النبىَّ ﷺ قال له : « يا ضَحَّاك ما طعامك ؟ » قال : اللحمُ واللبن ، قال : « ثم يصير إلى ماذا ؟ » قال : إلى ما قَدْ علمتَ ، قال : « فإنَّ اللّه عز وجل ضرب ما يَخْرُجُ من ابنِ آدمَ مَثَلاً للدنيا » (٥) .

وعن أبىّ بن كعب مرفوعاً : « إنَّ مطعم ابن آدم مَثَلٌ للدنيا ، وإنْ قزحه وملحه فانظر إلى ماذا يصير ؟ » (٦) .

وعن مُطَرِّفِ بن الشِّخِّير ، عن رجل من الصحابة كان بالكوفة أميراً فخطب يوماً فقال : إن إعطاء هذا المالَ فتنة ، وإن إمساكه فتنة ، وبذلك قام رسول اللّه ﷺ فى خطبته حتى فرغ ، ثم نزل (٧) . إسناده جيد .

وعن أبى موسى مرفوعاً : « مَنْ أحب دنياه أضَرَّ بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ؛ فآثروا ما يبقى على ما يفنى » (٨) .

وعن أبى مالك الأشعرى مرفوعاً : « حلوةُ الدنيا مُرَّةُ الآخرة ، ومرةُ الدنيا حلوة الآخرة»(٩) .

وعن معاذ أنَّ النبى ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال : « إيَّاكَ والتَّنَعُّمَ ، فإنَّ عبادَ اللّه ليسوا

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) مسلم فى الزهد والرقائق ، ب فى الزهد والرقائق (٢٩٥٦/١) .
(٣) أحمد ٧١/٦ .
(٤) أحمد ١٦/١ .
(٥) أحمد ٤٥٢/٣ .
(٦) أحمد ١٣٦/٥ .
(٧) أحمد ٥٨/٥ .
(٨) أحمد ٤١٢/٤ ، والبيهقى فى السنن ٣/ ٣٧٠ .
(٩) أحمد ٣٤٢/٥ .

بالمتنعمين » [١] .

وعن معاوية مرفوعاً : « إن ما بقىَ من الدنيا بلاءٌ وفتنة » [٢].

وعن ابن مسعود مرفوعاً : أنه نهى عن التَّبَقُّر فى الأهل والمال [٣] . التبقر : التَّوسُّع ، وأصله من البَقْر : الشق .

وعن عتبة بن عبد السلمى مرفوعاً : « لو أنَّ رجلاً يُجَرُّ على وجههِ من يومِ وُلِدَ إلى يوم يموتُ هرماً فى مرضاة اللّه تعالى ، لحقره يوم القيامة » [٤] رواهن أحمد .

وأنشد ابن هبيرة الوزير الحنبلى لنفسه :

يَلَذُّ بِذِى الدنيا الغنىُّ ويَطْرَبُ ... ويزهدُ فيها الألمعىُّ المُجَرِّبُ
وما عرفَ الأيامَ والناسَ عاقلٌ ... ووُفِّقَ إلاَّ كان فى الموتِ يَرغبُ
إلى اللّه أشكو همَّةً لعبتْ بها ... أباطيلُ آمالٍ تَغُرُّ وتَخْلُبُ
فواعجباً من عاقلٍ يعرف الدُّنا ... فيصبح فيها بعد ذلك يرغب

وأنشد أيضاً :

الحمدُ للّه هذى العين والأثرُ ... فما الذى باتّباع الحقِّ ينتظر ؟
وقتٌ يفوتُ وأشغالٌ معوقةٌ ... وضعفُ عزمٍ ودارٌ شأنها الغِيَرُ
والناسُ رَكْضى إلى مأوى مَصارِعهم ... وليس عندهم مِنْ ركضهم خَبَرُ
تسعى بهم حادثاتٌ من نفوسهم ... فيبلغون إلى المَهْوى وما شعروا
والجهلُ أصلُ فسادِ الناس كلهم ... والجهلُ أصلٌ عليه يُخْلَقُ البشر

فى أبيات ذكرها وأنشد أيضاً :

يا أيها الناسُ إني ناصحٌ لكمُ ... فَعُوا كلامى فإنى ذو تَجَاريبِ
لا تُلْهِيَنَّكُمُ الدنيا بزهرتها ... فما تدومُ على حُسْنٍ ولا طِيبِ

وأنشد أيضاً :

---

(١) أحمد ٥/ ٢٤٣ ، وسنده ضعيف لضعف بقية .

(٢) ابن ماجه فى الفتن ، ب شدة الزمان (٤٠٣٥) ،قال فى الزوائد : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات »

(٣) أحمد ١/ ٤٣٩ .

(٤) أحمد ٤/ ١٨٥ .

إذا قَلَّ مالُ المرء قَلَّ صديقهُ وقُبِّحَ منه كُلُّ ما كان يَجْمُلُ

وأنشد :

والوقتُ أنفسُ ما عُنِيتُ بحفظهِ وأراه أسهل ما عليك يضيعُ

وقد قال ابن هانئ (١) الشاعر فى قصيدته التى يرثى فيها ولده :

حكْمُ المنيةِ فى البرية جارِ ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسانُ فيها مُخْبَراً حتى يُرى خبراً من الأخبار
طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تريدُها صفواً من الأقذارِ والأكدارِ
ومُكَلِّفُ الأيامِ ضِدَّ طِباعها مُتَطَلِّبٌ فى الماء جَذْوَةَ نارِ
العيشُ نومٌ والمنيةُ يقظةٌ والمرء بينهما خيالٌ سارِ
ليس الزمانُ وإنْ حَرَصْتَ مساعداً خُلُقُ الزمانِ عداوةُ الأحرارِ

ومنها :

وتَلَهُّبُ الأحشاء شَيَّبَ مَفْرِقي هذا الضياءُ شُواظُ تلك النارِ
لا حَبَّذَا الشيبُ الوفيُّ وحبذا شَرْخ الشبابِ الخائن الغدارِ
وَطَرِي من الدنيا الشبابُ ورَوْقُهُ فإذا انقضى فقد انقضت أوطارى

ومنها :

ذهب التكَرُّمُ والوفاءُ من الورى وتَصَرَّمَا إلا مــن الأشعـارِ

وكان الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه اللّه تعالى يتمثل كثيراً بالبيت الثالث والرابع ، وذكرهما القاضى السُّروجىُّ الحنفىُّ فى شرحه فى الجنائز فى المصاب ، ولابن هانىء أيضاً مما قد يتعلق بغير هذا الموضع :

لا أنـتَ عند اليُسْرِ مـن زُوَّارِه يوماً ولا فى العُسْرِ من عُوَّاده

وله منها :

أفدي الكتابَ بناظرى ، فبياضُه بـبـيـاضِه ، وسـوادُه بـسـوادِه

وله :

قد كان يرجفُ فى ليالى وَصْلِه قلبى فكيف يكونُ يومَ صُدوده

(١) سها المصنف وعزا القصيدة لابن هانئ ، وهى لأبى الحسن على بن محمد التهامى .

وله :

كم عاهد الدمعُ لا يُغْري بجريتهِ الـ ـواشى فلما اسْتَقَلَّتْ ظعْنُهُمْ غَدَرا

وللترمذى وحَسَّنَهُ : عن عبد الرحمن بن عوف قال : ابتُلِينَا مع رسولِ اللّه ﷺ بالضَّرَّاءِ فصبرنا ، ثم ابتلينا بالسَّراءِ بعده فلم نصبر (١) .

فصل فى أخبار العابدات والعابدين والزهاد

قال الحسن بن الليث الرازى : قيل لأحمد : يَجيئُكَ بِشْرٌ ، يَعْنُون : ابن الحارث ؟ قال : تعنون الشيخَ ، نحنُ أحَقُّ أنْ نذهبَ إليه ، قيل له : نجيء به ، قال : لا ، أكره أن يجيء إلىَّ أو أذهبَ إليه ، فيتصنع لى وأتصنع له ، فَنَهْلكَ .

وقال المروذى : سمعتُ أبا عبد اللّه ، وذكر بِشْرَ بن الحارث ، فقال : لقد كان فيه أُنْسٌ. وقال : ما كلمته قط ، نقلته من « الورع » .

وقد قال البيهقىُّ فى « مناقب الإمام أحمد » : أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ ، حدثنا أبو بكر ابن أبى دارم الحافظ بالكوفة ، حدثنى أبو محمد المقرئ البغدادى ، حدثنا جعفر بن محمد صاحب بشر ، قال : اعْتَلَّ بِشْرُ بن الحارث فعادته آمنةُ الرملية من الرملة فإنها لَعِنْدَهُ إذْ دخلَ أحمدُ بن حنبل يَعُودُهُ فقال : مَنْ هذه ؟ فقال : هذه آمنة الرملية بلغها علَّتى فجاءت من الرملة تعودنى ، فقال : فَسَلْها تدعو لنا ، فقالت : اللهم إنَّ بِشْرَ بن الحارث وأحمد بن حنبل يَستجيرانكَ من النار فأَجِرْهُمَا ، قال أحمد : فانصرفت ، فلما كان فى الليل طرحت إلىَّ رقعة فيها مكتوب : بسم اللّه الرحمن الرحيم ، قد فعلنا ولَدَيْنَا مَزِيد .

وقال المروذى : قال أبو عبد اللّه : جاءتنى امرأةٌ من هؤلاء المتعبدات فأخبرتنى عن امرأة أخرى أنها عمدت إلى شيئها ففوتته على نفسها ، واقتصرتْ على قرصين وتَركتِ الدنيا وهى تسألك أنْ تدعوَ لها ، قال : فقلتُ لها : قولى لصاحبةِ القرصين تدعو لى .

وقال المروذى : سمعتُ أبا عبد اللّه يقول : ما أعدلُ بفضلِ الفقرِ شيئاً ؛ أتدرى إذا سألكَ أهلك حاجةً لا تقدرُ عليها أىّ شىءٍ لكَ من الأجر ؟ ما قَلَّ من الدنيا كان أقلّ للحساب .

وقال المروذى : سمعتُ أحمد يقول : إنَّ لكل شىء كرماً وكرمُ القلب الرضا عن اللّه تعالى . سمعتُ أبا عبد اللّه يقول لشجاع بن مخلد : يا أبا الفضل إنما هو طعامٌ دونَ طعامٍ ، ولباسٌ دون لباس ، وإنها أيام قلائل .

وقال أيضاً عن أحمد : ما أعدلُ بالصبر على الفقر شيئاً ، كم بين مَنْ يُعْطَى من الدنيا

---

(١) الترمذى فى صفة القيامة ، ب ٣٠ (٢٤٦٤) .

لِيُفْتَنَ إلى آخرَ تُرْوَى عنه . قال : وذكرتُ لأبى عبد اللّه عن بعض المفتين شيئاً فى الورع ، فَشَدَّدَ على السائل وهو عبد الوهَّاب ، فقال أبو عبد اللّه : ليس ينبغى للرجلِ أنْ يحملَ الناسَ على ما يفعلُ أو كلاماً ذا معناه إذا كان يفتى ، وقال : سمعت أبا عبد اللّه وذكر قوماً من المترفين فقال : الدُّنُوُّ منهم فتنةٌ والجلوسُ معهم فتنة .

وروى الترمذى وقال : غريب ، عن عائشة قالت : قال رسولُ اللّه ﷺ : « إنْ أردتِ اللحوق بى فليكفكِ من الدنيا كزاد الراكب ، وإياكِ ومجالسةَ الأغنياء ولا تستخلقى ثوباً حتى ترقعيه » (١) .

وعن مكحول قال : قلت للحسن : إنى أريدُ الخروجَ إلى مكة ، قال : إيَّاك أنْ تصحبَ رجلاً يكرم عليك فيفسد الذى بينه وبينك .

وقال أحمد : إنما قوى بِشْرٌ ، لأنه كان وحده ولم يَكُنْ له عيال ، ليس مَنْ كان معيلاً كمن كان وحده ، لو كان إلىَّ ما باليتُ ما أكلت .

وقال أيضاً : لو ترك الناسُ التزويجَ ، مَنْ كان يدفعُ العدو ؟ لَبُكَاءُ الصبىِّ بين يدى أبيه مُتَسَخِّطاً يطلبُ منه خبزاً أفضلُ من كذا وكذا يراه اللّه بين يديه ، أين يلحق المتعبد الأعزب .

وقال فى « الفنون » : حديث مسند أنَّ النبىَّ ﷺ قال : « إذا طلب إلى ذى العيلة عَيْلَته شهوة فأين يلحقه القائم الصائم » .

وذكر أبو عبد اللّه من المحدثين على بن المدينى وغيره كم تمتعوا من الدنيا : إنى لأعجبُ من هؤلاء المُحَدثين حِرْصَهم على الدنيا . قال المروذى : وذكرتُ رجلاً من المحدثين فقال : أنا أشرتُ به ألا يكتب عنه ، وإنما أنكرت عليه حبه الدنيا ، وقد سبق معنى هذا فى فصول العلم وأن العالم ليس كغيره لأنه يقتدى به .

قال المروذى : وسمعت أبا عبد اللّه يقول : قد تفكرت فى هذه الآية : ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه : ١٣١] .

ثم قال : تفكرت فىَّ وفيهم وأشار نحو العسكر وقال : ﴿ **وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ قال : رِزْقُ يوم بيومٍ خيرٌ ، قال : ولا يهتم لرزق غد . وقال أبو داود : كانتْ مجالسةُ أحمد بن حنبل مجالسةَ الآخرة لا يذكرُ شيئاً من أمرِ الدنيا ، وما رأيته ذكرَ الدنيا قط .

وقال أحمد لرجل : لو صَحَّحتَ ما خِفْتَ أحداً ! وسبق بنحو أربعة كراريس فى فضائله .

وسئل عن الحُبِّ فى اللّه فقال : هو ألا يحبه لطمع دنيا ، وفيه أخبار كثيرة :

---

(١) الترمذى فى اللباس ، ب ما جاء فى ترقيع الثوب (١٧٨٠) .

منها ما روى مسلم من حديث أبى هريرة : « يقول اللّه يوم القيامة : أين المُتَحابُّونَ بجلالى ؟ اليومَ أُظِلُّهم فى ظلى يومَ لا ظِلَّ إلا ظلى » (١) .

وللترمذى وقال : حسن صحيح : عن معاذ مرفوعاً : « قال اللّه : المتحابون بجلالى لهم منابرُ من نور يَغْبطهم النبيُّون والشهداء » (٢) .

ولأبى داود هذا المعنى من حديث عمر وفيه : « قومٌ تَحَابُّوا بروحِ اللّه على غيرِ أرحامٍ بينهم ولا أموالٍ يتعاطونها » (٣) .

ولمالك وأحمد من حديث معاذ : « إنَّ اللّه يقولُ : وَجَبَتْ جَنَّتى للمتحابين فىَّ والمتجالسين فىَّ » (٤) .

ولمسلم من حديث أبى هريرة : أن المَلَكَ قال لِلَّذى زار أخاه : إنى رسولُ اللّه إليك ،إنَّ اللّه قد أحَبَّكَ كما أحببته فيه (٥) .

ولأحمد من حديث أبى أمامة : « ما أحَبَّ عبدٌ عبداً إلا أكرمه ربُّه » (٦) .

وفى « الصحيحين » من حديث ابن مسعود وغيره أن رجلاً قال : يا رسولَ اللّه ، الرجلُ يحب القومَ ولَمَّا يَلْحَق بهم ؟ قال: « المرء مع من أحب » (٧) .

وذكر أحمد الدنيا ، فقال : قَليلُها يجزئ وكثيرها لا يجزئ ، وقال : لو أن الدنيا تكون فى مقدار لقمة ثم أخذها امرؤٌ مسلم ، فوضعها فى فَمِ أخيهِ المسلم لما كان مُسْرفاً .

فصل

قال محمد بن عمران أبو جعفر الخياط : سمعت أحمد بن حنبل يقول : بلغنى عن أخى منصور بن عمران أنه كان يقول : اللهم قد أحاطت بنا الشدائدُ وأنتَ ذُخْرٌ لها ، فلا تعذبنا وأنتَ قادر على العفو ، سيدى قد أرَيْتَنَا قُدْرَتكَ ولم تزل قادراً ، فأرِنَا عفوكَ فلم تزل عَفُواً .

قال أبو جعفر أحمد بن الحسين المنادى : فلو كانَ عند أبى عبد اللّه فى منصور أدنى شىءٍ

---

(١) مسلم فى البر والصلة ، ب فى فضل الحب فى الله (٢٥٦٦/ ٣٧) .
(٢) الترمذى فى الزهد ، ب ما جاء فى الحب فى الله (٢٣٩٠) .
(٣) أبو داود فى البيوع ، ب فى الرهن (٣٥٢٧) .
(٤) أحمد فى مسنده ٥/ ٢٢٩ ، ومالك فى موطئه ، ب فى الشعر ، ما جاء فى المتحابين فى الله ٢/ ٩٥٣ ، ٩٥٤ (١٦) .
(٥) مسلم فى البر والصلة ، ب فى فضل الحب فى الله (٢٥٦٧/ ٣٨) .
(٦) أحمد ٥/ ٢٥٩ .
(٧) البخارى فى الأدب ، ب علامة الحب فى الله (٦١٦٩) ، ومسلم فى البر والصلة ، ب المرء مع من أحب (٢٦٤٠/ ١٦٥) .

من التُّهمةِ فى البدعة لما حكى عنه شيئاً ولا خَصَّهُ بالأُخوةِ .

قال ابن المنادى : إنَّ أبا عبد اللّه النواء قال : قلتُ لبشر بن الحارث : إن منصور بن عمار يقول فى بعض كلامه : يا عبيد ما يفنى ، كيف رأيتم ذُلَّ مَملَكة الدنيا ؟ أَلَمْ تَصحبوها بالائتمان لها ، فأذاقتكم الغش من مكروهها ؟ قال : فَوَجَمَ لذلك بِشْرٌ وسكت ، فأردتُ أنْ أزيده فقال : قد أشغلت علىَّ قلبى .

فصل فى تعبد الجهل وتقشف الرياء وتزهد الشهرة وعبودية العلم والحكمة

قال محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو الحسين بن سمعون وسأله البرقانى : أيها الشيخُ ، تدعو الناسَ إلى الزهدِ فى الدنيا والترك لها وتلبسُ أحسنَ الثياب وتأكلُ أطيبَ الطعام ، فكيف هذا ؟ قال : كلُّ ما يصلحك مع اللّه فافعله ، إذا صلح حالك مع اللّه تلبس لين الثياب وتأكل طيب الطعام ، فلا يضرك .

وقال ابن الجوزى : قد تقع لكثيرٍ من الناس يَقَظَةٌ عند سماعِ المواعظ وأخبار الزُّهَّاد والصالحين ، فيقومون على أقدامِ العزائم على الزهد وانتظار الموتِ بما يصلح لهم ، ففيهم مَنْ يقتدى بجاهلٍ من المتزهدين ، أو يعمل على ما فى كتاب بعض الزهاد فيرى فيه التَّقَلُّلَ من الطعام بالتدريج وترك الشهوات وأشياء قد وضعها من قلة علمه بالشريعة والحكمة ، فيديم الصومَ والسهر والتقلل ، ويدوم على المآكل الردية ، فتجفَ المعدةُ وتضيقُ ، وتقوى السوداء ، وتَنْصَبُّ الأخلاطُ إلى الكبد والطحال وربما تصاعدت إلى الدماغ فيبس أو فَسَدَ الطبع ، وربما تغير ذهنه فاستوحش من الخَلْقِ وحشةً يعتقدها أُنْساً بالحق ، فأعرض عن مجالسة العلماء ظنا منه أنه قد بلغَ المقصود ، فهذه الأشياء تعكر أولاً المطلوب من التعبد فينقطع الإنسان بضعف القوة عنه ، ويبقى معالجاً للأمراض فيشتغل الفكر فيها عما هو أهم .

ولقد تَخَبَّطَ فى هذا الأمر خَلْقٌ كثير من الصالحين صَحَّتْ مقاصدهم وجهلوا الجادة ، فمشوا فى غيرها ، وفى هؤلاء الذين حملوا على أنفسهم مَنْ عاجَلَه المرضُ والموت ، وفيهم مَنْ رجع القهقرى ، ومنهم مَنْ تَخَبَّطَ فلا مِنْ هؤلاء ولا من هؤلاء . فأما العلماء الفهماء ، فإنهم على قانون الحكمة وسبيل العلم ؛ فإياك أن تعرض عن الجادة السليمة ، واحذر من الاقتداء بِجُهَّالِ المتصوفة والمتزهدين الذين تركوا الدنيا على زعمهم ، فالصادقُ منهم فى تركها عاملٌ بواقعه لا بالعلم ، والمبهرج منهم خسرَ الدنيا والآخرة .

ومِنْ جَهْلِ هؤلاء أنهم لو رأوا عالماً يَرْفُقُ بنفسه عابوه ، ولو رأوا عليه قميص كتان قال زاهدهم : هذا ما يعملُ بعلمه ؟ ولو رأوه راكباً فرساً قالوا : هذا جبار ، فإياك أنْ تحملكَ وثبةُ